الحرب اللامنظورة



نقله
إلى العربيّة
الأب
منيف حمصي

١٩٩١



نقله

إلى العربية

الأب

منيف حمصي

١٩٩١

طبعة اولى
١٩٩١

الاهـداء

الى :

- قدس الأب الفاضل الارشمندريت افرام كرياكوس المحترم
- قدس الأب الفاضل جورج عطية وعائلته
- الاخ المحامي اسكندر ورد وعائلته
- الأخ المحامي انطوان ورد واهله
- الدكتور عدنان طرابلسي

سائلاً لهم جميعاً
الخير والبركة والدعاء

الأب
منيف حمصي
كاهن بلدة عفصديق.

الفهرس

القديس نيقوديم الآثوسي
حياته وكتاباته

ولد القديس نيقوديم الآثوسي في جزيرة ناكسوس Naxos سنة ١٧٤٧ من أب يدعى أنطونيوس وأم تدعى أنسطاسيا. اسمه في العالم نيقولاوس. كان والد نيقولاوس ذا شأن في تلك الأيام، تقياً ورعاً، تعاون مع زوجته انسطاسيا على تربية أولادهما على مخافة الرب، والسلوك بمقتضى مشيئة الله. لنيقولاوس (القديس نيقوديم) أخ يدعى بطرس. أخبرنا أنه كان يمسك بيده فيذهبان معاً برفقة الأهل إلى الكنيسة. في الكنيسة كان الشقيقان يساعدان كاهن الجزيرة في شؤون الهيكل أثناء القداس الإلهي، وكانا في الوقت نفسه يساعدان في الترتيل والقراءة والإنشاد. ليس عندنا معلومات البتة عن أخيه بطرس، هل مات، أم تزوج وانتقل ألى مكان آخر.. جل ما في الأمر أننا سمعنا عنه بشكل موجز في إحدى كتابات القديس نيقوديم دون أن يغني ذلك من معلوماتنا عن بطرس.

بعد موت أبيه أنطونيوس، ترك نيقولاوس العالم ومضى إلى جبل آثوس حيث صار راهباً يحمل اسماً جديداً هو نيقوديم Nicodimus. أما والدته أنسطاسيا فقد توجهت إلى دير نسائي على اسم القديس يوحنا الذهبي الفم يقع في إحدى أطراف الجزيرة النائية Naxos، حيث صارت راهبة تحمل اسم (أغاثي = أي صالحة).

ما إن حطّ به الرحال في آثوس، حتى طاف في الجبل واستقر في النهاية في دير القديس ديونيسيوس ليبدأ حياته الملائكية. وما هي إلا فترة قصيرة، حتى تقدم ولمع بالفضائل، وتميز بالطاعة، واشتهر بحب الصلاة

القلبية[1]، فكان رجل الصلاة، يتكلم عليها بفرح وفي كل المناسبات. والذي يقرأ كتاباته، يلاحظ أنها لا تخلو البتة من لهفة والتفاتة واضحة إلى ضرورة الصلاة وحلاوتها.

لم يكن القديس نيقوديم إنساناً أمياً، بل كان مثقفاً كبيراً وعارفاً علوم عصره. فكان ذا عقل علمي، وفكر ثاقب خلاق. وكان إلى جانب ذلك، يتمتع بأخلاق عالية تندر بين بني البشر.

تلقى القديس نيقوديم علومه الأولى، منذ أن تفتح على الحياة، على يد كاهن رعيته، الأرشمندريت خريسانثوس (الزهرة الذهبية)، الذي كان أستاذاً في مدرسة الجزيرة Naxos. ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره، أرسلته أمه انسطاسيا إلى مدينة أزمير (تركيا)، إلى مدرسة داخلية تعرف باسم (المدرسة الإنجيلية)، وكانت بحق على المستوى اللائق بين مدارس ذلك الزمان. أعجب نيقوديموس القديس لا سيما بمدير المدرسة القدير ايروثيوس بولسام. وفي تلك المدرسة التقى نيقولاوس (نيقوديم لاحقاً) رفيق الدراسة غريغوريوس السادس بطريرك القسطنطينية. كان نيقولاوس مثال الطالب الخلوق النجيب والمجتهد. أحب العلم جداً وانكبّ على التحصيل بكل جوارحه. درس اللاهوت والآداب واللغات الأجنبية. ويقال أنه تعلّم الانكليزية أيضاً. كان باختصار رجل الحكمة والفضيلة معاً. ثم إن مدير مدرسة أزمير، طلب منه أن يُعِدّ نفسه لخلافته على إدارة المدرسة وشؤونها، لكن نيقولاوس رفض عرضه بلطف، فنارُ الشوق الإلهي كانت تستعر في داخله، وكانت أنظاره تتطلع إلى آثوس.

كان في نفس نيقولاوس الشاب حنين لا يوصف إلى حياة الصلاة والسكينة، وقد رغب من كل قلبه في أن يكرس حياته لله. لقد أحب القول الآبائي الشهير: «مغبوطة عيشة أهل البراري لأنهم بالعشق الإلهي يتطايرون دائماً».

---

(١) The Jesus prayer

في تلك الأثناء، اضطر نيقولاوس أن يعود إلى جزيرة ناكسوس بسبب اندلاع الحرب بين روسيا وتركيا في صيف ١٧٧٠. فعاد إلى مسقط رأسه ناكسوس، وهناك أوكل إليه المطران أنثيموس مهمة إدارة ديوان المطرانية وجعله كاتباً عنده وأمين سره. فقام نيقولاوس ينفذ المهمات الموكولة إليه، بجدّ وغيرة واخلاص. وخلال الخمس السنوات التي قضاها في ديوان المطرانية تقرّب من كتابات الآباء القديسين والنصوص النسكية الأرثوذكسية، فالتهب قلبه من جديد وتحركت فيه الدعوة الرهبانية. تعرّف نيقولاوس إلى الأسقف مكاريوس مطران كورنثوس، الرجل القديس الذي فتّح نفس نيقولاوس على السيرة الملائكية وحلاوتها. وكان بنتيجة اتصاله بهذا الأسقف أن وطّد العزم على الرحيل إلى آثوس، فقام يودّع والدته أنسطاسيا، ثم حمل حقيبته وتوجّه إلى الشيخ (Starets) سلبستروس للتبرّك، فحمّله ذاك بعض الرسائل إلى القديسين في آثوس.

وصل نيقولاوس إلى آثوس سنة ١٧٧٥ وكان ابن ست وعشرين سنة. نزل على دير القديس ديونيسيوس أخاً مبتدئاً. ومنذ وصوله تحوّل اسمه إلى نيقوديم Nicodimus الاسم الذي طبقت شهرته الآفاق، فيما بعد، نظراً لعلمه وغزارة كتاباته الروحية ونوعيتها.

وفي الدير تدرّج نيقوديم في الفضائل، فبدأ قارئاً، ثم كاتباً. كان الراهب نيقوديم صاحب قلم سيّال، وفكر دفاق، وروحانية مشرقة، فوضع كتابه الأول وسمّاه (فيلوكاليا الآباء النساك). وبعد فترة وجيزة وضع كتاباً آخر سمّاه أقوال الآباء الشيوخ، ثم ألحقه بثالث سمّاه (المناولة المتواترة)، ودفع بهذه الكتابات كلها إلى مطران كورنثوس مكاريوس الذي كان في زيارة للجبل المقدس (آثوس) بغية الاستجمام الروحي والتبرّك من الآباء القديسين. فما أن تسلّم المطران مكاريوس هذه الكتابات وطالعها، حتى وعد نيقوديم بطباعتها فور عودته.

لم يكن نيقوديم رجل القلم والفكر فقط، بل كان إلى جانب ذلك، رجل المحبة والجهاد والصلاة وكل الفضائل. وبسبب عشقه لحياة

الصلاة، وموهبته الفكرية، وقدرته على الكتابة، فقد وضع كتاباً رابعاً يعتبر بحق درّة ولؤلؤة في كل أنحاء العالم الأرثوذكسي، سمّاه (الاعتراف). فجاء هذا الكتاب وسواه من كتابات القديس نيقوديم، ليلبي حاجة، ويسدّ فراغاً عند المعرّفين والمعترفين معاً، لا سيما وأن الأبـوة الروحيـة ركيزة أساسية في مدماك التقليد الأرثوذكسي الشريف Holy Tradition. ثم ما لبث نيقوديم أن وضع بعد حـين كتابـاً آخر في تفسـير رسائـل القديس بولس، وآخر في تفسير كتاب المزامير. ثم أضاف كتاباً آخر سماه (بستان النعم) شرح فيه، مطوّلاً، التسع الأودية في صلاة السحر.

إن حياة النسك الشديد، وشظف العيش، وحسد الأعداء المقرّبين والبعيدين، تضافرت معاً على هدم صحته، فاعتلّ، لكنه رغم هذا ظلّ مواظباً على الصلاة بغيرة منقطعة النظير. وتمكّن، في مرضه، من وضع كتاب جديد سماه (اعتراف الايمان).

في نهاية حياته ، ومع اقتراب موعد رحيله، خارت قواه، ودبّ إليه المرض ناشباً بـراثنه فيـه، وضرب الشيب رأسه، وخف سمعـه، وضعف عزمه رغم أنه لم يكن قد تجاوز الستين من العمر. ولم تمض فترة من الزمن حتى شُلّت يمناه، فأدرك أن النهاية باتت وشيكة، وأن الرحيل قريب. والروحانيون لا يهابون الموت هذا الضيف العزيز فهو جسرهم إلى الله، وهم منذ بداية حياتهم في الروح، يحيون في انتـظار الموت، وأدبهم النسكي ممهور بذكر الموت (Memory of death) فليس من حياة روحية بدون قاعدة الموت؛ فالموت عندهم أساس الحياة. وهكذا طلب نيقوديم مقابلة الأب الـروحي، فكان لـه ما أراد. ولـما امتثل ذاك في حضرة هذاالشيخ الجليل الممدد على فراش الموت، انبرى نيقوديم يبوح له بكل مكنونات قلبه، على نحو يندر بين البشر. وفي الثالث عشر من تموز، ساءت حاله وتراجعت صحته، وخفت صوته وغار النور في عينيه، وضربته رجفة تجلّت في كل جسمه. في تلك اللحظة الرهيبة وقف واحد من الموجودين في المنسك وقال: هل أنت في هدوء يا أبتِ؟ وكان جواب

الأب القديس: كيف لا أكون في الهدوء (Hesy chia) وقد جعلت المسيح في مركز حياتي، وكل حياتي، وغاية وجودي؟ هذه كانت آخر كلمات نطق بها هذا الفم الطاهر. وفي صبيحة الرابع عشر من تموز، غادر هذه الفانية إلى العالم العلوي، بعد حياة في الجسد عاشها يغب من فيض النعمة الإلهية. فتمت الصلاة على جثمانه وفق عادة الدير وتقاليده. ثم دفن في منسك سكورتي، باحتفال رهباني ليتورجي مهيب. وما تزال هامته إلى اليوم في المكان الذي دفن فيه. رقد بالرب في ١٤ تموز سنة ١٨٠٧.

للقديس نيقوديم شهرة طبّقت الآفاق في حدود آثوس وخارجه. فلا يكاد اسمه يطرح في أوساط اللاهوتيين والرهبان إلا ويقوم من يتكلم على لاهوت نيقوديم وسيرته وقداسته. لقد طبعت في أرجاء العالم الأرثوذكسي أجزاء كثيرة من مؤلفاته، ونقل بعضها إلى الروسية والإنكليزية والفرنسية والألمانية والايطالية بما فيها الرومانية والتركية أيضاً. وقامت البطريركية المسكونية سنة ١٩٥٥ باعلان قداسته بعيد قرن ونيف على رقاده. ما يزال هذا القديس إلى اليوم في ضمير المؤمنين، لا سيما أحباء اللاهوت والروحانية الأرثوذكسية. كانت حياته مرآة تعكس الجمالات الفردوسية وتشهد بالمذاقة أن عذابات الأرض لا تقاس بأفراح السماء. إنه وجه معاصر لفحته النعمة الإلهية، فسطع التراب فيه وتجلّى.

كتاباته:

مع كبير الحزن نقول بأن جزءاً ضئيلاً من أعماله قد ضاع. لكن لحسن الحظ، إن معظم كتاباته ما تزال محفوظة، فبعضها قيد الطبع، والبعض الآخر تحت أكوام من التراب، وآخر صدر بحلة رائعة تشهد في الشكل والمضمون على روعة الفكر النسكي والأدب الروحاني. يبقى أن نقول بأن ما طبع حتى الآن يعتبر في ذاته كنزاً رائعاً وتراثاً فريداً وتحفة أرثوذكسية آثوسية لا تُنسى.

فما هي أعماله؟

١ - في التفسير:

١ - تفسير كتاب المزامير (مجلدان - ١٢٠٠ صفحة).
٢ - تفسير رسائل القديس بولس (ثلاثة مجلدات ١٣٥٠ صفحة).
٣ - الرسائل الجامعة (كتاب في ٣٧٠ صفحة).

٢ - في القانون الكنسي:

١ - تفسير القوانين الموجودة في البيزاليون (٧٨٩ صفحة)
٢ - قوانين الاعتراف (٤٠٠ صفحة).

٣ - في النسك والاخلاق والتصرف:

١ - فيلوكاليا الآباء النساك (٥ مجلدات).
٢ - أقوال الآباء الشيوخ (نصوص، وسير، وآباء، ونسكيات) وهذه تقع في ٤ مجلدات ضخمة.
٣ - في المناولة المتواترة (٢٨٨ صفحة).
٤ - في الإرشادات الروحية، كتاب يقع في ٢٢٠ صفحة يتناول موضوع حفظ الحواس الروحية الخمس.
٥ - كتاب عن البارّ ملاتيوس المعترف (٢٢٥ صفحة)
٦ - تعريف بكتابات القديس سمعان اللاهوتي الجديد، ومدخل إلى قراءته. وهو كتاب كبير يقع في (٧٥٨ صفحة).
٧ - تعريف بالأب القديس غريغوريوس بالاماس وبكل كتاباته (٣ مجلدات ضخمة) لم يحفظ لنا الدهر منها سوى المقدمة فقط.
٨ - كتاب الحرب غير المنظورة (٢٧٦ صفحة).
٩ - كتاب الرياضات النسكية (٦٠٨ صفحات). وقد أكسبه شهرة عالمية في الأدب النسكي.
١٠ - حقيقة يسوع المسيح، درّة فريدة ولؤلؤة روحية (٣٩٥ صفحة).

١١ ـ كتاب يتناول حياة القديسين برصنوفيوس ويوحنا يتناول فيه القديس نيقوديم أسئلة روحية شائكة ومشاكل كنسية عالقة ويرد عليها ببساطة وعمق نادرين ويقع في (٨٥٥ صفحة).

٤ ـ في سير القديسين:

١ ـ قائمة بسير باقة من الأبرار والقديسين (مجلد واحد).
٢ ـ قديسون شهداء معاصرون (مجلد واحد).
٣ ـ سير قديسين على مدار السنة (٣ أجزاء ضخمة).
٤ ـ كتاب يمدح فيه شخصية القديس يوحنا الذهبي الفم.

٥ ـ في الليتورجيا:

١ ـ شروحات قانونية ليتورجية عن والدة الإله مريم العذراء، هي بمثابة تفسير لكل القوانين الكنسية التي وضعتها المجامع حول مريم والدة الإله.

٢ ـ كتاب الأفخولوجي.
٣ ـ كتاب مزامير خاص بصلوات الأديار.
٤ ـ بستان النِعم. هو بمثابة شروحات مستفيضة للأودية التسعة. ويقع في (٣٥٧ صفحة).
٥ ـ كتاب الأعياد السيدية، يتناولها كلها بشروحات رائعة متسلسلة وتقع في ١٥٠٠ صفحة موزعة على مجلدين.
٦ ـ كتاب (السلم الجديد) هو بمثابة شرح مستفيض لكل قطع الأنافثمي باللحن الثامن (يقع في ٣٩٠ صفحة).

٦ ـ في الكتابات التسبيحية Hymnography

١ ـ هي بمثابة ٥١ كتاباً ضخماً يتناول فيها بالتفسير والشرح صلوات السحر والغروب والبراكليسي.

٧ ـ رسائل Epistles

١ ـ رسائل روحية.
٢ ـ رسائل بمثابة إرشادات.
٣ ـ رسائل إلى أحباء خارج الجبل المقدس ويبلغ عددها قرابة ٧٩ رسالة طويلة تربو الواحدة منها على ٦٠ صفحة.

٨ ـ في الدفاع apologetics

١ ـ كتاب اعتراف الإيمان (وجهة نظر شخصية خاصة به).

٩ ـ في الأحلام On dreams

١٠ ـ متفرّقات

١ ـ كتاب تحت عنوان (ما هو إنجيل الراعي؟)
٢ ـ ثلاث مقالات ضخمة في ماهية التوبة.
٣ ـ مقالات رائعة في ماهية الرثاء الأرثوذكسي.
٤ ـ مقالة في خدمة صلاة السهرانة.
٥ ـ رسائل مختلفة في شرح محطات ليتورجية.
٦ ـ رسائل يشرح فيها معاني الأعياد من خلال قطعتي القنداق والبيت.

مَن كتب عن القديس نيقوديم؟ وماذا قال؟

١ ـ جراسيموس مكراييناتيس (متفرقات)
٢ ـ نيقوديم بالنرداس (متفرقات).
٣ ـ المطران نفروكوبيوس (متفرقات)
٤ ـ دراسات قام بها الراهب ثيوكليتس ذيونيسياتي تحت عنوان (القديس نيقوديم) منشورات، الكوكب، أثينا، ١٩٥٩، يتناول فيه الكاتب كل أعمال القديس نيقوديم جملة وتفصيلاً.
٥ ـ دراسة قام بها يعقوب مليروس تحت عنوان (القديس

نيقوديم، الراهب الآثوسي، والشخص التاريخي الفذ)، أثينا نيسان ١٩٦٣.

٦ ـ دراسة وضعها قسطنطين نيوليندس تحت عنوان (القديس نيقوديم، اللاهوتي الآثوسي)، أثينا ١٩٦٧

٧ ـ دراسة وضعها بيلاليس تحت عنوان (البار نيقوديم الآثوسي)، طُبعت مزدانة بالصور والأيقونات، أثينا، حزيران ١٩٦٩.

٨ ـ دراسة وضعها كوستي سرذليس (نيقوديم والمكتبة الآبائية)، طبع مرتين ١٩٦٩ ـ ١٩٧٤.

ملاحظة: تلاحظ، أخي القارئ وأختي القارئة، إن القائمة الطويلة بأعمال هذا القديس تعطي صورة عن أهميته ومكانته في العالم الأرثوذكسي، وتجعله وجهاً بارزاً وركناً وطيداً من أركان رجالات الله العظماء الذين عبروا هذا العالم تاركين لنا فيه مسحة قدوسة رسمتها يد ترابية غمرتها أنوار النعمة والمحبة الإلهية. حتى أن الراهب ثيوكليتس ذيونيسياتي قال فيه بحق: «إن من يقرأ أعمال هذا القديس لا بد أن يغيّر حياته، فإذا كان لصاً، سيقلع عن اللصوصية، وإذا كان تاجراً، سيحسن استعمال تجارته، وإذا كان أستاذاً، سيبدع في علمه ودوره، وإذا كان مؤمناً، سيحلّق في عوالم الروح. إن من يقرأ أعمال هذا القديس، لا بد أن يتعطّش إلى معرفة الخلاص الحاصل في يسوع المسيح والممنوح لنا مجاناً.

الأب منيف حمصي

كلمة الشيخ الناسك نيقوديم الآثوسي

هذا الكتاب النافع للنفس، يدعى: (الحرب الروحية غير المنظورة)، لأن العديد من أسفار الكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد، جاءت عناوينها مطابقة للموضوعات التي انشغل بها. فكتاب «الخلق»، (التكوين) مثلاً، سمي هكذا، لأنه يتكلم عن خلق العالم من العدم. و(الخروج) سمي هكذا، لأنه يتكلم عن خروج العبرانيين من مصر الفرعونية. كذلك البشائر الانجيلية الأربعة، سميت هكذا، لأنها تتكلم عن الفرح العظيم، وعن بشارة الخلاص التي صارت للعالم بميلاد يسوع: «لأنه ولد لكم اليوم..» (لوقا ٢: ١٠ - ١١). ولما كان هذا الكتاب يتحدث، لا عن فن المحاربات المنظورة، أو الأعداء الجسديين، فقط، بل عن الأعداء الذين لا نبصرهم، كما أنه يتحدث عن جهاد المسيحي منذ تقبّله لسر المعمودية، وحتى لحظة موته، فقد جاء تحت هذا العنوان، لأنه يتحدث عن محاربات روحية عديدة ومختلفة، كما ويتحدث عن حروب الشياطين الشريرة، الحاقدة على الإنسان، والتي تحاربه أبداً، ويقول الرسول بولس فيها: «لأن جهادنا ليس مع لحم ودم، بل مع....» (أف ٦: ١٢). ويشير الكتاب إلى أن المسيحيين هم جنود هذه الحرب الروحية، وأن ربانهم هو يسوع المسيح الذي تحيط به الملائكة والقديسون. ميدان الجهاد، هو عالم القلب، الإنسان الداخلي. زمان المعركة، يدوم العمر كله. ما هو سلاح المحارب الروحي؟ خوذته هي عدم الثقة بالنفس، وعدم الاعتماد عليها. فالاعتماد كله على الله، والإيمان به والثقة فيه. ما هي أدواته؟ إنها النمو في آلام يسوع المسيح. ما هي منطقته؟ إنها بتر الأهواء الشهوانية. ما هي نعله؟ هي التواضع وتذكّر الضعف، وذلك خشية الوقوع في الكبرياء. ما مهماز أرجل

المجاهد؟ إنها الصبر على التجارب واللامبالاة بإزاء الاهانات وكل الاضطهادات. ما هو سيفه؟ إنه الصلاة الطاهرة التي ترفع إلى الله أبداً. ما هي رمحه؟ إنها عدم الرضوخ للشر، أو الدخول في هدنة مع الشيطان، ورفض جميع عروضه وإيحاءاته. ما غذاؤه؟ إنه جسد السيد ودمه. في هذا الكتاب، يستطيع الجندي الروحي المدرّب على مواجهة حيل العدو، أن يتعلم كيف يبطلها ويقاومها فيبلغ إلى الخطة الجهادية وقانون الحرب الروحية. ومن يبتغي خلاص نفسه، سيتعلم من الكتاب كيف ينتصر وينال أرصدة الفضائل الإلهية، وإكليل المجد الذي لا يفنى، وذلك كي يتّحد بالله في هذه الحياة، وفي تلك. وفي هذا يقول الرسول: «إن كان أحد يجاهد، فلا يكلّل إن لم يجاهد قانونياً...» (٢ تي ٢ : ٥). سلّح ذاتك بما يقدمه الكتاب، وذلك كي تغلب أعداءك الداخليين، الذين هم أهواؤك المهلكة للنفس. «البسوا سلاح الله الكامل، لكي تقدروا أن تثبتوا...» (اف ٦ : ١١). تذكّر أنك في المعمودية قطعت عهداً أن ترفض الشيطان وكل أعماله.. والعهد هذا يعني أن ترفض الشهوة، والمجد الباطل، وحب المال، والعجب بالنفس. لذا جاهد بكل قوتك كي تدحره. ترى ما هي المكافأة بعد النصرة؟ إنها أمور كثيرة، استمع لما يقول الرب فيها: «من يغلب، فلهو أن يأكل من شجرة الحياة التي في وسط الفردوس» (رؤ ٢ : ٧). «من يغلب، لا يؤذيه الموت الثاني» (رؤ ٢ : ١٢). «من يغلب... يأكل من المن السرّي» (رؤ ٢ : ١٧). «من يغلب.. فله سلطان على الأمم وأعطيه كوكب الصبح» (رؤ ٢ : ٢٦ ـ ٢٨). «من يغلب يلبس ثياباً بيضاء ولن أمحو اسمه من سفر الحياة، وسأعترف باسمه أمام أبي وملائكته» (رؤ ٣ : ٥). «من يغلب سأجعله عموداً في هيكل الهي» (رؤ ٣ : ١٢). «من يغلب، يجلس معي في عرشي» (رؤ ٣ : ٢١). «من يغلب، يملك كل شيء، أكون له الهاً ويكون لي ابناً» (رؤ ٢١ : ٧). أرأيت عظمة المكافأة التي ستنالها إذا غلبت الشيطان؟ ليكن هذا نصب عينيك واهرب من جميع المعوّقات «لئلا يأخذ أحد اكليلك» (رؤ ٣ : ١١). الرياضيون في الميدان يمتنعون عن كل ما يحول دون تقدمهم، وذلك كي يتوّجوا بإكليل الغار رمز

الغلبة. فأين أنت منهم إذا كان إكليلك من النوع الذي لا يفنى؟ لذا لا تهدر حياتك بالكسل والتواني. «ألستم تعلمون أن الذين يركضون في الساحة، كلهم يتعبون، إلا أن واحداً فقط يفوز بالمكافأة؟» هكذا أنتم، جدّوا كي تنالوا...» (١ كور ٩: ٢٤ - ٢٥). وأنت إذا أُهّلت إلى اكليل الغلبة، فما عليك إلاّ أن تصلي إلى الرب كي يغفر خطايا من أعانك على الوصول إلى هذه النعم، عن طريق هذا الكتاب. لا تنسى أن تشكر سندك الأول وعلة انتصارك، وأعني ربنا يسوع المسيح. قل له كزربابل: «منك الغلبة... وحدك رب المجد، أنا رهن إشارتك. وهكذا تردّد مع داوود: «يا ربي لك العظمة والجلال...» (١ أخبار ٢٩: ١١).

الراهب

نيقوديم الآثوسي

كلمة المعرّب:

في حضارة الاستهلاك، يتسارع ايقاع الحياة اليومية، وتكثر المتطلّبات والاحتياجات والاهتمامات والمشاغل. وقد يكون سوادها غير ضروري للإنسان، فكثيراً ما تكون حدود الحاجة من صنع الإنسان وتخيّله. الإنسان يكد ويتعب بحجة تأمين اللقمة. إلا أن استحضار اللقمة، لا يحتاج إلى جهد على مستوى شق النفس. الإنسان باسم اللقمة واللباس والعائلة والمستقبل، يخترع مبرراً للعمل المفرط، وباسم اللقمة يحجم عن الالتصاق بالله. إن مشاغل الحياة وكثرة الاهتمامات تصبح مادة يبرر بها المخلوق عدم اتصاله بالخالق.

وإذا تأملنا بعين ناقدة بنّاءة في ما تقدمه وسائل الاعلان المختلفة المرئية والمسموعة والمقروءة، وفي ما تحاول أن توجس به لانسان اليوم، وفي ما تطلبه منه، أو تدعوه إليه، وكيف تستحثه وتوجهه وتربيه في كل لحظات حياته، لا بد ن يبلغ بنا الأمر حد إدراك الحقيقة المرعبة المرة: لقد تخصصت وسائل الاعلام في زيادة الاستهلاك. وسائل الاعلام باتت أداة تستعبد الإنسان. إنها تقتحمه بألوانها وإيحاءاتها وإخراجها. تذلّه وتستعبده. لا تريح له بال، إنما توغل في تنغيص عيشه وقض مضجعه. فوسائل الاعلام كما تبدو، بنزاهة، لا تعمل من أجل خدمة الإنسان وخلاصه، بل يهم منظموها إلى استعباد الإنسان وتشييئه. ماذا نرى في وسائل الاعلام؟

فيها نرى العطور الكثيرة الأنواع، والسيارات الباهظة الثمن، وأصناف الدخان. كل صنف يتبوأ عرش الصدارة، فيحار المرء في أي يختار، وأيها يمجّ، فجميعها مشهود لها بالقدرة على خلق السعادة،

المزيفة. وما يتربع منه على عرش الصدارة، يمجّه أطباء القلب في حضرة مرضاهم. فالطب بحقائقه ومعطياته، يأبى رومنسية الدخـان حتى ولو جاء من نكهة تبغ بلد العم سام. وللمستهلك سلعة أخرى تأتيه عبر وسائل الاعلان، باتت سلعـة، وهي ليست في الأساس هكـذا. إنها الجنس. يُقدّم الجنس عند كل فقرة ومنعطف أو لقطة أو نبأ أو فيلم. ومن يروّجه، دائب إلى اقتحام أبواب القلب لاستـلاب الإنسان عـبر سلسلة من الاثـارات الشهوانيـة المؤذية والهـدامة، يكـون بنتيجتها أن يسترخص المرء الجسد والقيم والأخلاق والأعراف، فيسعى بيسر، ودونما رادع، إلى ارتكاب الموبقات بعد أن تكـون ذاكرتـه وخيالـه قد عجّـا بـالخيالات المـريضة الهـدامة. في كـل نبأ تجاري، يطل عليـك الأمر المعـروض عـبر بـوابـة الجنس، دون أن يكـون ثمـة صلة بـين المـادة المعروضة، والقالب أو الاطار الجنسي. وباختصار فإن وسائل الاعلام لا تربّي، كما تبدو، مما يجعلنا نتساءل عن الرؤية والثقافة التي يتمتـع بها مروّجوها والعاملون في سبيلها. وكل هذا ليس إلا غيضاً من فيض، تأتي بعده إلى القناعة أن ما يحكم شؤون الدنيا والناس ليس هو الله.

الدعايات والاعلان التجاري، عموماً موجّهـة شطر الاستهـلاك والتهام المراهقين. ترى كم يستخف منظموها بنا؟ في نظرهم، شرائح المجتمع واحدة وهي: المراهقون. وفي هذا يخطئون ويضلون. فليس من السهل اجتذاب كل الناس، فلكل جذره وقدره وعقيدته وقناعته.

وعرفنا أيضاً، نحن أبناء هذا القرن، تصارعاً بين إيديولوجيات. لقد أسهم هذا القرن الذي نودّع، في ترسيخ مقولة أكيدة في النفوس تجذّرت مع بريق التكنولـوجيا والـوثبات العلميـة الجبارة، إنها العقل ومكانته ودوره وفعله وقدراته. فما طبع من كتب ومنشورات ومدوّنات، يكاد أن يوازي وزن كرتنا الأرضية إذا جاز التعبير. ولكن ما قيمة الفكر، إن ترسّخنا على الاعتقاد والسـيرة بأننـا استهلاكيـون؟ ما قيمـة الفكر والعقل إن كنا نفكر بخلاف ما نعيش، ونعيش بخلاف ما نفكر؟ أين

تتجلى قيمة الفكر، إن كان الجهل إلى تزايد، كما هي النزعة الاستهلاكية فينا؟

ويأتي هذا الكتاب طيراً يغرّد خارج سربه. لماذا؟ لأن مادته تختلف عما يتلقاه المرء في ساعات ودقائق حياته اليومية. فكل أيامنا تسهم في اندلاقنا إلى الخارج. نحن نسكب ونهدر (Externalized). حياة الدنيا تنتزع كياننا لترميه لقمة تافهة في فم العدم. والكتاب هذا، وتلك التي تسير في ركبه، انتهجت خطا معاكساً للحضارة الاستهلاكية، لأنها تحاول أن تسترجع ما قد اندلق. إن كلامنا هذا، يطرح سؤالاً هو في جوهره روحي ومركزي: ما هي الحياة الروحية؟ كيف تحدد؟ إنها عودة الذهن إلى القلب. هذا واحد من تحديداتها. الحياة الروحية هي اكتساب الروح القدس كما قال القديس سيرافيم ساروف لتلميذه موتوفيلوف. وهذا يكون تحديداً آخر. الحياة الروحية، هي حياة في الروح، أو حياة الروح فينا، أو إذا شئت حياتنا في قلب الله. إن التحديد الأخير هو مدلول جديد لمعنى الحياة الروحية، إلا أنه مبهم، إلى درجة أن الإنسان المعاصر لا يفهم منه شيئاً، رغم استعمال اللفظة بكثرة في الحياة اليومية. ويزعم البعض أن الحياة الروحية هي التواجد في إطار الدير. إنها الرهبنة. هكذا يخال البعض، وهكذا يحبون أن يفكروا. وفي هذا تجنّ على الحياة الروحية، وانتقاص لمدّها ودورها. كما أن في ذلك دعوة إلى تغريب جماعة المتزوجين عن القداسة. وبالطبع فقبول هذه المقولة، هو في ذاته احتقار للكلام الإلهي، فيسوع نفسه بارك عرس قانا الجليل. وكرونستادت نفسه كان قديساً متزوجاً. وبولس الرسول رأى الكنيسة الحقيقية مشعشعة وراسخة في بيوت أناس متزوجين، رغم أنها كثيراً ما تحتجب في نطاق العازبين. وليس في هذا دعوة إلى استعلاء المتزوجين على العازبين، فكم من زنادقة وزناة كانوا من رهط المتزوجين، وكم من اطهار خرجوا من أحشاء العزوبية المكرّسة (١ كور ١٦: ١٩) (فيليبي ٤: ٢٢) (كولوسي ٤: ١٥) (فليمون ١: ١ -٣).

ورغم تباين التحديدات وكثرتها، يبقى أن الكتاب مادة قائمة في ذاتها. إنه كتاب خرج من أحشاء الروحانية الغربية على يد كاهن كاثوليكي يدعى لورنزوسكوبولي. عاش هذا الرجل في إيطاليا في القرن السادس عشر. وضع كتابه هذا، لا ليكون مجرد صورة عن سيرته، وهي جميلة وبديعة كما تبدو من خلال الكتاب، إنما ليجسّد لنا من خلال مادة الكتاب، حقيقة روحية بالغة الأهمية: ما هي؟ إنها زوال البون والقطيعة والجفاء بين الروحانيتين الشرقية والغربية. فبينما كنا ولا نزال نعاني من ثمار الانشقاق الكبير (١٠٥٤ م) أطلّ علينا هذا الكتاب وسواه، ليؤكد أن الحياة الروحية قطاع قائم في ذاته، له هويته وميزته في كل زمان ومكان. له فرادته التي تتخطى حدود الهمم المسكونية والحزلقات اللاهوتية، رغم إقرارنا العميق بدور اللاهوت في تنمية حياة الروح، ورسم أطرها ومعالمها وممارساتها. القطاع الروحي لم ينقسم، رغم انطباعه بالنهج اللاهوتي المحلي حيث وجد. فالقديس اغناطيوس بريانشانينوف لا يدعو إلى نهج القديس فرانسيس الاسيزي مثلاً، رغم أن القديس المطران ثيوفان الحبيس راقه الكثير من وجوه الروحانية الغربية. لقد تلمّس الكثيرون تبايناً عقائدياً تجلى هنا وثمة في الروحانية. المسيحيون اليوم أمام مفترق، فإما أن يجدّوا في البحث عما مزّق شملهم، ووحدة إيمانهم، أو أنهم سيندرجون على تعددياتهم ومشاربهم وطوائفيتهم في شريحة استهلاكية جديدة. وللآباء القديسين دور كبير في هذا المضمار، فهم عامل الوحدة الاساسي، ومنطلقها، كونهم قابعين في قلب الله. مسيحيو اليوم في وضع حرج، فأفكارهم تباين حياتهم وسيرتهم. اللاهوتيون أيضا معرّضون لهذه التجربة، تجربة الكلام بخلاف الحياة، والحياة بخلاف الكلام. من هنا يأتي الكتاب بوداعة فحواه ولطفه ليهز كياننا ونحن في معمعة القال والقيل في هذه الحضارة المرهقة والمتعبة. الكتاب يشدد على أمر لا نتلمسه في حياة أهل الدنيا. ما هو؟ إنه الاتصال بالخالق، فحياة المخلوق لا تقوم بدون الله. إلا أن وصول الكتاب كما هو في حلته الحاضرة، كان نتيجة تلوّنه بثلاثة كتّاب تتابعوا دون ترابط زمني. فواحد وضعه، وآخر عدّل فيه، وثالث وضع لمسته

عليه، فجاء الكتاب معدّلاً. لقد تطور الكتاب وتعدّل رغم التقارب الكبير بين الذين اسهموا فيه. الكتاب يشير إلى منهج واحد يتفق عليه الثلاثة. ما هو؟ إنه عودة الذهن إلى القلب. من هم هؤلاء الكتاب؟ إنهم: ١ - لورينزو سكوبولي. ٢ - نيقوديم الآثوسي. ٣ - ثيوفان الحبيس. إن أدق التعديلات في الكتاب تناولت باب الصلاة كما يتفق أغلب الدارسين له. لقد اشتهر وطبّقت شهرته الآفاق. إن كلاماً كثيراً يقال في كواليس البحاثة والدارسين للكتاب (الحرب اللامنظورة). أليس هذا هو عنوان الكتاب؟ ترى لماذا سماه صاحبه هكذا؟ من سيقبله إذا كان كلاماً عنَ حرب لا ترى بالعين، والدنيا تقوم وتقعد، نتيجة لحروب مدمرة نعاينها ونتلمس ثمارها في كل مكان من العالم؟ أن يكون الكتاب عن حرب غير منظورة، فهذا يرفعه عن الشبهات ليميز حرب الكتاب عن حروب الدنيا.

طبع الكتاب لأول مرة سنة ١٥٨٩. ثم قام الأب سكوبولي نفسه بعد ذلك، بتوسيع مادته واطاره، فجاء أكبر بكثير من النصّ الأصلي. وفي الواقع انه تحفة نادرة تشدّ القارئ وتجتذبه.

قلت إن الكتاب تعدّل بمروره على كتّاب ثلاثة، وفي هذا اشارة إلى تمايز، إن لم نقل فروقات بين مسيحيي العالم في كل مكان. كذلك في هذه الظاهرة اشارة إلى ما ذكر آنفاً من أن الروحانية واحدة، لكن يمكن أن تتأثر وتتطبّع، على العقيدة التي يُقرّ بها في اطار الجماعة. فعند سكوبولي تلميح إلى المطهر (purgatory)، الأمر المرفوض عند الشرقيين. لقد وجد القديس نيقوديم الأثوسي أن الروحانية الغربية تنزع إلى إعمال الخيال في التأمل. في التأمل بالمفهوم الغربي، كثير من الخيال، مما حدا به إلى التعديل المذكور. تعديلات أخرى طرأت على الكتاب في باب الصلاة، وقد وجدها أصحابها ضرورية كي يأتي الكتاب منسجماً مع الذهنية الروحية الأرثوذكسية. لقد وصلت نسخة من الكتاب في القرن الثامن عشر إلى نيقوديم الآثوسي، فقام بنقله بعد تعديل أجزاء فيه، إلى اليونانية. وتعديله لا يعني احتقاره، فنقله إلى اليونانية علامة واضحة على

وزن الكتاب وقيمته. ما مصدر التعديلات الطارئة على الكتاب؟ لم يكن الأمر نابعاً من مزاجية نيقوديم، بل كان يقوم على قاعدة اكليزيولوجية اورثوذكسية. نيقوديم هو نموذج اللاهوتي الشرقي. انه مرآة الكنيسة. قام بتعديل الكتاب، لأن مضمون بعض أجزائه لا ينسجم مع المبدأ الأرثوذكسي العام. وسنعود إلى هذه المسألة لاحقاً. إلا أنه يمكن القول إن تعديلات نيقوديم لم تكن نابعة من موقف ذاتي، بل جاءت نتيجة انخراطه العميق في تيار التقليد الحي والروحانية المشرقية، فكان الناطق الرسمي باسم رجالات عظام سبقوه. وبالطبع فإن ظاهرة التعديل الحاصلة على الكتاب، تنطوي على اشارة إلى التباين العقائدي الواضح بين الشرق والغرب، رغم وجه الشبه والوحدة في مواضع عدة، الأمر الذي لا ينكره أحد من أتباع الطرفين. ونحن شئنا أم أبينا أمام حقيقة قائمة، هي التباين العقدي بين الشرق والغرب، في النهج حينا، وفي الخلاصات العقائدية حيناً آخر. فكم وكم من جدل دار حول مواضيع عقائدية اختلف عليها الشرقيون والغربيون على السواء. وليس بظالم القول إن مسألة عقيدة الحبل بلا دنس، هي وجه من وجوه الاختلاف العقدي بين الفئتين. كثيراً ما باعدت الكتابات اللاهوتية المختلفة، بين الوحدة الكنسية من جهة، وبين طالبيها وعشاقها والمتنطّسين لها، من جهة أخرى. في الكتاب فصل يتناول مسألة المناولة (القسم الثاني منه). يتضح للقارئ مقدار الأهمية التي يعلقها الكاتب على سر الشكر علامة الوحدة بين الخالق والمخلوق في العهد الجديد. في المناولة تجتذب الله اليك، ليأتي ويحوّل كيانك إلى كيانه.

ونحن اليوم أمام تساؤلات عديدة تفرضها علينا مسألة المناولة: كثيرون يرون في المناولة الجسر إلى الوحدة بين الطوائف. أو هي حسب رأي البعض الآخر، تعبير عن وحدة. فئة ترى في المناولة معراجاً إلى جمع الشمل ورأب الصدع. فئة أخرى ترى في المناولة قيام الوحدة المسيحية وإحقاقها. إلا أن جملة من أسئلة تفرض نفسها في هذا الباب، ومصداقيتها مشرقة: ما قيمة الفكر والتراث في الدرب إلى الوحدة؟ وهل

من قيمة للتراث ابّان السعي إلى الوحدة؟ هل من وحدة بين أناس لا يمتلكون الفكر الواحد؟ ما قيمة الفكر التراثي بازاء التعددية المسيحية القائمة؟ كيف نفهم الوحدة على القاعدة التعددية؟ كيف ينظر إلى الوحدة طوائفياً؟ ما معايير الوحدة ومستلزماتها؟ من يرئس الدعوة إليها؟ هل الوحدة حقيقة قائمة، أم مجرد حلم منشود؟ ماذا قدّمت الأنشطة المسكونية من خدمة للوحدة المسيحية؟ أليست النشاطات واللقاءات والمؤتمرات المسكونية علامة على غياب الوحدة؟ أليست الأنشطة المسكونية علامة على الرغبة بها والحنين إليها؟ ما قيمة الكلام عن وحدة، والكتاب خضع للتعديل؟ إن هذه الأسئلة وسواها واجبة قبل الإجابة على كافة التساؤلات التي يطرحها هذا الكتاب (الحرب اللامنظورة). ويبقى رغم هذا وذاك من التنظير أن الوحدة هاجس الكثيرين تشغل كيانهم وقد شغلتهم ودفعت بهم إلى تكريس القلب لله، وهذا ليس بالأمر القليل.

المسيحيون طوائف، جماعات، فئات. منذ ان كانوا انطلقوا من القاعدة المحلية. الكنيسة المحلية معيار الكنيسة الجامعة. الجامعية (Catholicity)، تقوم في المحلية. لا تُرى الأولى، إلا بالثانية. لاجامعية (catholicity)، خارج المحلية (locality). قد يكون في التعددية المسيحية غنى حضاري وثقافي وتراثي، وهذا ممكن، وليس من شك في أن التعددية تسهم في قسط كبير من حركة الحضارة صعداً. إلا أن التعددية الطوائفية يستحيل أن تكون ذات فكر واحد لاهوتي وعقائدي، وإلا وجب أن تبطل الطوائفية وتفقد التعددية ضروريتها. الأمر الذي يعني أن الدعوة إلى الحياة الواحدة، غير متفق عليها، نظراً لغياب الفكر الواحد. عندها من البدهي زوال الطوائف، باندراج اتباعها في بودقة واحدة. وهذا يستتبع إلى جانب وجود جماعة واحدة ذات فكر واحد، اسماً واحداً لكل الجماعات المسيحية، هنا وثمة من العالم. انه يستوجب أسقفية واحدة تنبع من علاقة المسيح بالكنيسة (٤: ٣ - ٧)، (أفسس ٥: ٢٤). ليس هذا فحسب، بل أيضاً يستدعي مؤسسات ذات مقاصد واحدة، وقاموس تحديدي واحد، وكل ذلك كي يجوز

القول إن وحدة الفكر، هي نبع حياة واحدة. وما يزال هذا في نطاق الحلم المنشود فشتان بين الحلم والواقع.

وكلامي هذا ينسحب أثره على الايديولوجيات أيضاً. فمن المستحيل أن تتوحّد ايديولوجيات البشر في هذا العالم. الوحدة هذه ممكنة في الأبدية فقط، عندما تزول تلك التي تعوزها مقومات البقاء. من يقرر هذا؟ ما المقياس؟

القرن العشرون رمى بثقل العقل في حياتنا ووجودياتنا. العقل، المنطق، الفكر، كلها مرتكزات تصرخ وتئن. العقل نفسه يصرخ، ويصرّح أن المسيحيين ليسوا واحداً في العالم. ليس في الكلام غطرسة أو ادعاء. ليست المقولة هذه شعاراً أطلقه، ولا عقيدة أدافع عنها. الإنسان في كل مكان يحمل في أعماقه عطشاً إلى الحق. في العالم أناس كثيرون جذبوك أكثر من أبناء الملة. كم تجد بين أناس لا ينتمون إلى جماعتك، أفراداً يناطحون السماء، وتعتز أنت بهم. بينما ترى في العديد من أبناء ملّتك من يناطحون الأرض وكأنهم يقيمون الزير من البير. بين أبناء مجموعتك أناس لمعوا، وجاز فيهم الدهش والإعجاب. الحقيقة كلها غير مجتزأة وتدعوك ألاّ تطلق الأحكام جزافاً وكيفما اتفق. لا تحكم جزافاً. لا تصنّف أحداً. لا يمكن لك أن تقوّم أفكار الناس بيسر وسهولة. لا تتجاهل الأمور الحسان عند سواك، ولا تعتبر نفسك وجماعتك خيراً من الغرباء. لكن لا تعتبر ما عند الآخرين خيراً مما عندك. تمهّل وتريّث ملياً ومطولاً أمام المسائل الدقيقة والصعبة، فخير المواقف أكثرها بطأً.

الشرقيون يكثرون من الكلام عن لاهوت الكنيسة المحلية، دون أن يكون اللاهوت الرعائي عندهم يأخذ المحلية في الحسبان، ودون أن تكون المحلية منطلق العمل الرعوي. نحن أصحاب القول، لكننا كثيراً ما نفقده عند التطبيق. الغربيون بدورهم ينطلقون من قاعدة المسكونية (catholicity)، وكثيراً ما يخطئون الهدف، عندما ينسون المنطلق المحلي. الغربيون يهمّشون اللاهوت المحلي (local)، رغم وجود أبرشيات ورعايا

عندهم كما عندنا. الفرادة المحلية لا تلغي الجامعية، والجامعية في ذاتها، تقوم في المحلية. إلا أن التعددية المذهبية تتلف الهاجس إلى الوحدة، ولا تدعو إليها. انسان اليوم لا يأبه لثمار اللاهوتيين، وهو في هذا على ضلال. فالمعيار يقوم كنسياً على أناس قديسين ولاهوتيين. اللاهوت علم إلهي يقوم على التحاب والخدمة، وذلك بكشف محبة الخالق للمخلوق. إلا أن اللاهوت لا يقوم على أساس المساومة في الشأن العقدي. التحاب ينافي المساومة. ليس التحاب انصهاراً. انه ينافيه منافاة النور للظلام، والحق للكذب، والليل للنهار.

ويرى سواد الناس أن الرافضين لهواجس الوحدة هم جماعة بعيدة عنها، أسيرة ومستعبدة لتعصّب بغيض. عند العامة، التعصب هو نقيض المحبة، ومناف لها. هذا صحيح. فالتعصب هو رفض لمحبة رخيصة مبنية على الرمال، وأنا أشاء هنا، استبدال التعصب بالتمسك. التعصّب ممقوت، أما التمسك فمطلب وحاجة. التمسك واجب، أما التعصب فجيفة نتنة. لكن يتعذر على المرء كائناً من كان، بلوغ التمسك بدون اطّلاع وتبحّر. فالتمسك يقوم على رؤية ومعرفة وبصيرة نافذة. المعرفة معيار واجب لتذوّق التراث. الغربة قائمة لا محالة، بين الجماعة وتراثها، بدون معرفة. تغييب المعرفة احتقار فاضح لحلاوة التراث وجدواه وفائدته. بدون المعرفة يتعذر على المرء نقد التراث وتبيانه. ان مثل هذه المعرفة تستدعي اطّلاعاً يرمي إلى ادراك التراث، لمعرفته وتمثّله، ومن ثم، لاحقاً وسابقاً، لعيشه. ليس التراث، أي تراث، دعوة إلى ايديولوجية صرفة طوباوية هوائية لا صلة لها بالأرض وبالفكر وبالحياة. الاطّلاع يعني هضم التراث، لتمثّله، لا لمجرد التبجّج به، والزهو بأمجاده ومفاخره. التراث لا يصير مفخرة إلا بعد تعب نبذله ليصير أداة العيش الحي (well-being) في العالم.

وبلوغ التمسّك، شرط يسبقه تعب وسهر وقراءة وفرك عيون، ومقارنة نصوص، وصلاة حارة، وتضحيات، وحرمانات، ورغبة في

وحدة حياة، بين ما تفكر به، وما تعيشه. سواد الناس غارقون في بحر التعصب.

التعصب ادّعاء، إنه احساس سرابي بالمعرفة، لكنه غريب عنها. التعصب احتقار مسبق لفكر الغير ومبادئ الناس، أينما وجدوا. التعصب والجهل صنوان. الواحد منهما رديف للآخر. المتعصبون ينهشون فكر الآخرين من أجل احتقاره. يتطاولون عليه للطعن به، لا للإفادة منه. المعرفة الحقيقية شاملة وتستمد مادتها وفحواها من الجميع. الجميع على صورة الله مخلوقون. المتعصب يزدري فكر الآخرين عندما ينظر إليه عن بعد، لا عن كثب، وشيء من المعرفة يميت ولا يكفي. انه إنسان يمجّ القراءة. ان قرأ شيئاً، كان سعيه فيه إلى ما يريده هو، دونما نزاهة في الحكم على ما هو أمامه. المتعصب أمّي في ثوب عالم، وجاهل في هيئة باحث كبير. فلا يحتقر لمجرد ان الآخرين مختلفون عنه. لا يحتقر قيمهم لمجرد انه لا يعتمدها نبراساً وقاعدة لحياته وشرعة لنفسه.

في الحياة لا بد من الانتماء. الناس كثيرون، وانتماءاتهم كأعدادهم. الإنسان بدون انتماء يضيع. بدون انتماء يستحيل على المرء أن يحيا حياة وفيرة وغنية بالقيم والمناقب. الانتماء أساس متين لعيش الوجود واختباره. ليس في الانتماء غضاضة. على كل منا أن ينتمي إلى أمر يرى فيه قيم الحياة، ومعراجاً إلى ملء الأنسنة. لا بد من نكهة في حياتنا، وإلا بطلت قيمتها وخبا معناها. الانتماء يعين على تذوق الحياة، والحياة لا تقوم بدونه. الانتماء يعين على اكتشاف الهوية ومعرفتها. والهوية بدورها ترسّخ في المرء وجوب الانتماء. وبلوغ الانتماء يستوجب جهداً ويفترض تعباً وسهراً على نحو ما تقوله طروبارية الكنيسة: «... وبالأصوام والإسهار والصلوات، تقبلت المواهب السماوية...».

وإنسان هذا العصر يخاف من البوح بانتمائه وهويته. إنه يخشى اللون العنفي الذي اتسم به هذا القرن المرعب العظيم. إنه يتكتم عن اعلان هويته خجلاً، أو حفاظاً على صداقة تشده إلى أناس من غير نهجه وفكره. والخوف أو الخجل يؤولان حتماً إلى الكتمان أو التكتم حيناً، وإلى

التخلي واللامبالاة حيناً آخر. التعددية المشرقية بما هي عليه، تسهم في ضمور الانتماء والهوية دون أن تكون هي في ذاتها السبب. كثيرون من المشرقيين يدعون إلى الوحدة دون أن يعرفوا ما هو لهم وما هو لسواهم. يطالبون بالوحدة، لكنهم يحيون دفاعاً عن انتماءاتهم. التمسك بالانتماء والهوية، بات شبه مستحيل، أو هو على صعيد العامة كلام عن غير موجود. الناس يؤثرون عموماً الانفتاح الرخيص على التمسك المكلف. الأول دربهم إلى مصلحة، أما الثاني، فمعراجهم إلى اكتساب رؤية. انفتاح الجهال، باب على النفعية، أما الانفتاح الحق، فهو دعوة إلى خدمة الثابت. انفتاح الجهال باب على النفعية والصيرورة. والعيش في الصيرورة لا يتطلب ولا يُحرج. ويبقى أن الدعوة هي إلى الثوابت لا إلى المتغيّرات. سواد الناس في ممارستهم اليومية، مقتنعون وكأن نهضة الشعوب لم تكن يوماً حكراً على شعب أو ملكاً لفئة دون أخرى. هذا ما تقوله أفكار الناس في حضارة معلمنة. لا ثقة للناس إلاّ في من يأتيهم بالتعزية. هم لا يفهمون في العمق لماذا يكون المسيحي خيراً من البوذي، والبوذي خيراً من اليهودي وسواه. . . .، إذا كان الأول غير سلامي (un peaceful). صاحب البصيرة لا يرقب السلام من العالم الغربي لمجرد أن دوله ورجالاته مسيحيون. المسيحية الحق لا تتموضع (non-localized). والكتاب هذا جاءنا من الغرب، وهو غريب عن كل تهمة تمسّه، رغم الملاحظات التي لامسته بشكل تعديل، فهو كتاب صادق في دعواه. صاحبه جمع بين الفكر والحياة، الأمر الذي لا ينتبه له إنسان القرن الحاضر. الجمع بين الثيوريا والبراكسيس، بين العمل والنظرية، واجب. إن التعديلات التي طرأت عليه ليست من قبيل الصدفة، وهي جديرة بالدرس والتمحيص، كونها ليست ظاهرة عابرة. إن انجذاباً ما، نتلمسه بين لورنزو ونيقوديم وثيوفان، وفي هذا دلالة إن الحياة في الروح لا تتموضع ولا تقاس بانتماء. لورينزو غربي، وصديقاه شرقيان، ومع هذا، فالوصال بينهما قام وثبت. ان هذا قد يعني للمسكونيين إن الوصال بين الفرقاء والأخوة قد لا يقوم على حزلقات فكرية ودفاعات عقائدية وحسب، إنما هناك دور كبير وكبير جداً

لرجالات الروح عند الطرفين. لرجالات الروح رأى في الوحدة ليس فقط قبل البدء بتحقيقها، بل وقبل التفكير بها أيضاً.

وقد يستغرب المرء في أيامنا كيف أن من يترجم كتاباً يستبيح مادته ويعدّلها ويطوّرها. هذا لا يعني من الزاوية المبدائية أن لنيقوديم حقاً بما فعل، والشيء نفسه يقال في ثيوفان. يكفي أن الكتاب كان ملك صاحبه. إلا أن اعتراف نيقوديم بأن الكتاب في حلّته الأصلية لم يكن له، هو في ذاته دليل على اقرار بملكية لورينزو له، ومع هذا فالمسألة ما تزال مطروحة وقائمة. لكن لا ننسى أن العمل الفكري لم يكن في القرون السالفة قد عرف خصوصية الفكر وحقوق الطبع أو الاستنساخ أو التعديل وما إلى ذلك، فهذه أمور باتت جزءاً من حياتنا نحن، ومع هذا فتعديات أهل زماننا تفوق بكثير ما حصل مع نيقوديم في (الحرب اللامنظورة).

إن قراءة دقيقة للكتاب وما آلت إليه بنيته الأصلية، سواء قبل بها البعض أم لا، لهي الشاهد على أنه رغم القطيعة والجفاف بين الغرب والشرق (١٠٥٤)، فإن وحدة ما كانت قائمة بين المسيحيين. أو قل إذا شئت، وصالاً واتصالاً. فالبون العقائدي الواسع والجدالات المدونة (controversy) لم تكن تحمل هواجس غنية من أجل وحدة كيانية شاملة، كالتي نراها على الصعيد الروحي. فتاريخ الكتاب هذا يعلن بوضوح أن باب الوصال بين الأخوة كان مشرّعاً رغم فداحة الانشقاق ومآسيه. لقد تحوّل الكتاب إلى دم يغذى الناطقين باليونانية، بفعل مساهمة نيقوديم. وبالروسية، بفعل مساهمة ثيوفان. ولا بد أن التعديلات المدخلة على الكتاب أكسبته حلة قشيبة جعلته يروج في أوساط أوسع من تلك التي خرج منها. لقد تناولت أضخم التعديلات الفصول المتصلة بالصلاة وبلغت حد انتقاد سكوبولي. ولم يكن انتقاده على قاعدة شخصية، بل جاء على أساس اختلاف التقاليد. الكتاب قُبل بعد أن اكتسى لوناً مشرقياً، ولا غضاضة في ذلك، فالعالم يقوم على ألوان وتعدديات. الإنسان يحيا ضمن لون تربى عليه. في هذا

ضعف وقوة بآن. هذا واقع لا مفر منه. في الكتاب يستطيع المرء أن يرى تأثير الروح على الغرب والشرق معاً. الجسور الروحية وحدها كفيلة بتخفيف غلواء الجهل المتبادل، والغربة القائمة، والانشقاق المستشري، وكل هذا يأتي ليؤكّد بعد تاريخ طويل من الهدى القسرى (proselytism) ان الوحدة غير ممكنة قبل الرسوخ في محبة الرب. والوصال المسكوني، مهما كان عطاؤه وثمرته، يبقى في ذاته عديم النفع كونه معركة من أجل أفكار (battle over abstractions)، إلا إذا طعّم بالمحبة للرب وللأخوة.

في الكتاب لاهوت نسكي واضح. الكتاب يرسم نهجاً، ويعلن أن ممارسة النسك ليست أمراً يؤتى به من خارج، من ديانات زيفس والنيرڤانا وسواها، ولا من منابع الفكر الفلسفي اليوناني الافلاطوني. انه قائم على الكتاب المقدس، ومنه ينطلق. إلا أن الصعوبة هنا، ان مادة النسك يبررها الكتاب، لكن عباراته تبدو غريبة عنه، أو غير موجودة. بولس الرسول يتكلم عن النسك بعبارات حرب. النسك عنده جهاد في معركة، والمعركة ليست ضد لحم ودم (أفسس ٦: ١٢). الجهاد عند بولس ينتهي بإكليل، فالمجاهد يُمتدح ويتوّج (٢ تي ٢: ٥). المجاهد جندي. لقد تكلم بولس عن سلاح في الجهاد، عن درع وخوذة وسيف (أفسس). إلا أن يسوع يشجب الدعوة إلى حمل السلاح عندما يقول «ردّ سيفك إلى غمده، فمن يأخذ بالسيف، بالسيف يؤخذ» (متى ٢٦: ٥٢ ـ ٥٤). كلام بولس عن السلاح، ليس هو كلاماً عن معدات قتالية، بل أدوات، ووسائل. السلاح عند بولس هو أدوات تخدم نهجاً. ما هو النهج؟ انه الدنو من جملة الفضائل المسيحية وعيشها والارتقاء بفعلها، نحو العلاء. فالجهاد لا بد أن يكون قانونياً، أي قائماً على مبدأ وأصول (٢ تي ٢: ٥). لماذا يكون الجهاد قانونياً؟ لأن الجهاد غير القانوني، لا يؤتي ثماره، إذ لا ثمار له. فمن يتعب بدون مبدأ، يضيع تعبه سدى. كلام بولس يقوم على إشارة إلى نهج. في الجهاد لا بد أن يلبس المجاهد سلاح الله الكامل، لكي يثبت في قتاله (١ ف ٦: ١١).

في الجهاد لا بد من سلاح، ولا بد أن يكون السلاح كاملاً، أي لا بد أن تتوفر فيه أعلى درجات الجهوزية القتالية، والقدرة القتالية. وهذا لا يتوفر في أي سلاح مهما كان. وهكذا فالإشارة عند بولس واضحة: «سلاح الله الكامل»، حيث أن سلاح الله قائم في الله، فالكامل لا يقوم إلاّ في الكامل. في مقدمة الكتاب للقديس نيقوديم الأثوسي يعالج مسائل تتعلق بالجهاد، كالمعركة، ميدانها، أسلحتها، ويصنّف الأسلحة داعياً إياها بأسمائها، فالخوذة هي الثقة بالله. وساحة الوغى، القلب، وما إلا ذلك. لماذا لا تكون حربنا بأسلحة مادية؟ لأنها ليست ضد عدو حسي، إنما ضد ابليس (أفسس ٦: ١٠ـ١٢)، ضد اعداء ليسوا من لحم ودم (أفسس ٦٠ ١٢). ويقول بولس بأن الثبات في هذه الحرب يستدعي اتمام كل ما علينا (أفسس ٦: ١٣). ما الذي يجب علينا اتمامه؟ إنه الحرب الروحيّة بدقتها وأصولها ومبادئها. لأن من لم يجاهد قانونياً، لا يتوّج.

في الكتاب هذا نجد وكأن العالم هو إطار الشرور ومجسّدها. التجربة تحل بالإنسان في هذا العالم. كيف لا والعالم هذا لم يعرف المسيح؟ (يوحنا ١: ١٠) يسوع ليس من العالم (٨: ٢٣). مملكته ليست من العالم (يوحنا ١٨: ٣٦). يسوع في يوحنا، انتصر على العالم (١٦: ٣٣). وبعد الانتصار على العالم سيتركه ويمضي إلى الآب (يوحنا ١٦: ٢٨).

يبدو العالم من خلال الكتاب، حقيقة مرعبة، سلبية، لا تخدم الخلاص، بل تعاكسه. وكل هذا لأن العالم مات بخطيئة الإنسان. فجاء المسيح ورفع خطيئة العالم (يوحنا ١: ٢٩). جاء كي يحيا العالم (يوحنا ٦: ٥١). ماذا يعني هذا؟ هذا يعني إن العالم يعاني من الخطيئة، وقد مات بسببها. وهنا السؤال: ما هو العالم الذي مات؟ هل هو الجبال والوديان... أم هو الناس؟ العالم في الكتاب هو كينونة كثيرة المعاني: انه العالم والناس... باختصار هو الوجود كله والذي بات مريضاً بعد خطيئة الإنسان. في الكتاب المقدس يبدو العالم كياناً حسياً (يوحنا ١٥: ١٦)، الرسل يعيشون فيه (يوحنا ١٧: ١١). ويسوع يطلب من الآب

لا أن يخرج تلاميذه من العالم، بل أن يحفظهم من الشرير (يوحنا ١٧ : ١٥). في العالم شهوات (١ يو ٢ : ١٦). وهكذا لا بد للعالم أن يُصلب، كما ولا بد للمؤمن بالمسيح أن يُصلب (غلاطية ٦ : ١٤).

الكتاب يرسم منهجاً يومياً للمسيحي المتعطّش إلى الرب. إنه يدرّبه ويكشف له الفخاخ التي يرسمها ابليس، في هذا العالم، ضد أحباء الرب. ففي العالم الحاضر يقوم توتر عميق، من شأنه، إذا تقاعس المرء أن يؤدي به إلى التهلكة. والمنهج المرسوم، واجب وضروري، لأن زؤان العالم ما يزال مختلطاً مع حنطته (متى ١٣ : ٣٨).

يعالج الكتاب في العمق، مسألة الخطيئة. مادته وفحواه، هي من أجل غلبتها والنصرة عليها. الخطيئة أمر مركزي في الفكر المسيحي. من يأباها ويتجاهلها، يأبى دينه وربه، يأبى موت الرب وقيامته. الخطيئة علة شيخوخة الوجود وضعفه وتحوّله وموته. إنها فشل الإنسان في عيش مشيئة الله. الخطيئة غباوة وجهل (moria). إنها حالة تغييب الضمير في حياة الإنسان. إنها قوة تعمل ضدنا، تصدّع كياننا، وتفتك بنا داخلياً، التصدّع والتفكّك في سماع صوت الله، الأمر الذي يشكّل جوهر العبودية للخطيئة (رو ٧: ١٥ ـ ٢٠). ويتناول بولس الرسول مسألة الموت، أو موت الخطيئة في رسالته إلى أهل رومية (٦: ٢ ـ ٨: ١٠).

والخطيئة لا تموت، إلاّ بموت الناموس الآخر فينا، الغريب عن طبيعتنا الحقيقية، فهو يضلّلنا ويبعدنا عن الله.

قلت إن الكتاب هذا طير يغرّد خارج سربه، وذلك لأن العالم الحاضر قد سبق ورسم وجهته. أبناؤه جادّون في إثره. سوادهم يزحف إلى الموت والعدم. وحضارتنا المتفجّرة، المتعملقة، المنتشية بالمنجزات العلمية الجبارة، عميت عن ادراك حدودها. إنها حضارة متوهمة، يرسم رجالاتها الافذاذ نهج سياستها وتوجّهها. حضارتنا تعمل على خرابنا، لأننا نضع بأيدينا أساس هلاكنا. عالمنا المعاصر يحب اللذائذ، ونحن في هذا القرن نؤكد أننا عبيد اللذة، نعبدها ونستحلبها في كل ميدان. فجرّنا الجنس، فبتنا من ضحاياه. روّجنا المخدرات، فشرعنا نُقتل لدى

تعاطيها. روّجنا فكر الوجاهة، فبات الكثيرون ضحاياها، واكتسبت طبيعتهم بنية زجاجية هشة تنهار عند كل رجة أو اهتزاز. بنياننا الأنساني، مريض فوق حدود الوصف والتخيل. نحن غارقون في استهلاك كل ما يقدم لنا، فما عدنا نعرف الحاجة من الشهوة، والعبودية من الطاعة، والغث من الثمين. الجميع هاموا على وجوههم وضلّوا. كاد سواد المصلحين والمربّين أن يفقدوا رشدهم، وييأسوا. إلاّ أن دوّامة الفساد لن تدور أبداً، وحركة الضلال، لا بد أن تتوقّف. لا بد للمرء أن يبلغ نهاية النفق، فيقف على اسوداد الخطيئة والمآثم. لن يدوم الاجترار ولن تبقى الشرور تعيث في النفوس شراً وفساداً. العودة آتية لا محالة؛ ورجاؤنا بالله وبحكمة رعايته. رجاؤنا بالطيبين الطامحين إلى غرس الورود في صحراء الحياة. أملنا في هذا الكتاب وسواه من التي تسير في ركبه.

وأخيراً، لن أتكلم أكثر من ذلك، بل سأدعوالقارئ إلى الوقوف بنفسه على فحوى الكتاب يقرأه، ليخرج بقناعات، فالكتاب أستاذ نفسه وصورة فحواه. ما يعنيني أن الكتاب سيعود بالنفع على أحباء الحياة الروحية. لقد تأثرت به كثيراً عندما طالعته وأنا رغبة في أن أنقل منفعته وفائدته إلى من يرغب. يبقى أن أقول بعد هذا، أن النص العربي الذي بين يديك أخي القارئ، هو عصارة النصين (الانكليزي واليوناني) فهناك وضوح أحياناً في النص الانكليزي، وآخر في النص اليوناني. هناك باختصار فوارق بين النصين، فمن يطالع النص اليوناني، والنص الأنكليزي يجد أن الكتاب واحد، لكنه في الوقت نفسه، يجد أن في النصين فوارق. وهكذا عمدت إليهما حتى يولد النص العربي مزداناً بما في الاثنين من فوارق. اسأل الرب أن يجعل هذا الكتاب وكل كتاب آخر لمجد اسمه القدوس ومنفعة الأخوة أمين.

الأب

منيف حمصي

عيد الصليب - ١٩٩١

القسم الاول

الفصل الأول

ما هو الكمال المسيحي؟ الحرب ضرورية لاكتسابه. أمور أربعة لا غنى عنها للنصرة في هذه الحرب

نحن نريد أن نحيا في الكمال، والرب طالبنا: كونوا كاملين كما أن أباكم الذي في السموات كامل» (متى ٥ : ٤٨). بولس الرسول يلفتنا أن نكون صغاراً في الشر، كاملين في الذهن (١ كو ١٤ : ٢٠). ويقول في موضع آخر: «اثبتوا كاملين...» (كو ٤ : ١٢). وأيضاً: «لنتقدم في الكمال» (عب ٦ : ١). وهذا ما قاله الرب في العهد القديم: «... تكون كاملاً لدى الرب إلهك» (تثنية ١٨ : ١٣). وداود ينصح سليمان ابنه بقوله: «وأنت يا سليمان ابني أعرف إله أبيك وأعبده بقلب كامل ونفس راغبة» (١ أي ٢٨ : ٩). لذا بعد كل ما قيل يمكننا أن نؤكد أن الله يريد الكمال من المسيحيين. فنحن يتوجب علينا الكمال في كل الفضائل. لكن أنت، إن أردت الوصول إلى ذلك، ما عليك إلا معرفة أين تجد الكمال المسيحي، وإلا فإنك ستحيد عن الدرب إليه وتدخل في سبل أخرى، فتظن أنك في الطريق.

إن أعظم شيء يتمناه المرء، هو التقرب من الله والالتصاق به. والكثيرون يزعمون أن ملء الحياة المسيحية موجود في ممارسة الصوم والسهر والسجدات، أو في النوم على الأرض مع كل الرياضات الجسدية الأخرى. إلا أن آخرين يزعمون أن الكمال المسيحي يكمن في تكرار الصلوات في البيت، والمواظبة عليها في الكنيسة. وآخرون يعتقدون أن الكمال، في دقة التطبيق لمضامين الوصايا، دون اهمال شيء، أو زيادة شيء آخر، على أن يتم ذلك بالاعتدال. إلا أن كل هذا هو مجرد وسائل

للوصول إلى الكمال. في الواقع إنها وسائل فعالة تقود إلى كمال الحياة الروحية. ونحن نرى الكثيرين من أهل الفضيلة يعكفون عليها لنيل قوة ضد طبيعتهم التي انفسدت بالاثام، وضد أهوائهم الشريرة أيضاً. فهم يمارسون هذه الفضائل، لكي تنمو فيهم الشجاعة على مقاومة تجارب (الجسد والعالم والشيطان)، وأيضاً لكي يحصلوا على العون من جراء هذه الوسائل. وهذه الوسائل واجبة كل الوجوب لخدام الله، لا سيما للمبتدئين منهم. الصوم ضروري لقمع حركات الجسد. والسهر ضروري لتقوية البصيرة الداخلية. النوم على الأرض ضروري، خشية الوقوع في الكسل والتراخي. ربط اللسان بالصمت واجب. الاختلاء واجب، وذلك لاجتناب ما يعيق الحياة في حضرة الله. تلاوة الصلوات والمواظبة عليها في الكنيسة، واتمام الأعمال الفاضلة، كلها أيضاً ضرورية لبقاء الذهن في السماء. القراءة في حياة المخلص تعين على معرفة الضعف البشري، وتكشف رأفة الله وحبه ورحمته، وذلك لاتباعه والسير معه بانكار ذات. والذين يعملون كل هذا، يلتهبون بالرب أكثر فأكثر. من الجهة الثانية، قد تكون الفضائل سبباً لضرر عند الذين يرونها غاية حياتهم. والعيب ليس في الوسيلة، بل في سوء استعمالها. فالوسائل حيادية في حد ذاتها. إلا أن الذين يمارسونها (الفضائل) ظاهرياً فقط، وقد عاشت قلوبهم وفق ارادتهم الخاصة، فإن موقفهم يكون مدعاة لفرح ابليس الذي يرى انهم قد تخلوا عن الصراط القويم. وهنا قد يكف (ابليس) عن تجربتهم جسدياً، فيسمح لهم بمزيد من الطاعة لأفكارهم الضعيفة. أمثال هؤلاء قد يقعون في نشوات خاصة، فيبدو لهم أنهم بلغوا حالة الملائكة، ويخال لأفكارهم أن الله راتع فيهم، فيعكفون أحياناً على تأمل عاطفي غير روحي هو أشبه بالانخطاف (**انخطاف بولس الى السماء الثالثة**).

لكن يستطيع أي إنسان أن يعاين ضلال مسلكهم برؤية حياتهم، فيتيقن من بعدهم عن الكمال الأصيل. وكقاعدة لذلك، تراهم يؤثرون أنفسهم على الآخرين، سالكين بمقتضى مشيئة نفوسهم. هم عادة

عنيدون في مواقفهم، وعميان من جهة كل ما يتصل بهم. وإن سمعوا مديح أحد، تضيق نفوسهم، فيعادونه. وإذا تدخّل أحد في حضور الآخرين، بشؤونهم، فإنهم يغتاظون ويهدرون هدوءهم.

عندما يريد الله أن يعرّفهم حقيقة نفوسهم كي ما يسلكوا درب الكمال، يمطرهم بالتجارب والأوجاع، أو يسمح باضطهادهم. بهذه الوسيلة يختبر الله خدامه الحقيقيين. وهذه التجارب تستنبش ما دفنوه في نفوسهم، وتكشف فسادهم بداعي الكبرياء. إنهم يرفضون التجارب، ولا يخضعون لحكم الله، وليست لهم ثقة فيه. يأبون الإنصياع والطاعة ليسوع الذي تألم من أجلنا. يأبون التواضع، **لأنهم ليسوا أدنى المخلوقات**، يرفضون الاضطهاد الذي هو علامة صداقتهم لله. وهكذا فهم في مأزق، لأن حواسهم الداخلية قد اسودّت، أما هم فيرون في أعمالهم كل خير وصلاح، فينتفخون ويقعون في دينونة الجماعة. أمثال هؤلاء، يتعذر استرجاعهم إلا بتدخل الهي. إن الأثيم التائب يعود إلى الخير بسهولة، أكثر من الذي يخطئ وهو متستر بالفضائل.

ها قد رأينا بجلاء أن الحياة الروحية والكمال المسيحي لا يكمنان في فضائل خارجية. وعليه، فعلينا أن ندرك أن الحياة المسيحية لا تقوم إلا بمقاربة الله وملاصقته من صميم القلب، وبالإحساس اننا عدم، وميالون إلى الشرور (١ كو ١٠: ٣١).

هذا هو ناموس الحب، مكتوباً بيد الله في قلوب اصفيائه الأحباء. هذا هو رفضنا لذواتنا حباً بالله. هذا هو نير المسيح المبارك وحمله الخفيف. هذا هو التسليم لإرادة الله: (لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض...) (متى ٦: ١٠). ويسوع نفسه عبّر عن هذا في ليلة آلامه، وذلك بقوله: «لتكن لا ارادتي بل ارادتك...) (لو٢٢: ٤٢). ألم يقل هو نفسه: «لأني نزلت من السماء لأعمل مشيئة الذي أرسلني» (يو ٦: ٣٨)؟

هل ترى الآن يا أخي ان هذه كلها مجرد وسائل. أنا أعرف أنك مستعد ومشتاق لبلوغ ذرى هذا الكمال.

فليكن اندفاعك مباركاً. لكن عليك أن تعد نفسك للعمل، وللعرق، وللجهاد، منذ البداية. عليك أن تعمل ما يرضي الله في كل شيء. سترى في داخلك أوجاع وأهواء كثيرة ومشيئات عديدة تصرخ طالبة الارتواء. إلا أن النجاح يتوقف على جهادك. ولا تنسى أن بلوغ الهدف يُعطى للأبطال فقط.

وإذا كان من مشقات في الجهاد، فهذا دليل اننا نحارب ضد أنفسنا، وأنفسنا تعاكسنا. لا تنسى أن الانتصار يرضي الله كثيراً. وأنت إذا انتصرت مدفوعاً بالغيرة، فأمّت أهواءك ورغباتك، فإن الله يفرح بك كثيراً. وعلى هذا النحو، تعمل لأجله بصورة أفضل بكثير مما لو تضرّج جسدك بالدم بفعل الجلد، وأفضل بكثير مما لو اجهدت نفسك بالصوم، مضاهياً رجالات البرية. وأكثر مما لو خلصت مئات من العبيد المسيحيين، من ذلهم، وأطلقتهم إلى العتق والحرية، فإن هذا لا يخلصك، إن بقيت عبداً لملذاتك. فأي عمل مهما كان، لا يوصلك إلى هدفك المنشود، إن أهملت أهواءك تاركاً لها العنان.

وأخيراً، وبعد أن عرفنا ماهية الكمال المسيحي، وعرفنا ضرورة الحرب ضد أنفسنا، فإن أردت أن تنتصر في حربك (الروحية)، وتنال الإكليل، عليك أن تضع الأمور التالية نصب عينيك:

١ ـ لا تثق بنفسك في أي شيء
٢ ـ ليكن في قلبك ثقة كبيرة بالله.
٣ ـ جاهد بدون توقف.
٤ ـ صلِ بدون انقطاع.

الفصل الثاني

في عدم الثقة في النفس في أي شيء

إن عدم الثقة بالنفس أمر بالغ الأهمية في جهادنا، إذ بدونه نفشل دائماً في الغلبة المرجوة، وبدونه أيضاً نعجز دائماً لدى مقاومة العدو. فليكن هذا نصب عينيك.

من أيام آدم وحواء، دخلت فينا الخطيئة مسبّبة وهناً في قوانا الروحية والأخلاقية. لكننا رغم كل هذا، ما زلنا ننظر إلى ذواتنا نظرة فوقية، كأننا شيء، علماً أن الخبرة أثبتت وتثبت رياء نظرتنا وزيفها. إن هذا المرض الروحي، من الصعب تمييزه، لكنه ممقوت من الله، فهو المولود الأول (البكر) للعجب بالنفس، وهو أصل كل الآمنا وأهوائنا وأفعالنا القبيحة. إنه يسد باب ذهننا ونفسنا، فمنه وحده فقط تستطيع سائر **النعم** أن تدخل.

إن الثقة بالنفس لا تتيح لها الفرصة كي تسكن فينا، وبالتالي فالنعمة لا تعمل في الذين يثقون بنفوسهم. فكيف تعمل في من يظن أنه شيء؟ والله يتألم كثيراً من أجل الرازحين تحت هذا الألم، فيقول: (ويل للحكماء بأعين أنفسهم، والفهماء عند ذواتهم) (١ ش ٥: ٢١). الرسول نفسه يحذرنا قائلاً: (لا تكونوا حكماء عند نفوسكم) (رو ١٢: ١٦).

الله نفسه الذي يحقق تقويمنا الخاطئ لنفوسنا، يجب أن يرانا مقتنعين أننا بدونه لا شيء، وأنه هو مصدر الخير، وأن لا شيء من الخير يأتي من نفوسنا. لقد أراد الله أن تكون هذه الجذوة الصالحة مغروسة في

قلوب اخصائه القديسين، فشرع يحث كل واحد منهم أن لا يعطي قيمة لنفسه، وان لا يثق بها. وهو يفعل هذا، تارة عن طريق النعمة والرؤية الداخلية، وطوراً عن طريق التجارب، ومرة أخرى بطرق لا نفهمها نحن. إن عدم الثقة بنفوسنا هو من عمل النعمة. لكن علينا أن نبذل كل الجهد كي نصل إلى هذه القناعة. لذا سأرسم لك أموراً أربعة بها وبمعونة الله، تبلغ إلى عدم الثقة بنفسك:

١ ـ تأكد أنك لا شيء، وكن على يقين أنك عاجز عن أي خير يستحق الملكوت. تذكر أقوال الآباء الذين قالوا: ليس أفضل من معرفة الإنسان لضعفه، وليس أسوأ من تنكّر الإنسان لمعرفة نفسه. والقديس يوحنا الذهبي الفم قال: (لا أحد يعرف نفسه، إلا إذا اعتبر أنه لا شيء).

٢ ـ أطلب العون الإلهي بالصلاة الحارة المتواضعة. فبفضل النعمة الإلهية يستطيع المرء أن يعرف نفسه. وإذا رغبت في اقتنائها، وطّد العزم على القناعة اليقينية بأن ابتغاء النعمة ليس من طبيعتك، وأنك لا تبلغ إليها بمجرد جهادك، إنما بوقوفك في حضرة الله، بإيمان ثابت في محبته التي تمنحك معرفة ذاتك. فالله وحده يهبك هذه القدرة. أما أنت فلا يخامرك شك، أو ارتياب، في أنك ستنال سؤلك من الرب.

٣ ـ درّب نفسك على الانتباه واليقظة أمام خصومك الذين لا تقوى عليهم. تهيّب خبرتهم الطويلة في محاربة الإنسان، وخبثهم وأشراكهم وقدرتهم على أخذ هيئة ملاكِ من نور (٢ كور ١١: ١٤ ـ ١٥). انتبه من شباكهم الكثيرة التي يجعلونها في درب حياتك.

٤ ـ وإذا وقعت في معصية، بداعي ضعفك، فاقبل ذلك لأن الله يسمح بالسقطة كي يجعل الإنسان أكثر وعياً لحقيقة ضعفه. وهكذا فإنك بضعفك هذا تصبح راغباً في قبول اساءة الآخرين إليك، والتي بدونها، لا يمكن أن تنمو فضيلة نكران الذات فيك.

إن هذا هو ركن التواضع وقاعدته، ويبنى في العادة على التيقّن من الضعف البشري القابع فينا. من التواضع تبدأ معرفة الذات الحقيقية. منه ندرك كيف يرحم الله المتكبرين فيسمح بسقوطهم، وذلك لكي يأتوا إلى معرفة ذواتهم.

ورغم فعالية التكتيك الإلهي عبر هذه الطريقة، إلا أنه يبقى أسلوباً خطراً لا يحتكم إليه الله إلا عندما تخفق الأساليب الأخرى. والسقوط، في حال حصوله، يكون على مقدار عمق الخطيئة أو درجة الكبرياء. لهذا، فإن حصل ووقعت في زلة، فتواضع في داخلك مواظباً على التضرع والابتهال إلى الله، ليهبك نوراً يخوّلك معرفة نفسك. لا تعتمد على ذاتك لئلا تقع من جديد، ويكون وقوعك في شر أفدح. الإنسان لا يصل إلى معرفة ذاته إلا عندما يُجرّب بالضيقات والمحن، لا سيما الجسدي منها. لذا يتوجب على الإنسان أن يدرك ضعفه بحق، ويتضع.

الله يسمح بنزول التجارب علينا، سواء من الشيطان، أو من الناس، أو من الطبيعة الساقطة. وبولس أدرك هذا عبر التجارب التي أحاقت به فقال: «لا نريد أيها الأخوة أن تجهلوا الشدائد التي نزلت بنا في آسيا، فكانت ثقيلة جداً وفوق قدرتنا على الاحتمال حتى أننا يئسنا من الحياة، بل شعرنا أنه محكوم علينا بالموت، وذلك لكي لا نتكل على أنفسنا، بل على الله الذي يقيم الأموات...» (٢ كور ١ : ٩ ـ ١٠).

اذا أراد المرء أنْ يدرك ضعفه بخبرته اليومية، فلينتبه إلى كلامي مدققاً في أفكاره وأقواله وأفعاله، فيجد أنها في معظمها خرقاء واهية. والتجربة من شأنها أن تكشف له ضعفه. فإذا كان يتلهف إلى الصلاح، سيدرك من ضعفه بمقدار غباوته إذا اتكل على نفسه، أو إذا حصر اتكاله بنفسه فقط.

الفصل الثالث

في الثقة والرجاء بالله فقط

رغم عدم جدوى الاتكال على القدرة البشرية فقط، في الجهادات الروحية، إلا أن الوقوع في اليأس دون التماس العون، قد يؤدي بالواحد منا إلى التخلي عن حلبة الجهاد، فنُستعبد للعدو. لهذا فبالإضافة إلى معرفة أفكار النفس، يتوجب على الإنسان أن يشعر من عمق القلب بأن الاتكال هو على الله دون سواه. فمنه كل خير، وكل عون، وكل مؤازرة، وهذا ما يحدو بنا إلى عدم الاتكال على أنفسنا البتة، فلا نتوقع منها سوى الضعفات والسقطات، الأمر الذي يقنعنا بضرورة عدم التمسك بأنفسنا. فالمؤمن على ثقة أن الغلبة تأتيه من الرب، عملاً بقول المرنّم: «الرب عزي وعوني، عليه اتكل قلبي فانتصرت...» (مزمور ٢٨ : ٧). أما الأفكار الواردة أدناه فتعين على الرجاء لنيل العون والقوة:

١ ـ نحن نطلب عون الرب لنا، وهو وحده قادر على ما يريد، لهذا فخلاصنا بين يديه.

٢ ـ نحن نطلب عون الرب لنا، وهو وحده الحكيم العارف بأنجع سبيل يناسبنا. وهو وحده العارف بما يناسب كلاً منا.

٣ ـ نحن نطلب عون الرب على نحو غير محدود، وعونه يأتينا بمحبة منه لا توصف. فالله مستعد أن يمدنا بالموافق كل حين بغية نيل النصرة التامة في الجهادات الروحية. يكفينا أن نسرع إليه بثقة وثبات. الرب راعي نفوسنا الذي يبحث عن الخروف الضال في الدروب الوعرة المليئة بالشوك، وقد تجلى هذا بموته عنا. لذا فالمؤمن الساعي إلى الرب، لا بد أن يستقر في النهاية في الأحضان الأبوية،

ليشترك في الوليمة السماوية، مع الملائكة الاطهار. الله لا يتوقف عن البحث عن كل خروف ضال، كتلك التي كانت تبحث عن الدرهم المفقود (لوقا ١٥ : ٨ - ١٠). الله يفتش عن كل واحد منا، ويقرع أبواب قلوبنا كل حين، عساه يدخل ويتعشى كما جاء في سفر الرؤيا (رؤ٣: ٢٠). والله يصر على الدخول إلى قلوبنا إذا رغبنا به.

٤ - أما السبيل الرابع الذي تتولد لنا به، ثقة متينة في الرب، فيقوم على استرجاع كل علامات العناية الإلهية من أجل البشر في الكتاب الإلهي، وهي في الواقع كثيرة ولا تحصى. فليس من يضع ثقته بالله يخزى. هذا ما يقوله ابن سيراخ (٢ : ١٠).

تمسك بهذه السبل المذكورة يا أخي، وحارب بشجاعة، مقتنعاً أن الغلبة لا بد آتية من الله. وأني لا أتوانى في هذا الباب عن تذكيرك بعدم الثقة بالذات، فكلنا بحاجة إلى هذه الملحوظة، وليس أحد بغنى عنها. إن اكرام الذات مرض متجذر فينا إلى حد أن الواحد منا يظن نفسه أمراً ذا شأن. إنه وجع رابض في أعماق القلب يتحرك فينا على نحو خبيث ولا يمكن تتبعه بسهولة. ولكي نتحاشى الانخداع، علينا التمسك بضعفنا الذي يسبق تأملنا بالله. ان الضعف المقترن بالتأمل في الله، هو شرط لا بد منه، في كل نشاطاتنا.

الفصل الرابع

في كيف يعرف المرء أنه يضع ثقته بالله ولا يتكل على ذاته

يزعم المتّكلون على ذواتهم أن ثقتهم بالله، واتكالهم عليه، وان ليس فيهم اعتماد على ذواتهم البتة. والحال ليس هكذا أبداً، ويمكنهم تبيّن هذا إن هم دققوا في نفوسهم حينما يتهوّرون. فإذا كان الحزن يلازمهم ساعة السقوط فيعيّرون أنفسهم قائلين هكذا: سأقوم بهذا، وأفعل ذاك، كي أتجاوز ما حصل، والكل سيكون على أفضل حال... إن في هذه المزاعم علامة بيّنة على الثقة بالنفس وعدم الاتكال على الله. فالحزن الناجم عن السقطة يكون كبيراً في الاعتماد على الذات. أما الذي يضع رجاءه بالله فإنه لا يتعجّب ولا ينذهل ساعة السقطة، ولا يحزن إلى حد الافراط، فهو يدرك أن السقطة نتيجة ضعفه، ونتيجة انعدام ثقته بالله، وهكذا تنكشف له نفسه بالزلة، فيحتمل الكل، ليتقدم في التعلق بالله والثقة به. وبالتالي فإنه يحتمل مستلزمات التوبة، في يقين بأنه قد أهان الله. وهذا يقوم به بسكينةٍ وهدوءٍ متسلحاً بالله على نحو أفضل وأمثل، لمقاومة أعدائه بشجاعة وباصرار، حتى الموت. وأسوق مثلاً من الناس الذين يزعمون أنهم رجال الروح والفضيلة، لكنهم سرعان ما يسقطون في الغم والكآبة بعد السقطة، فلا يعثرون على سلام ولا يطلبونه، بسبب الايغال في محبة ذواتهم. وهكذا يهرعون إلى الآب الروحي جاعلين ثقل الخطيئة أمامه كي يتنقوا من رجاستها ويقووا على أنفسهم بواسطة السر الأقدس، سر التوبة والاعتراف.

الفصل الخامس

في ضلال الذين يزعمون أن الافراط في الغم فضيلة

يخطئ من يظن أن الحزن الشديد، الحاصل نتيجة للخطيئة، هو فضيلة. فقد يكون ناجماً عن كبرياء وعجب بالنفس. وكثيراً ما يكون مثل هذا الحزن قائماً على ثقة بالنفس، وثقة كبيرة بالقدرة الشخصية، حيث أن المرء ينذهل إذا ما وقف أمام أمر لم يكن يتوقعه، فيذوب قلبه من شدة الضيق، فهو لا يستطيع أن يصدق أنه مرمي إلى الحضيض بعد أن كانت الامال والتطلعات عظيمة وكبيرة.

إن أمراً كهذا لا يصيب الإنسان المتواضع الذي تمتّنت ثقته بالله، فما عاد يرجو من نفسه أمراً حسناً. فعند سقوطه في زلة، يشعر بالحزن الشديد، دون أن يبلغ به الأمر إلى اليأس. فهو يعرف أن السقطات هي نتيجة لضعفه البشري، وانها ممكنة دائماً، فلا يضطرب ولا يتعجب، لأنه يدرك ذلك جيداً بمعونة نور الحقيقة.

الفصل السادس

في أمور أخرى بها تصير الثقة بالله كاملة مع عدم الاعتماد على الذات.

لما كانت القوة التي بها نغلب أعداءنا، تقوم في عدم اعتمادنا على أنفسنا، وفي ثقتنا ورجائنا بالله، كان لا بد أن يتوفر عندك يا أخي علم جلي بهذا، لأنك به تأخذ القوة مقرونة بمعونة الله. فاعلم يقيناً أن ليست طاقاتنا، ـ سواء الفطرية منها، أو المكتسبة، ولا المواهب الممنوحة لنا مجاناً، ولا معرفة الأسفار المقدسة، ولا الأعمال التي عملناها من أجل الله عبر السنين، ولا كل هذه معاً، ـ تؤهلنا أن نفعل ارادة الله كما ينبغي. فإن كنا أمام عمل جليل ننوي القيام به، أو أمام تجربة نسعى إلى تحاشيها، أو عندنا صليب علينا أن نحمله بمقتضى ارادة الله، فإن لم ترفع معونة الله قلبنا وتمدّه بالقوة، فالكل بدون جدوى لأن الرب قال: (بدوني لا تقدرون أن تعملوا شيئاً) (يو ١٥ : ١٥). لذا يتوجب علينا طوال حياتنا، وفي كل يوم، وساعة، ولحظة، أن نضع نصب أعيننا عدم الاعتماد على ذواتنا، بل نرجو على الدوام الاعتماد على الله.

أما من جهة الثقة بالله، فاعلم أنه قادر على نصرتك ضد أعدائك، سواء كانوا قليلين أم كثيرين، ضعفاء أم أقوياء، لكن أوقاته ومواعيده خاصة، وهي قادرة على منح النصرة مهما كانت النفس محمّلة بالخطايا في العالم، ومهما كانت ملوّثة، ومهما تقلّبت في التجارب واستخدمت كل الوسائل كي تتحرر من الخطيئة، وتصنع الخير دون أن تقطف ربحاً صغيراً مهما كان. لا بل على العكس فإن سقوطها في الشر صار أعمق. فمهما حصل، لا بد للنفس أن تتمسك بالثقة بالله دون أن

تتخلى عن أسلحتها الروحية. عليها أن تجاهد بكل شجاعة دون التوقف عند حد. لذا عليك أن تدرك أن الجميع يخسرون في الحرب الروحية ما عدا أولئك الذين يواظبون على الجهاد، جاعلين رجاءهم في الله. الله لا يهمل أحداً، رغم أنه يسمح لهم أحياناً أن يحتملوا الجراح. فليجاهد كل واحد، لأن الجهاد هو للجميع في مثل هذه الحرب. الأدوية جاهزة وفعالة، والرب يعطيها للمجاهدين الذين يتطلّعون إليه بثبات ورجاء. وهكذا فإن المجاهدين في أوان غير متوقّع، سيرون أعداءهم يتقهقرون كما كتب: (لقد توقف عسكر بابل عن الحرب) (ارميا ٥١ : ٣٠).

الفصل السابع

في كيفية ترويض الذهن لوقايته من الجهل

إن الثقة بالله وعدم الاتكال على النفس، هما قاعدة وطيدة لا يمكن تناسيها في الحرب الروحية. إلاّ أن هذه المقولة لا تكفي، فثمة أمور ينبغي القيام بها من أجل البناء الروحي. فالاكتفاء بالمقولة لا يكفي وحده للوصول إلى النصرة، فقد نسقط في شر كبير. من هنا يتوجب علينا القيام ببعض الرياضات النافعة للذهن والارادة معاً. فالذهن يجب أن يصان من الجهل والغباوة التي تضرّه. الجهل يعيق الذهن عن بلوغ معرفة الحق، أساس العمل الروحي وهدفه السامي. لهذا لا بد من ترويضه كي يستأهل البلوغ إلى القامة المطلوبة لتنقية النفس من أوجاعها، وتجميلها بالفضائل.

وثمة سبيلان يتمكن المرء بهما من بلوغ نقاوة الذهن:

الأولى والأهم هي الصلاة التي بها نضرع إلى الروح القدس فينسكب نوره الإلهي في أعماقنا، ولنا كل الثقة في ذلك إذا كان التضرع إلى الله بإخلاص، وكنا نتوق إلى تمثّل ارادته في كل شيء ونخضع لإرشادات الخبراء الروحيين دون القيام بأي عمل خارج مشورتهم.

أما السبيل الثانية فتقوم على ترويض الذهن ليتمكن من اختبار كل شيء، والتدقيق فيه بقصد معرفته للتمييز بين الحسن والرديء. فحكمنا لا يجوز أن يكون دنيوياً بل نابعاً من الروح القدس أو من كلمات الكتب الإلهية الملهمة، أو كلمات الآباء القديسين والمعلمين في الكنيسة. وإذا كان اختبارنا هذا ومعرفتنا صائبين، وفي لياقة، فمن

شأنهما أن يخوّلانا أن نفهم بصفاء، انه يجب اعتبار أمور العالم الأعمى، عديمة القيمة، مزيفة وباطلة، وان أمجاد العالم وملذاته وغناه، ليست بشيء، وأنها كلها باطلة وتؤول إلى موت النفس، وان الافتراءات والوشايات التي بها يعادينا العالم ويضطهدنا، تأتينا بالمجد الحق، وإن الآم العالم هي لنا مدعاة فرح. وان مسامحة خصومنا وأعدائنا، وإتيان الخير لهم، لهي الشهامة الحقيقية، وهي من أعظم ميزات التشبه بالله (الصيرورة على مثاله). وان من يحتقر العالم، لهو أقوى ممن يسود العالم ويحكمه. وان الطاعة طوعاً، لهي شأن يبرز شجاعة الروح وقوته أكثر من الانتصار على ملوك جبابرة واستعبادهم. وإن معرفة الذات المقرونة بالتواضع، لهي أولى من كل ضعف المعرفة مهما سمت. وإن اخضاع الشر والميول والشهوات مهما صغر شأنها، لهو شأن جدير بالثناء أكثر من احتجاز ومحاصرة قلاع كثيرة، وغلبة جيوش جرارة في كامل عدتها وتجهيزها. لا بل ان اخضاع الشر، هو شأن يفوق صنع العجائب ويضاهي اقامة الموتى.

الفصل الثامن

في بواعث التمييز الصحيح وفي كيفية معرفته

السبب ـ في أحكامنا المغلوطة التي نطلقها على بعض الأمور، ـ قد سبق ذكره، وهو أننا لم ندقّق فيها كي ندرك كنهها ونعرفه. فنحن سرعان ما ننزع نحوها او نمجّها، لمجرد النظر إليها، فنطلق حكمنا عليها بمقتضى الظاهر. ان هذه الانواع من الحب والكراهية تظلم نوسنا (ذهننا) وتجعله ينحاز في قضائه وحكمه، فلا يكون واقعياً صائباً. فإن رُمتَ يا أخي الانعتاق من هذا الهوى، فامسكْ أهواءك جيداً، ولا تسمح لنفسك بمحبة شيء أو كرهه، بعد أول نظرة. إنما دقّق ممحّصاً كل شيء في نوسك فقط. والنوس غير المعاق من الأهواء، يبقى نقياً وحراً، فيتمكن من ادراك الحق واعلانه، وهكذا ينفذ إلى ماهية الأشياء. وذلك، لأن الشر كثيراً ما يحتجب وراء ظواهر جذابة وخداعة. أما الخير فيربض خلف ما هو سيء، أحياناً. فمتى استبدّت بك الأهواء، فسرعان ما تجعلك تحب شيئاً أو تمجّه، وهكذا يتعذر على نوسك ادراكه كما يليق. فإذا كان هوى التحامل (الانحياز) سابقاً لكل تقدير، فإنه سيحول بين النوس والشيء المعقول، فيكون القضاء نابعاً من الهوى. بكلام آخر، النوس سيعجز عن ادراك الشيء كما هو حقيقة، وهذا يقوّي التحامل والانحياز. وازدياده يؤول إلى ازدياد في اسوداد النوس، حتى بلوغ الظلمة الكاملة. والهوى يبلغ أقصى حد له، عندما يدرك المرء أن شيئاً ما هو أحب الأمور إلى قلبه، أو أكثرها مقتاً عنده. والتراخي مع عدم كبح جماح الهوى، على النحو المذكور، من شأنه أن يفسد الارادة والنوس

معاً، فيأتي القضاء مغلوطاً، فيتجذّر المرء في الخطيئة، منتقلاً من اسوداد إلى آخر، ومن إثم إلى إثم.

لهذا راقب نفسك يا عزيزي بيقظة، واحم ذاتك من محبة الشيء أو مقته، بدافع الهوى، قبل أن تمحّصه في نور العقل والكلمة الحق التي في الأسفار الإلهية، وفي نور النعمة والصلاة وبعون قضاء أبيك الروحي. وإلاّ فإنك ستضلّ إذ ترى الخير الحقيقي شراً، والشر الحقيقي خيراً. وكثيراً ما يحدث هذا كما في بعض الحالات الصالحة والمقدسة في ذاتها، دون أن تؤاتيها أحوال ملائمة، كأن تكون قد حصلتْ في أوان غير مناسب، أو مكان غير ملائم، أو أنها لم تحصل بالقياس المطلوب. وهكذا فهي تلحق ضرراً غير قليل في من قاموا بها. ونعرف من الخبرة مقدار الآلام التي تكبدها البعض بفعل أعمال نافعة ومقدسة كهذه.

الفصل التاسع

في حراسة النوس من المعرفة الكثيرة غير النافعة والفضول المجنون

كما إنه من الضروري حماية النوس من الجهل، هكذا ضروري أيضاً صونه من الضد، أي المعرفة الكثيرة والفضول. فشحن النوس بالمعلومات الكثيرة والآراء والأفكار الباطلة وغير المفيدة، - يؤول إلى تشتيته وبعزقة قواه، فلا يعود قادراً أن يفهم ما النافع لتقويم الذات، وللكمال. لذا ينبغي أن تضبط نزعاتك وميولك من جهة المعلومات المتصلة بالامور الارضية. دع اخبار الماضي والحاضر تمر، مع التبدلات في العالم وممالكه. لتكن كلها بالنسبة إليك، في عداد غير الموجود. وإذا حدث وجاءك أحد بأخبار من هذا القبيل، فانبذها طارداً إياها من قلبك وخيالك. استمع إلى ما يقوله القديس باسيليوس: «ليكن الاستماع إلى الأخبار الدنيوية بمثابة طعام مرّ عندك. ولتكن كلمات الرجال الأتقياء كشهد العسل». استمع لما يقوله داوود: «تكلم معي مخالفو الناموس كلام هذيان، لكن ليس كناموسك يا رب» (مزمور ١١٨ : ٨٥). احببْ سماع الروحيات والسماويات فقط، ادرسها وتأمل فيها. لا ترغب في معرفة أي شيء دنيوي بل اطلب ربنا يسوع المسيح وإياه فقط مصلوباً (١ كور ٢ : ٢)، مع حياته، وموته، وكل ما يطلبه منك. وإذا عملت هكذا، فأنت ترضي الله الذي يجمع أحباءه ومختاريه الذين يحبونه ويجاهدون لعمل مشيئته.

إن كل تساؤل واستفسار آخر هو وليد عشق الذات والعجب، وطعامها. إنها شباك ابليس ومصائده عندما يرى قوة المتيقظين الساهرين

على حياتهم الروحية، وثبات ارادتهم، فيسعى إلى الحاق الهزيمة بنوسهم، عن طريق الفضول وحب الاستطلاع، -وذلك كي يسوده ويستحوذ على ارادتهم. لهذا الغرض، يوحي إليهم بالأفكار (logismos) السامية الغريبة والخبيثة، لا سيما لأولئك اللامعين في ذكائهم، القادرين على استخلاص التأملات الرفيعة. وإذ ينجذب هؤلاء إلى متعة امتلاك وفحص مثل هذه الأفكار، فإنهم سرعان ما يهملون اليقظة على نقاوة قلوبهم، والنظر إلى ذواتهم بتواضع، وينسون الأماتة الحقيقية، فيسقطون في حبائل وقيود الغطرسة والغرور، فيجعلون ذاتهم صنماً، ما يلبثون شيئاً فشيئاً، بفعل الغفلة، أن يسقطوا في فكرة عدم الحاجة إلى نصيحة الغير وإرشادهم، فهم قد ألفوا وارتاحوا، في كل حال، إلى الاحتكام إلى صنم علمهم وقضائهم.

إن هذا أمر بالغ الخطورة، ويعسر الشفاء منه. فعجرفة الارادة أخف وطأة وأقل شراً من غطرسة النوس وزهوه. ويمكن الشفاء من عجرفة الارادة بسهولة، عندما يدركها النوس، وذلك بإرغامها على نير ما هو صالح ونافع. لكن إذا كان النوس متجذراً في الثقة بالذات، ومقتنعاً إن ما لديه خير مما عند سواه، فمن يشفيه في النهاية؟ هل يطيع، من تيقّن ان احكام الغير ليست كأحكامه؟ وحينما يعمى النوس (عين النفس)، بالكبرياء، تلك العين التي بها يرى المرء كبرياء الارادة فيقوّمها. فمن سيقوّم إذ ذاك، الارادة ويشفيها؟ كل ما في الداخل سيتشوّش، إذ ليس هناك مكان أو إنسان يصنع الشفاء.

فلا تتوانى في صد كبرياء النوس قبل انسلاله إلى مخيخ عظامك. قاومه. أكبح جماح نوسك، وأخضعْ فكرك إلى فكر الغير ورأيهم. كن جاهلاً، من أجل محبة الله، إن كنت ترغب في أن تكون أحكم من سليمان: «إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم في هذا الدهر، فليصر جاهلاً كي يصير حكيماً (١ كور ٣: ١٨).

الفصل العاشر

في كيف ندرّب (نروّض) ذواتنا كي يكون لها هدف واحد مطلق الا وهو ارضاء الله في الأمور الخارجية والداخلية.

بالإضافة إلى ترويض نوسك كي يتعلّم، عليك أيضاً أن تضبط ارادتك كي لا تجنح نحو رغباتك الذاتية. إنما ينبغي أن تقودها كي تكون مماثلة تماماً لإرادة الله. ضع في ذهنك جيداً انه لا يكفي أن ترغب وتنشد ارضاء الله على الدوام وفي كل شيء، إنما أيضاً أن يكون الله هو الذي يحركها، لغرض واحد هو ارضاؤه، بقلب طاهر نقي. ولكي نروّض ذواتنا على الثبات أمام هذا الهدف، ينبغي أن نتحمل جهاداً أعظم ضد طبيعتنا، أكثر من أي شيء ذُكر. فطبيعتنا اعتادت أن ترضي ذاتها وتطلب راحتها وملذتها في كل شؤونها، حتى في الأعمال الروحانية والصالحة. فهي تغتذي بها على نحو شهواني، في الخفاء، كما لو كانت طعاماً تقتات به. وهذا يحدث عندما نرى فرصة لعمل روحاني منتصب أمامنا، فنرغب للحال في أن ننجزه على عجل وباندفاع، لكن ليس كأناس تحركهم ارادة الله، وهدفهم الوحيد ارضاؤه، إنما من أجل التعزية والفرح المتولّدين فينا عندما نرغب ونسعى إلى ما يريده الله منا. وهذا المرض هو الأكثر مكراً واحتجاباً، لأن الأسمى والأكثر روحانية، هو طبيعة الشيء الذي نرغب به. وهذا هو السبب، كما أسلفتُ، أننا لا نرغب مشيئة الله فقط، إنما ينبغي أن تكون رغبتنا هذه، على النحو الذي يشاء هو، ومتى يشاء هو، وللسبب والمقاصد التي يريدها هو. والرسول يعلمنا أيضاً أن نختبر ما هي مشيئة، الله ليس من حيث صلاحها فقط، بل أيضاً من جهة ما إذا كانت مقبولة لديه،

وكاملة من كل الجهات. فيقول: «لا تشاكلوا هذا الدهر، بل تغيّروا عن شكلكم بتجديد نوسكم فتختبروا ما هي ارادة الله الصالحة المرضية الكاملة» (رو ١٢ : ٢). وهذا يؤول بنا إلى خلاصة مفادها، انه حتى ولو كنا نرغب في الله نفسه ونطلبه، فرغبتنا هذه يمكن أن تنطوي على خطأ ونقص. وربما يمتزج برغبتنا شيء من العجب بالذات والمجد الفارغ. فنحن عرضة للاهتمام بشأننا الخاص، أكثر من اهتمامنا بمجد الله وارادته، فنعمل حباً بذواتنا لا بالرب. والله لا يقبل من الأعمال، إلا ما كان منها لمجده، فهو يريدنا أن نحبه وحده وأن نرغب به وحده وأن نعمل له فقط.

لذا يا أخي إذا كنت ترغب في أن تحمي نفسك من المعوّقات الكامنة في طريق الكمال، وإذا كنت ترغب في ترسيخ نفسك على هذا الموقف، فترغب وتعمل بما يرضي الله، فاطلب أولاً ارضاءه وتمجيده والعمل له فقط، فهو يريد أن يكون البداية والنهاية في كل أعمالنا وأفكارنا. واسلك على النحو التالي: عندما ينتصب أمامك عمل مرضي لله، أو صالح في ذاته، لا تنزعْ إليه تواً، ولا تطلبه، إلا بعد أن ترفع نوسك نحو الله كي تتبيّن إذا كانت رغبةً مرضية له ويريدك أن تنجزها. وعندما تعد أفكارك على هذا النحو. وترى أن ميلك هو من مشيئته، عندها ارغب بالعمل ونفّذه.

وبنفس الطريقة، عندما تريد أن تبتعد عما هو غير منسجم مع ارادة الله، فلا يكن ابتعادك فورياً، بل ثبّت عين نوسك في مشيئة الله أولاً، وتأكد أنها ارادة الله تدعوك للابتعاد، ارضاء له (لله). ان انخداع الذات في طبيعتنا، دقيق جداً، وقلة من الناس تميّزه. فهو يبلغ مأربه خفية، بينما ظاهره يبدو متفقاً مع ارضاء الله، وفي الواقع ليس هو هكذا. وكثيراً ما يحدث أننا في الواقع نريد أو لا نريد أمراً لمنفعتنا الذاتية، لشبعنا، إلاّ أننا نتوهم أننا نطلبه لإرضاء الله وحسب. أن الوسيلة الوحيدة لتجنّب خداع كهذا، هي نقاوة القلب. وقوام ذلك هو نبذ آدم العتيق ولبس الجديد. هذه هي الغاية من كل الحرب غير المنظورة.

وإذا رمت معرفة كيفية تحقيق ذلك، فاسمع: عندما تبدأ عمل شيء، ينبغي، قدر المستطاع، أن تحرر نفسك من كل الرغبات الذاتية، فلا ترغب في فعل هذا، وتحاشي ذاك، حتى تدرك أن ما يحضّك عليهما، هو وعيك لمشيئة الله. إذا كنت لا تدرك بقوةٍ توجيهَ الله لك في كل شؤونك، سواء الخارجية، أو الأكثر أهمية، الداخلية المتعلقة بنفسك، فاقنعْ بجعل هذا الادراك ممكناً. بكلام آخر روّض نفسك بإخلاص على ارضاء الله دون سواه.

وقد يكون فينا الشعور الحقيقي بأن الله يحرّكنا إلى العمل، إما عن طريق ومضات الهية، أو استنارة داخلية تنكشف بها ارادة الله لقلوب نقية، في تأمل، أو عبر الهام إلهي داخلي، أو بواسطة كلمة داخلية أو من خلال أعمال تحققها النعمة الإلهية الفاعلة في القلب النقي: على سبيل المثال، الدفء المحيي والفرح الذي لا ينطق به؛ ارتكاض الروح؛ التحرك نحو الرقة والحنو، مع عبرات من صميم القلب، ومحبة لله ومشاعر أخرى محببة له، وكلها لا تنتج وفق مشيئتنا الذاتية، بل تكون من الله، لا من عملنا بل من خضوعنا. وهذه المشاعر يمكنها أن تكون تأكيداً على أن ما نعمله مرضي لله. لكن يتوجب علينا بادئ ذي بدء، أن نرفع إلى الله أنقى وأحرّ صلاة، متوسلين إليه بالحاح مرة، مرتين، ومرات كثيرة أن ينير ظلمتنا ويعلّمنا. صلّ ثلاث مرات، هذا ما يقوله العظيمان برصانوفيوس ويوحنا، وبعد ذلك أعمل بحسب ميل قلبك. علاوة على ذلك، لا تنسى أن كل القرارات التي تشكلت فيك نتيجة للحركات الروحية الداخلية التي ذُكرت، ينبغي أن تمحَّص بمشورة وقضاء أهل الخبرة. أما بالنسبة للنشاطات التي يتطلب انجازها وقتاً أكثر أو أقل، أو التي تدوم. فينبغي أن نوطّد في قلوبنا عزماً ثابتاً على ممارستها، ارضاءً لله، ليس في البداية وحسب، بل علينا أن نحاسب أنفسنا بين الفينة والأخرى، فنمجده حتى النهاية. أما إذا أخفقت في هذا، فأنت في خطر الوقوع في عشق الذات الطبيعي فينا، والذي ينزع إلى ارضاء نفسه أكثر من ارضاء الله. وكثيراً ما ينجح، بفعل الوقت، في تحويلنا عن

استعدادنا الأصلي للخير، وفي تحويل أهدافنا الخيرة ونوايانا. لهذا كتب القديس غريغوريوس السينائي يقول: «حذار من نوايا ارادتك، وانتبه إلى أي سبيل تنزع، هل إلى الله، أم إلى نفعك الذاتي وفائدتك، كونك تقيم في السكينة، وتتلو المزامير وترفع الصلاة أو تعمل الأعمال الصالحة الأخرى، لئلا تُنهب دون علمك.

لذا فإن لم يراقب الإنسان نفسه جيداً، فقد يبدأ نشاطاً ما بغية ارضاء الرب، لكنه سرعان ما يُدخل إليه شيئاً فشيئاً هماً ذاتياً يجد فيه اشباعاً لرغباته، فتصبح ارادة الله فيه أمراً منسياً بالكلية. ومع هذا، يبقى مشدوداً إلى لذة العمل. ولو أن الله نفسه منعه من هذا العمل، سواء عبر المرض أو التجارب من بشر أو شياطين، أو عبر طرق أخرى، فإنه يمتلئ حنقاً، فيلوم هذا أو ذاك لتدخله في أمور يحبها هو. وكثيراً ما يتذمر ضد الله نفسه، وفي هذا علامة أكيدة أن نية قلبه لم تكن من الله، إنما برزت من جذر فاسد منتن متصل بعشق الذات.

إن من يسعى للقيام بهذا أو ذاك من الأعمال، بنقاوة ووعي لإرادة الله، ورغبة في ارضائه، فإنه لا يؤثر عملاً على آخر، حتى ولو كان الواحد عظيماً رفيعاً، والآخر بسيطاً محتقراً، بل تكون نيته متساوية نحو الأمرين معاً، كونهما مقبولين لدى الله. فسواء عمل شيئاً رفيعاً وعظيماً، أو بسيطاً ومحتقراً، فإنه يظل في الأمرين قنوعاً وهادئاً، فنصب عينيه نية واحدة وغاية واحدة، هي ارضاء الله على الدوام، في كل ما يعمل، في الحياة أو في الموت حسب قول الرسول (٢ كور ٥ : ٩)

لذا راقب نفسك يا عزيزي. اجمع ذاتك، وجاهد بما أوتيت من قوة، كي توجه أعمالك شطر هذا الهدف الوحيد.

وإن حرّضتك دوافعك الداخلية كي تتحاشى عذاب جهنم، أو كي ترث السماء، هنا أيضاً، وجّه نشاطك داخلياً شطر الهدف الأسمى ذاته، وذلك كي ترضي الله بالطاعة لمشيئته، فمشيئة الله هي أن تذهب إلى السماء، لا أن تُلقى في جهنم.

لا أحد يمكنه أن يدرك بالكلية عظمة قوة حياتنا الروحية، وأعني ارضاء الله. لأن نشاطاً بسيطاً وغير مهم، إذا تم انجازه بهدف ارضاء الله وتمجيده، من شأنه أن يصبح في عيني الله، أكثر قيمة من أعمال عظيمة ومجيدة تقام بدون هذا الهدف. الله يسر كثيراً عندما يراك تعطي متسولاً قطعة نقدية صغيرة بهدف ارضاء سموه الإلهي، أكثر من تجرّدك من ممتلكاتك كلها، لهدف آخر، حتى ولو كان طمعاً في اقتبال البركات السماوية، رغم أن هذه البركات، صالحة ومرغوبة.

إن هذا العمل الداخلي ـ الذي ينبغي أن تمارسه في كل ما تقوم به، وأعني توجيه أفكارك ومشاعرك وأعمالك نحو ارضاء الله، ـ سيبدو صعباً في البداية، لكنه سرعان ما يصبح سهلاً وخفيفاً، ان أنت مارسته بانتظام وبجهد روحي. ثانياً ان احتفظت بالحنين إلى الله ملتهباً، فتتنهد بحنين قوي من القلب، من أجل الخير المطلق الجدير بالطلب، وطلبه لذاته، وخدمته ومحبته فوق كل الأشياء. وبمقدار بحثنا عن هذا الخير المطلق في الله، داخل عمق وعينا، وبمقدار ما يغوص هذا البحث في مشاعر القلب، تكون أعمال وأفعال ارادتنا حارة، كما ذكرت، وهكذا نستطيع أن نكوّن بسرعة ويسر، العادة، للقيام بأي شيء من خلال محبة السيد، مدفوعين برغبة (قوية) إلى ارضائه، طالما انه الأجدى من كل ما نحب.

الفصل الحادي عشر

بعض الأفكار التي يمكن أن تدفع ارادتنا نحو الرغبة في ارضاء الله في كل عمل ونشاط

وكي تحرك ارادتك بسهولة أكثر نحو هذه الرغبة الوحيدة، في كل أمر، أعني كي ترضي الله وتعمل لمجده فقط، ذكّر نفسك على الدوام أنه قد اغدق عليك هبات كثيرة في الماضي، وأنه اعلن لك حبه. فقد خلقك من العدم على صورته ومثاله، وجعل كل خليقته في خدمتك. لقد نجّاك من عبوديتك للشر، فهو لم يرسل لك أحد ملائكته، بل ابنه الوحيد، ليفتديك، لا بثمن فاسد من ذهب أو فضة، بل بدمه وموته المهين الأكثر ألماً. وبعد كل هذا، فهو يحميك في كل ساعة ولحظة، من أعدائك. ويحارب معك، في حروبك، بنعمته الإلهية. وفي أسراره الطاهرة، يعد لك جسد ودم ابنه الحبيب طعاماً وحماية.

وكل هذا علامة على احسان الله العظيم ومحبته لك. انه احسان عظيم إلى حد أنه غير مدرك، اذ كيف أن رب القوات العظيم يهب احسانات كهذه، لحقارتنا وعدم استحقاقنا. فاحكمْ من هذا، أي شرف وتكريس ينبغي أن نقدم لعظمته التي لا تحد، فقد عمل كل هذا من أجلنا. فإن كنا نعجز عن تقديم الشكر والشرف والمجد والطاعة إلى ملوك أرضيين لقاء احساناتهم، فكم بالأحرى وبالأكثر ينبغي علينا نحن غير المستحقين، أن نقدم إلى عظمة رب القوات الذي يحبنا ويهبنا احسانات لا تحصى.

وفوق كل ما قيل، لا تنسى أن عظمة الله جديرة في ذاتها، بكل شرف، وعبادة، وخدمة من كل القلب، ومقبولة لديه.

الفصل الثاني عشر

في الرغبات الكثيرة والشهوات التي في الإنسان والحرب التي بينها

اعلم انه في الحرب (الروحية) هذه، هناك ارادتان تتصارعان فينا: الأولى تنتمي إلى القسم العقلي من النفس، لهذا تسمى الارادة العاقلة، وهي الأسمى. والثانية تنتمي إلى القسم الحسي، فتعرف باسم الارادة الحسية، وهي الأدنى، وكثيراً ما يطلق عليها اسم: البهيمية، الجسدية، ارادة الأهواء. الارادة السامية (العاقلة) لا تطلب سوى الخير. أما الأدنى، غير العاقلة، فتطلب الشر فقط. وكل منهما يحدث على قدم وساق من تلقاء ذاته. لا أحد منهما هو رغبة خيّرة في حد ذاته، فيعتبر خيراً. ولا رغبة شريرة، فيعتبر شراً. فالتقويم يعتمد على ميل الارادة الحرة التي فينا. فعندما تنزع ارادتنا نحو رغبة صالحة، تكون لخيرنا ومصلحتنا. لكن عندما نميل إلى رغبة شريرة، تكون ارادتنا ضدنا. كلتا الرغبتان يتبعان أحدهما الآخر. وعندما يكون هناك رغبة صالحة، للحال تعاكسها رغبة شريرة. وعندما يكون هناك رغبة شريرة، للحال تبرز ازاءها رغبة صالحة. وارادتنا حرة أن تتبع أيّاً تشاء منهما. فالرغبة التي إليها تنزع ارادتنا، تصبح غالبة في هذه الحالة. في هذا تكمن كل حربنا الروحية غير المنظورة. وهدفها أن لا ننزع نحو الرغبة الأدنى، الجسدية، وارادة الأهواء، إنما أن نتبع الارادة العاقلة والأسمى فقط. ارادة الله هي أن نتبع ما هو ناموس أساسي لوجودنا: «اتق الله واحفظ وصاياه، فهذا هو الإنسان كله» (جامعة ١٢). كل من هاتين الرغبتين يجتذب ارادتنا إلى ذاته، رغبة في اخضاعها. فأطفئ السفلى

(الأدنى) متجهاً نحو الأسمى، فيكون الظفر من نصيبك. أما إذا أهملت الأسمى واخترت الأدنى، فإنك ستجد نفسك مهزوماً. والرسول بولس يعبّر عن هذا بقوله: «إذاً أجد الناموس لي حينما أرغب أن أفعل الحسنى، أن الشر حاضر عندي. فإني أسر بناموس الله بحسب الإنسان الباطن ولكني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني فيستعبدني إلى ناموس الخطيئة الكائن في أعضائي» (رو ٧: ٢١ - ٢٣). لقد أعطى الجميع قاعدة: «اسلكوا بالروح، فلا تكمّلوا شهوة الجسد» (غلاطية ٥: ١٦). إن هذا لا يتحقق بدون جهاد ضد الجسد.

إن جهداً شاقاً وتعباً مضنياً لا بد أن يختبره - بادئ ذي بدء - أولئك الذين عزموا على تغيير سيرتهم الجسدية الدنيوية إلى أخرى بارة، فأعدّوا ذواتهم بالكامل إلى محبة الله وخدمته بإخلاص، فقد سبق أن قيّدوا أنفسهم بعادات شريرة، لإرضاء رغباتهم الجسدية وارادة الشهوات.

ورغم رغبتهم في اتباع متطلبات الارادة العاقلة، التي تقف بإزاء ارادتهم الحرة يعززها الله، إلاّ أن الرغبات الجسدية والارادة الشهوانية تقف بإزائهم وما تزال تشدّهم وتجتذبهم. وإذ تعاكس الرغبات اللاحقة، تلك السابقة، فإنها تجتذبها إلى جهتها بنفس القوة، كما يجتذب اللجام حيواناً يجر حمولة. نعمة الله وحدها هي التي تزودها بالقوة لتبقى ثابتة على القرار الذي اتخذته. وبالمقاومة الطويلة، وعدم اعطاء الأهواء فرصة للفوز، تخور قوة الرغبات الجسدية. إلاّ أن هذا لا ينهي الجهاد.

فلا يحلمنّ أحد باكتساب استعداد مسيحي حقيقي، أو بفضيلة، أو بعمل الهي، كما يجب، إلا إذا أرغم نفسه على نبذ الدوافع الشهوانية في ارادة الجسد، والفوز عليها، كبيرة كانت أم صغيرة، والتي سبق أن ألف اشباعها وارضاءها، طوعاً وبلهفة. ان السبب الرئيس في أن أناساً قليلين يبلغون الكمال المسيحي التام، هو تردّد سواد الناس، - اشفاقاً منهم على ذواتهم - في الزام أنفسهم على نكران الذات، بالمطلق، في كل

شيء. فإذا حدث أن غلبوا الميول الشهوانية الكبرى، دون أن يرغبوا في الـزام نفوسهم عـلى الانتصار في الصغـرى، التي تبدو قليلة الأهميـة، عندها، فالميول الصغيرة هذه، والتي هي ثمرة الكبرى والمعبّر عنها، فإنهم بالانغماس فيها، إنما يغذّون اللاحقة، فيجعلونها تستمر وتعيش وتفعل في القلب، رغم أنها في الواقع لا تظهر على نطاق واسع. وهكذا يظل القلب شهوانياً وغير نقي، وفوق كل شيء، غير حر من جهة التساهل والاشفاق على الذات. ومن شأن هذا أن يعطّل كل تقدم يبغي ارضاء الله.

ثمة أناس، على سبيل المثال، يمتنعون عن الاستيلاء على مقتنيات الآخرين، إلا أنهم متمسكون بإفراط بما لهم، ويثقون كثيراً بما عندهم، ومن الناحية الثانية بطيئون في الصدقة والإحسان. وهناك آخـرون لا يبحثون عن الكرامة بطرق شريرة، إلا أنهم لا يعتبرونها كلا شيء، بل يرحبون بها إذا بدت (الكرامات) وكأنها ضد ارادتهم. آخرون يمارسون أصواماً طويلة حسب الفروض، إلاّ أنهم لا يمتنعون عن ارضاء شهوة الأكل حتى الشبع (حتى الامتلاء)، فيأكلون جيداً، الأمر الـذي يجرّد صومهم من كل قيمة. آخرون يحيون حياة العفة والطهـارة، إلا أنهم يستمرون في اتصالاتهم وعلاقتهم بمن يحبون، فيستمتعون بها غير راغبين أن يفهموا أنهم بهذا يقيمون حائلاً أمام الكمال في الحياة الروحية والاتحاد بالله.

سأضيف إلى هذا، الحقيقة التالية، وهي أن بعض الناس يهملون النواقص الطبيعية التي في شخصيتهم، والتي رغم اعتمادها على مشيئتهم الذاتية، إلاّ أن من شأنها أن تجعل المرء يشعر بالذنب إذا أدرك مقـدار تداخلها مع الحياة الروحية، فلا يحرك ساكناً، ليس فقط من أجل ابادتها بالكلية. إلا أنه لا يحاول أيضاً أن يبقيها ضمن حدودها التي لا تؤذي، رغم أنه يستطيع بلوغ ذلك بمعونة الله، وحسب انتباهه إلى ذاته، وحماسته. مثال على هذه النواقص: الترفع (الزهو)، حدة الطبع، الحساسية المفرطة ومـا يليها من كلمات وحـركات وأفعـال تخلو من التفكير. الخشـونـة،

والجفاء، العناد والمشاكسة، والتشبث بالرأي، وسواها . . . فهذه النواقص الطبيعية والأخطاء، ينبغي اصلاحها وتصحيحها. في البعض، بتخفيف الافراط. وفي البعض الآخر، بزيادة ما نَقُص وقلّ، كي يتحوّل الامران معاً إلى صفات صالحة خيّرة. فليس ثمة صفة طبيعية ـ بصرف النظر عن مقدار وحشيتها وفظاظتها، وعنادها، يمكنها أن تصمد أمام الارادة المتسلّحة بنعمة الله، والتي تقاوم بكل يقظة واجتهاد.

ويحدث أن يتمم البعض أعمالاً صالحة، إلا أنها تبقى ناقصة، عرجاء، ممزوجة بالشهوات التي تسود في العالم هذا (١ يو ٢ : ١٦). وأمثال هؤلاء لا يحرزون أي تقدم في طريق الخلاص. بل يدورون ويدورون حول نقطة واحدة، وكثيرون ما ينكفئون ليسقطوا من جديد في خطاياهم السالفة. وهذا يظهر أن محبتهم للحياة الحقيقية، في المسيح، لم تكن من البداية من كل القلب، فلم يمتلؤا كفاية من الشعور بالامتنان لله، الذي سبق أن أنقذهم من بطش الشيطان وقوته. فلم يكونوا كاملين في عزيمتهم وقرارهم، للعمل له فقط، بغية ارضائه. ونتيجة لذلك، يبقى أمثال هؤلاء غير مدرّبين في الخير، عمياناً، يخفقون في معاينة الخطر المحدق بهم، كونهم يتوهمون أن موقعهم راسخ وأمين، وإن الضرر لا يتهددهم.

لهذا، يا أخي وحبيبي في الرب، أتوسل إليك أن تحب التعب المضني، والأحمال الثقيلة التي سترافق هذه ا لحرب ـ الروحية ـ لا محالة، إذا كنت ترغب في النصرة. وحكمة سيراخ تقول: «لا تمقت الأعمال المتعبة» (سيراخ ٧ : ١٥)، ففي هذا يكمن كل شيء. فكلما ازداد حبك للعمل المتعب، ولهذه القيادة التي لا شفقة فيها على النفس، ازدادت نصرتك على نفسك، وعلى ما هو في نفسك، في مقاومة للخير الأسمى، سرعة وكمالاً. بهذ! ستمتلئ من كل فضيلة ومن كل استعداد حسن، فيأتي سلام الله ليحل عليك.

هذا الفصل مهم :

الفصل الثالث عشر

في كيف تحارب ضد الارادة الحسية البهيمية، وفي الضروري من التدريب كي تكتسب الارادة خبرة في الفضائل

في كل وقت تقع ارادتك الحرة تحت وطأة الارادة الحسية البهيمية، من جهة، وتحت ارادة الله التي ينطق بها الضمير، من جهة ثانية، فكل من الارادتين يَبغي ضم ارادتنا إليه. وينبغي، ان كنت جاداً في الفوز بالخير، أن تستخدم طرقاً مناسبة، من جهتك، كي تساعد مشيئة الله على فوزك بالنصرة. وكي تصل إلى مبتغاك، عليك بالأمور التالية:

١ ـ عندما تشعر بضغط الأدنى، أعني الارادة الحسية الشهوانية، عليك تواً أن تبذل كل جهد لتقاومه، فلا تسمح لإرادتك بالنزوع إلى الحسيات ولو قليلاً. اسحقها، وقطّعها ارباً ارباً. أبعدها عن نفسك بجهد متين ومكثف.

٢ ـ ولبلوغ مأربك بنجاح وبأفضل نتيجة، عجّلْ إلى اضرام نار اشمئزاز من كل القلب، تجاه مثل هذه الضغوطات، كما لو أنها تجاه أعدائك الراغبين في نهب نفسك لتدميرها. اغضب عليهم.

٣ ـ في الوقت نفسه، لا تنسى أن تحتكم إلى ربنا يسوع المسيح معيننا في كل جهد. اسأله طالباً عونه وحمايته كي تتقوى ارادتك، إذ بدونه لا يمكننا الفلاح في شيء.

٤ ـ وإذا ما أجريت هذه الأمور الداخلية الثلاثة بجد واخلاص، فإنها لن تخفق في منحك النصرة على الضغوطات الشريرة. إلا أن هذا يعني إبعاد الأعداء عنك فقط. أما إذا رغبت في أن توجّه لها ضربة

في الصميم، فعجّل حالاً، وقم بأمر يعاكس إيحاء الضغط الشهواني. وإن أمكن، بادر إلى القيام بالأمر نفسه على الدوام. وهذه الأخيرة ستحررك في النهاية بالكامل، من معاودة الهجمات التي تعرفها في الخبرة. سوف أوضح ذلك بمثال. افترض أن أحداً أساء إليك في شيء، كبيراً كان صغيراً، فأثار ذلك في نفسك حالة من الضيق والتأثر، مقرونة بفكر يحث على الرد بالمثل. إنتبه لنفسك، وتيقّن أن هذه الحركات كانت من أجل حثّك على فعل الشر. عندها اتخذ موقف المحارب، واعمل بما يلي:

١ ـ أوقف هذه الحركات، ولا تدعها تنفذ إلى عمق أكبر. لا تسمح لارادتك أن تماشيها كما لو كانت حركات صائبة وصحيحة. وهذا يعني أن تقاومها.

٢ ـ إلا أنها تحت النظر، مستعدة لهجوم جديد. لذا ما عليك إلا أن تعلن غضبك عليها، كما لو كان ضد أعدائك، فتقي نفسك منها، حتى تتمكن أن تقول بإخلاص:
«ابغضت الكذب وكرهته، أما شريعتك فأحببت» (مزمور ١١٩ : ١٦٣). أو:
«بغضاً كاملاً أبغضتهم، صاروا لي أعداء» (مزمور ١٣٩ : ٢٢). هذه ستكون صفعة لهم، فيتراجعون، دون أن يتلاشوا. بعد هذا:

٣ ـ عجّل إلى دعاء الرب: «اللهم بادر إلى معونتي يا رب اسرع الى اغاثتي. . .» (مزمور ٧٠ ـ ١). ولا تكف عن الدعاء هكذا، حتى يزول كل أثر للحركات الشريرة، وتستعيد نفسُك سلامها.

٤ ـ بعد استعادة السلام، اصنع احساناً لمن اساء إليك، مظهراً محبتك له بكلمة ودودة، أو معروف يمليه الظرف، وما إلى ذلك. فهذا يعني أنك تتبع نصيحة داوود: «حد عن الشر واصنع الخير» (مزمور ٣٤ : ١٤). ان أعمالاً كهذه، من شأنها أن تقودك مباشرة إلى اكتساب الفضيلة بإزاء الحركات الشهوانية التي أزعجتك وضايقتك. واعتياد هذه الفضيلة، من شأنه أن يضرب الشهوات في

الصميم ويمحقها. جاهد كي ترفق هذه الأعمال بعزيمة داخلية من شأنها أن تجعل الضغوطات الشهوانية مستحيلة في المستقبل. وعلى سبيل المثال، اعتبر نفسك، كما ذكرت آنفاً، مستحقاً لكل اهانة، ورحّب بكل نوع من المذمة والتعيير. رحّب بها وكن مستعداً لقبولها بفرح، على أنها الدواء الناجع. في أحوال أخرى، جاهد كي توطّد في نفسك مشاعر واستعدادات مماثلة. ان هذا يعني طرد الهوى من قلبك، واستبداله بفضيلة مضادة له. هذه هي غاية الحرب الروحية غير المنظورة. سوف أقدم لك بياناً عاماً يلائم كل الظروف، وحسب ارشاد الآباء القديسين: في نفوسنا ثلاث قوى: العاقلة، الشهوانية، الغضبية. وبداعي مرضها وفسادها[1]، تولّد أنواع مماثلة من الأفكار الخاطئة والحركات الرديئة. القوى العاقلة تولّد أفكار نكران الجميل لله، مع تأفف وشكوى ونسيان الله، وجهل للأمور الإلهية، وأحكام مريضة وكل أنواع أفكار التجديف. أما القوى الشهوانية فتولّد أفكاراً محبة للذة، وأفكار المجد الفارغ، وحب المال، وكل متفرعاتها الكثيرة التي تندرج في نطاق التساهل مع الذات. أما القوى الشهوانية فتولّد أفكار الغضب، الكراهية، الحسد، الانتقام، الفظاظة، وخنوع الإرادة، وعلى العموم كل الأفكار الشريرة. وعليك أن تهزم كل هذه الأفكار (logismos) والضغوطات، بالطرق السابق ذكرها، فتجاهد في كل ظرف، كي توطّد في قلبك مشاعر حسنة واستعدادات تعاكس إيحاء الأفكار. فبدل الشك، إيمان بالله لا ريبة فيه. بدل التأفف، شكر خالص لله على كل شيء. بدل النسيان، تذكّر عميق ودائم لله الكلي القدرة والحاضر في كل آن. بدل الجهل، تأمل جلي أو فحص داخلي لكل الحقائق المسيحية المنقذة للنفس. بدل الأحكام المريضة، ملكات وقدرات مدرّبة على التمييز بين الخير والشر. بدل أفكار التجديف، تمجيد وتسبيح لله. وفي السياق ذاته، فبدل محبة اللذة، كل أشكال التعفف والصوم وتهذيب الذات. بدل المجد

(١) راجع باب الفكر، في «اليقظة والصلاة».

الفارغ، التواضع والرغبة في الاحتجاب والتخفّي (obscurity). بدل محبة المال، الرضى بالقليل، ومحبة الفقر (متى ٥: ٣)، (متى ٦: ١٩)، (متى ٦: ٢٤ - ٢٥). وأيضاً، بدل الغضب، الوداعة. وبدل الكراهية، المحبة. بدل الحسد، الفرح مع الآخرين. بدل الانتقام، المسامحة والمسالمة. بدل الرعونة، الرأفة. وبدل الارادة المريضة، الرغبة الممدوحة. باختصار، سألخّص كل هذا، مع القديس مكسيموس المعترف في الكلام التالي: زيّن قوتك العاقلة (تفكيرك) بيقظة دائمة بالله، بالصلاة ومعرفة الحقائق الإلهية والقوة الشهوانية، بنكران تام للذات، مع الإقلاع عن كل تساهل مع النفس. أما القوة الغضبية، فبالمحبة. وان فعلت هذا، فأنا أؤكد لك، إن نور ذهنك لن يخبو، ولن تجد الأفكار الشريرة سبيلاً إلى نفسك وقلبك. وإذا كنت جاداً في غرس الأفكار الصالحة، الاستعدادات الحسنة في قلبك، صباحاً ومساء وفي كل ساعات اليوم الأخرى، فلن تدنو منك الأعداء غير المنظورة، لأنك ستكون كضابط كبير (جنرال) يعد جنده على الدوام، ويستكمل جهوزيتهم للمعركة. والأعداء تعرف أن هجوماً على ضابط كهذا، هو أمر غير عملي.

ركّز انتباهك على النقطة الأخيرة، وأعني الأعمال التي تعاكس تلك التي تمليها الأفكار الشهوانية، وتهيئة المشاعر والاستعدادات المضادة للأهواء. بهذه الطريقة فقط، يمكنك أن تستأصل الأهواء من نفسك، لتبلغ وضعاً أكثر اماناً. وما دامت جذور الأهواء فيك، فإنها ستنمو وتتكاثر، وهكذا تحجب وجه الفضائل، وكثيراً ما تخفيها وتقصيها. في حالات كهذه، نكون في خطر الوقوع، في خطايانا السالفة من جديد، فنتلف كل ثمار أتعابنا.

لذا، فاعلم ان هذه الأخيرة يجب ممارستها، لا مرة واحدة فقط، بل مراراً، وعلى الدوام، إلى أن تسحق وتتلف العادة الشهوانية التي جهادك ضدها. فهذه العادة قد قويت على قلبك عبر تكرار بعض

الأعمال التي ترضي الهوى الساكن في القلب. ومعارضة هذا الهوى في القلب، لا تكفي، لإضعاف قوته وسحقها. إنما يجب أن تحتكم إلى أفعال معاكسة لتلك السابقة، تكون ضد الهوى، كي تسحقه وتحطمه. الإحتكام الدائم سيقصي العادة الشهوانية، ويقتل الهوى الذي يحرّضها، فيغرس في القلب فضيلة مضادة له، وعادةً تقوم على أمور مماثلة. علاوة على ذلك، - ولن أهدر الكثير من الكلام في هذا - فالأمر جلي، إلاّ أن اكتساب عادات حميدة حسنة، يستوجب القيام بعدد أكبر من الأفعال الصحيحة الحسنة، يفوق عدد الأفعال الشريرة المطلوبة لإحلال عادات رديئة. فالعادات الرديئة تتجذّر بسهولة أكبر، بفعل مساندة الخطيئة الساكنة فينا، وأعني التساهل مع النفس. لذا فإن بدت لك أعمال كهذه قاسية وصعبة، من جهة معاكسة أهوائك، فإرادتك من أجل الخير ما تزال ضعيفة، بفعل مقاومة ارادتك المريضة الشهوانية، إلا أنه يتوجب عليك ألاّ تهملها وتقلع عنها، بل أن تلزم ذاتك بكل الطرق، لممارستها على الدوام، مهما بدت لك ناقصة في البداية. وهذا من شأنه أن يدعم ثباتك وشجاعتك في القتال، فيمهّد السبيل إلى الغلبة.

سأضيف شيئاً آخر: تيقّظ واجمع انتباهك داخل ذاتك. حارب بشجاعة. حارب ليس فقط فعل المثيرات القوية والكبيرة، بل الضعيفة والصغيرة التي من أهوائك. فالأمور الصغيرة تمهّد السبيل إلى الكبيرة، لا سيما عندما تصبح عادة. والخبرة أثبتت، مرات كثيرة، أنه عندما يتقاعس الإنسان أمام الرغبات الشهوانية الصغيرة في القلب، - بعد أن يكون قد غلب الكبيرة - فإنه يتعرض لهجمات مفاجئة غير متوقعة، من العدو، تكون عنيفة للغاية، لدرجة أنه لا يستطيع الثبات في المعركة، فيكون سقوطه أشد ايلاماً من ذي قبل. إضافة إلى ذلك، أود أن أذّكرك أنه عليك أن تقطع وتقتل كل صلة شهوانية بالأشياء غير الضرورية، لمجرد أن تلاحظ أنها تضعف من قوة ارادتك نحو الخير، وتشتّت انتباهك، وتشيع الاضطراب في الترتيب الحسن الذي أرسيت دعائمه في حياتك، رغم أنها أشياء مسموح بها. وإليك المثال على ذلك: التجول (النزهات)

الحفلات الليلية، المحادثات، المخالطات، والمعارف الجديدة (acquaintances)، وجبات الطعام، النوم، وأمور أخرى مماثلة، فإنك ستجني نفعاً كبيراً من هذا، بترويض ذاتك على ضبط النفس في الأمور الأخرى أيضاً. ستصبح أكثر قوة وخبرة في الجهاد ضد التجارب، فتتحاشى فخاخاً كثيرة ينصبها لك الشرير، فهو يعرف كيف يبسطها في هذه الدروب السليمة. وأؤكد لك بأن أعمالك وأفعالك ستنال حظوة عند الرب.

لذا، يا عزيزي، إذا رغبت في أن تتبع نصيحتي وتأخذ على عاتقك مهاماً مقدسة كهذه، بكل يقظة وانتباه، فثق أنك في مدة قصيرة ستبلغ مرامك، فتصبح روحياً حقيقيةً وفعلاً، بدل أن تكون مخدوعاً، فتكون روحياً في الاسم فقط. واعلم أن معاكستك لنفسك، وضبطها، هو ناموس لا يتبدّل، ويتطلب عدم ارضاء الذات حتى في شؤون الحياة الروحية، لأن مثل هذا الارضاء - حتى ولو بدا جزءاً من الترتيب الروحي - سرعان ما يتلف عملك. فأنت تعمل، إلا أنك بدل أن تقطف ثمرة حقيقية، ستجني زهرة عقيمة، ولن تكون راسخاً ثابتاً في أي شأن روحي. سيبدو لك أنك تجني أمراً روحياً، لكنه ليس في الواقع هكذا. فالأشياء الروحية بحقٍ، هي من نعمة الروح القدس التي تنسكب فقط على الذين صلبوا أنفسهم بالآلام والحرمانات الطوعية، دونما شفقة على الذات، فاتّحدوا بربنا ومخلصنا المصلوب من أجلهم.

الفصل الرابع عشر

ماذا تفعل ان أظهر العدو أن الارادة السامية خاضعة بالكلية لارادة الأدنى

إذا أحسست أحياناً بمثل هذه الانتفاضة القوية من الخطيئة، لدرجة أن مقاومتها تبدو مستحيلة، والحماس الذي به تعاكسها، قد بدا واهناً، فاحذر يا أخي في أن تكف عن الجهاد. إنما انهض واثبت. فهذا من حيل العدو الذي يوهمك أن المقاومة لا تجدي، فيزعزع بذلك ثباتك، ويحثك على رمي سلاحك فترضخ له وتستسلم. أما أنت فدع ذهنك يرى حيلة العدو بوضوح. لا تعطيه ذريعة. لأنه طالما أن ارادتك لم تنزع نحو هذا المحرّض الشهواني، فأنت ما تزال في عداد المنتصرين الذين يحاربون العدو ويسحقونه، حتى ولو كانت عاطفتك تميل إلى جهة الهوى. لا شيء، ولا أحد، يمكنه أن يرغم ارادتك، أو ينتزع الظفر من بين يديك فيقودك ضد ارادتك، مهما كان ذلك عنيداً ومريراً، ومهما كانت الحرب التي يشنها عليك أعداء خلاصك، فالله قد زوّد ارادتنا الحرة بقوة (كهذه) مكينة، حتى انه لو قامت كل ملكات الإنسان والعالم والشياطين ضدها، وهاجمتها، فإنها لا تقوى على إلزامها بشيء. فالإرادة حرة على الدوام في أن تقبل ما يقدمه هؤلاء ويطلبونه منها، أو أن ترفضه، إذا كانت لا ترغب به. من الناحية الثانية، ولهذا السبب عينه، تحمل ارادة الانسان مسؤولية كل شيء، وستقف كي تدان. تذكّر هذا جيداً: لا عذر لك ـ مهما شعرت أنك ضعيف ومرهق ـ لدى نزوعك نحو الفكر الشهواني. ضميرك سيُسمعك الأمر نفسه. فكلما قويت الهجمات، كلما

وجب عليك أن تُعد مقاومة أقوى. لا تهمل هذه العزيمة، بل ردّد على الدوام كلمات أحد قادة حربنا: «اسهروا، اثبتوا... كونوا رجالاً، تقووا...» (١ كور ١٦: ١٣). وإذ تحافظ على صلابة ارادتك أمام نهوض الخطيئة، فتنزع إلى جهة الارادة السامية، عجّل إلى استخدام أسلحتك الروحية، الواحد تلو الآخر، وأقواها الصلاة. اجعلها بمثابة نَفَسِك قائلاً: «الرب نوري وخلاصي ممن أخاف. الرب حصن حياتي ممن أجزع. ان قام علي جيش لا يجزع قلبي. ان قامت علي حروب، ففي ذلك أنا مطمئن» (مزمور ٢٧: ١ - ٣). «أنا على قوسي لا أتكل، وسيفي لا يخلصني. بالله فخرنا طول النهار، واسمه نحمد إلى الدهر» (مزمور ٤٤: ٦ - ٨). لا تخافوا ولا ترهبوا، قدّسوا رب الجنود، فهو خوفكم ورهبتكم ويكون مقدساً...» (اشعيا ٨: ١٢ - ١٤، ٩، ١٠). وعندما تنتعش نفسك، افعل كما يفعل المحارب في الحرب الطبيعية عندما تهاجمه الأعداء: انه يتراجع بعض الشيء، وذلك ليجد موقعاً أفضل يتمكن منه أن يرى بوضوح الشكل الأفضل لتسديد سهمه إلى قلب العدو. وأنت أيضاً اجمع أفكارك في الداخل، واسترجع شعورك بأنك عدم، وعجزك عن القيام بمفردك، بما يتطلبه الظرف الراهن. تضرّع إلى الله الذي كل شيء ممكن ومستطاع لديه، داعياً إياه إلى العون ضد هجوم الأهواء بدفء وثقة ودموع، قائلاً: «قم عوناً لنا، وافدنا من أجل رحمتك» (مزمور ٤٤: ٢٦). قاتل (يا يسوع) الذين يقاتلونني. استل ترساً ومجناً وبادر إلى معونتي... ليخجل ويخزى الذين يطلبون نفسي، ليخز إلى الوراء المتقاولون علي بالسوء» (مزمور ٣٥: ١ - ٢ - ٤). «أيتها العذراء القديسة، اسبلي علي ظلك السريع المعونة». يا ملاكي الحارس، احفظني بستر أجنحتك أمام سهام العدو، وبسيفك اسحقهم وأبعدهم عني. واظبْ على هذه التضرعات، فيأتيك العون على عجل. وفي الوقت نفسه تيقّظ في نفسك. أن العدو يدرك قوة مثل هذه التضرعات إلى الله، فيسرع إلى تشويشها واتلافها (افسادها)، بإثارة التأفف غير المعقول، والعديم النفع، ضد الله الذي سمح للعدو بمثل هذه الهجمات، وجعلك عرضة لخطر السقوط. بهذه الطريقة يسعى

العدو إلى منعك، أو الحيلولة دون ابتهالك إلى الله وذلك ليجعلك غير جدير بمعونة الله. عندما تلاحظ مثل هذا الايحاء غير الإلهي، بادر إلى استرجاع اليقين الصادق والحق أن الله لا يجرِّب بالشرور، وهو نفسه لا يجرِّب أحداً، إلا أن الإنسان يجرَّب إذا انجذب وانخدع من شهوته (يعقوب ١ : ١٣ ـ ١٤). بعدها افحص بتدقيق، أفعالك السالفة، ومشاعرك، وأفكارك، فتجد أنها هي التي كانت السبب وراء تلك العاصفة الداخلية التي جعلتك في هذا الموقع الخطر. لقد افترى العدو ضد الله بستر نواقصك. أما أنت، فبالإيمان ينبغي أن تسلّم ببر الله. وبالتعقل، ألق عنك الستر الذي غطاك العدو به. عليك أن تلقي الملامة على نفسك، بداعي عدم يقظتك وتراخيك. تب معترفاً بخطيئتك الداخلية أمام الله، وعد من جديد إلى التضرعات التي ذكرت، فمن شأنها أن تعيد إليك معونة الله. والله مستعد على الدوام، إلى اعانتك ومؤازرتك، لا سيما في مثل هذه الظروف.

بعد هذا، وعندما تهدأ العاصفة الداخلية، ينبغي أن يستمر الجهاد بمقتضى القواعد العامة في الحرب الروحية (غير المنظورة)، والتي سبق ذكرها في موضع آخر.

الفصل الخامس عشر

ينبغي ان تستمر الحرب بلا انقطاع وبشجاعة

إن اردت يا اخي ان تفوز بنصرة سريعة وسهلة على اعدائك، بادر الى شن حرب دائمة وشجاعة ضد كل الاهواء، لا سيما ضد عشق الذات او التعلّق الأحمق المجنون بنفسك، والذي يتّضح بالتساهل مع النفس والاشفاق عليها. فهذه هي اساس ونبع كل الاهواء، ويستحيل ترويضها بدون آلام طوعية دائمة، وبدون ترحيب بالنوائب والحرمانات والافتراءات والاضطهادات الآتية من العالم، ومن اهل العالم. فالاشفاق على الذات، كان دائماً السبب وراء اخفاقنا في تحقيق الانتصارات الروحية، ووراء صعوبتها، وندرتها، ونقصانها، وزعزعتها. لذا ينبغي ان تكون حربنا الروحية ثابتة، وبدون توقّف. وينبغي ان تقترن بيقظة في النفس، مع شجاعة. وبلوغ هذه ممكن بسهولة، ان انت طلبتها من الله كهبات. لذلك، تقدّم الى المعركة بدون تردّد. واذا صادفتك افكار الكراهية والخبث المزعجة التي يعدّها الاعداء ضدك، واجناد الشياطين التي لا تحصى، فكّر من الناحية الثانية، بقوة الله التي هي اعظم منها بما لا يقاس، وأيضاً بمحبته له. كذلك فكّر بصلوات القديسين، فهؤلاء كلهم يحاربون سراً عنا ومعنا ضد اعدائنا، كما هو مكتوب: «للرب حرب مع عماليق من جيل الى جيل» (خروج ١٧ : ١٦). كم من نساء ضعيفات، واطفال صغار تأهّبوا للجهاد حينما فكّروا بهذه المعونة القوية والحاضرة دائماً، فتشدّدوا وغلبوا كل حكمة العالم، وكل حيل العدو وكل مكر الجحيم. لا تجزع ان كان طغيان الافكار يضايقك ويوحي اليك بأن العدو قوي جداً، وان هجماته لا حدود لها، وان الحرب تطول بطول

زمن حياتك، وانك لا تقدر ان تتجنّب السقطات الدائمة من كل نوع. اعلمْ ان اعداءنا وكل حيلهم، هي في يدي رئيسنا الالهي ربنا يسوع المسيح الذي تحارب انت من اجل مجده وعظمته. هو نفسه يقودك إلى المعركة. وبالتأكيد لن يسمح لاعداءك باستخدام العنف ضدك وغلبتك، الا اذا كنتَ الى جانبهم بمحض ارادتك. هو نفسه سيقاتل عنك ويدفع اعداءك بين يديك متى شاء، وكيفما شاء كما هو مكتوب: «لأن الرب الهك يسير وسط المحلة كي ينقذك ويدفع اعداءك، ويؤجل ذلك الى آخر يوم من حياتك. فثق ان هذا لخيرك ومنفعتك ما دمت لم تتراجع او تكف عن الجهاد من كل قلبك. حتى ولو جُرحت في المعركة، لا تلق سلاحك وتهرب. اجعل في ذهنك امراً واحداً هو ان تجاهد بكل غيرة وشجاعة، فلا مفر من ذلك. لا يستطيع احد ان يفلت من هذه الحرب، سواء في الحياة ام في الموت. ومن لا يجاهد كي يغلب اهواءه واعداءه، سيسقط اسيراً لا محالة، سواء هنا ام هناك، ويسلّم للموت.

ومن النافع ايضاً ان تجعل في ذهنك مقاصد الله التي من اجلها يُسر ان نكون في حالة الحرب. ومقاصده هي التالي: في الايام الغابرة عندما قاد الله اسرائيل الى ارض الميعاد، لم يأمرهم بإفناء كل الشعوب الساكنة فيها، انما ترك خمس قبائل اجنبية معادية لاسرائيل، وذلك كي يبرهن الشعب المختار عن ثباته في الايمان به، وحفظ وصاياه. ثانياً، كي يعلّم شعبه فن القتال (قضاة ٢: ٢١ - ٢٣)، (٣: ١ - ٢). بنفس الطريقة، فان الله لا يسحق كل اهوائنا دفعة واحدة، بل يتركها فينا تحاربنا حتى موتنا، وذلك كي نبرهن عن محبتنا له وطاعتنا لمشيئته، ولكي يدرّبنا على الحرب الروحية. وثيودوريتس المغبوط، يعالج هذا الأمر بالتفصيل فيقول: الله يسمح بذلك للمقاصد التالية:

١ - كي يقينا من السقوط في الكسل والتواني، ويجعلنا يقظين ومجتهدين وصحاة.

٢ - كي يذكّرنا ان العدو مستعد على الدوام ان يهاجمنا لئلا نجد انفسنا على غير توقّع محاطين بالعدو ومغلوبين من الاهواء.

٣ - كي نسعى الى الله على الدوام، راجين معونته.
٤ - كي لا نتكبر بل نفكّر في ذواتنا باتضاع.
٥ - كي نتعلّم ان نمقت اهواءنا واعداءنا - الذين يهاجموننا بلا هوادة - من كل القلب.
٦ - كي نبرهن عن تمسّكنا بمجد الله ومحبته والايمان به الى النهاية.
٧ - كي يحثّنا على حفظٍ ادق لوصايا الله، فلا نهمل اصغرها.
٨ - كي نتعلّم بالخبرة قيمة الفضيلة العظيمة، فلا نحيد عنها ونقع في الخطيئة.
٩ - كي تعطينا الحرب الدائمة امكانية الفوز بإكليل اعظم.
١٠ - كي نمجد الله ونخجل الشرير بصبرنا الى النهاية.
١١ - كي نعتاد الحرب ونألفها في حياتنا، فلا نجزع ساعة الاحتضار، حينما نواجه اشد الهجمات قساوة.

وما دمنا محاصرين على الدوام بأعداد كبيرة من الاعداء، كراهيتهم لنا شديدة المرارة، فلا يمكن ان نتوقّع منهم اية مسالمة او تأجيل اووقف للهجمات. بل ينبغي ان نكون على اهبة الاستعداد في كل آن، حتى انها متى حلّت بنا، نصدها على الفور، بشجاعة. ومن الافضل طبعاً، ان لا نفتح على انفسنا منافذ ينسلّ منها الاعداء والاهواء الى قلوبنا ونفوسنا. لكن طالما سبق ان وجدت سبيلها الينا، فلا يسعنا ان نتراخى، بل يجب ان نتسلّح ضدها كي نطردها. انها عنيدة ولا تخجل، ولا تدعنا، الا اذا طردناها بالقوة.

الفصل السادس عشر

في كيف يستعد جندي المسيح للمعركة في الصباح

ما أن تستيقظ في الصباح، بادر الى الصلاة لبرهة قائلاً: «ايها الرب يسوع المسيح ارحمني». بعدها ليكن عملك الاول ان تغلق على نفسك داخل قلبك، كما لو انك تتخذ موقعاً للقتال في حلبة. وبعد ان تحصّن نفسك هناك، اجعلها تعي وتحس، ان عدوك، والرغبة الشهوانية التي جهادك ضدها، في تلك اللحظة، هي هناك، عن يسارك، متحفّزة لهجوم فوري مباغت. لذا انهض في وجهها بعزم ثابت، كي تهزمها او تموت، لكن لا تستسلم. وتيقّن ايضاً ان هناك، عن يمينك، يقف على نحو غير مرئي، رئيسك، ربنا يسوع المسيح، مع امه القديسة، ورهط من الملائكة القديسين ورئيسهم ميخائيل متأهّبين لمعونتك. لذا تشجّع وابتهج.

انظر، ها امير العالم السفلي - الشيطان - ينهض ضدك مع مجموعة من الشياطين. وقد شرع باضرام نار الغواية الشهوانية. ويحاول ان يقنعك بوعود مختلفة كي تشفق على نفسك، فتكف عن الجهاد ضد ذلك الهوى وترضخ له، مؤكداً لك ان الرضوخ والاذعان، هو افضل، واقل ازعاجاً. اما انت فحاذر وكن يقظاً. وفي نفس الوقت، ينبغي ان تحسن الاصغاء الى جهة اليمين، حيث ملاكك الحارس يقف منذراً اياك يلهمك بصوته، متكلماً بالنيابة عن كل من يقف عن يمينك وقائلاً: «انت الآن في مواجهة مع معركة هي ضد اهوائك وكل اعدائك الآخرين، فلا تجزع ولا تخف. لا تجعل الهلع سبباً للهرب من ميدان القتال. فرئيسنا،

ربنا يسوع المسيح، قريب منك تحيط به القوات والرؤساء وكل الجنود غير المتجسّدة وكل طغمة الملائكة القديسين، متأهّبين جميعاً للقتال الى جانبك ضد اعدائك، كي لا تنهزم كما هو الوعد: «الرب سيحارب عنك» (خروج ١٤: ١٤). فاثبت اذن، وألزمْ نفسك بعدم الاستسلام. جاهد بكل الوسائل الممكنة كي تصمد امام الامتحان الذي يداهمك، داعياً من اعماق قلبك: «لا تسلمني الى مشيئة اعدائي» (مزمور ٢٧: ١٢). تضرّع الى ربك والى العذراء القديسة وكل الملائكة والقديسين. العون سيأتي وأنت ستنتصر، لأنه مكتوب: «اكتب اليكم ايها الاحداث (الجنود الشجعان البواسل) فقد غلبتم الشرير» (١ يو ٢: ٣). وقد تكون ضعيفاً واسيراً لعادات سيئة، بينما اعداؤك اقوياء وكثيرون. الاّ ان معونتك اقوى، وتأتي من ذاك الذي أبدعك وافتداك. الله حاميك ولا شيء يضارعه في القتال، فقد كتب: «الرب القدير الجبار، الرب القوي في القتال» (مزمور ٢٤: ٨). علاوة على هذا، فرغبته في انقاذك تفوق رغبة اعدائك في هلاكك. لذا جاهد دونما كلل، في مشقّات هذه الحرب، فالنصرة تأتي بهذه المشقات، وبفعل اخضاعك لذاتك بالقوة، ودونما هوادة، للابتعاد عن العادات الرديئة رغم الألم. وهكذا، يكون لك كنز عظيم، وتقتني ملكوت السموات، وتتّحد نفسك بالله الى الابد.

كل صباح، ابدأ جهادك ضد الاعداء باسم الرب. وتسلّح بعدم الثِقة بالذات، وبرجاء متين بالله، وبصلاة، وعدم تساهل مع النفس، من اجل المشقات الضرورية والاعمال الروحية. وفوق كل شيء، تسلّح بصلاة الرب يسوع: «ايها الرب يسوع المسيح ارحمني.» اجعل هذه الصلاة في قلبك سيفاً ذا حدين. فهذا الاسم يزعج الشياطين والاهواء معاً، ويبعدها. لهذا السبب يقول القديس يوحنا السلمي: «اربط الاعداء باسم ربنا يسوع المسيح». سنتكلّم في فصل آخر عن هذه الصلاة. واكرر، ايضاً: بهذه الاسلحة اضرب ذلك العدو، وذلك الهوى، وذلك الميل الشرير الذي يهاجمك، كما بيّنت في الفصل الثالث عشر. عارض هواك اولاً. بعد ذلك امقته. وفي النهاية مارس الفضيلة

المضادة له في جو من الصلاة. واذا عملت هكذا، يكون نشاطك مرضياً لله الواقف الى جانبك مع الكنيسة الظافرة في السماء يرقب[1] جهادك.

هذه الجهادات شاقة للغاية ومتعبة. لكن لا تحزن، ولا تتوانَ في عملك. انما اجعل هذا نصب عينيك. واعمل كي ترضي الله، من جهة، ـ وكما قيل ـ فالحرب لا بد منها اذا اردنا الحياة. وما ان نتوقف عن الجهاد، فسرعان ما نسلّم للموت.

لا يضلّنّك العدو قائلاً: «جاري شهوتك، ولو لساعة. لكن تبصّر في ما ستصير اليه حالك لو ابتعدت حياتك عن الله، وسُلّمتْ ذاتك للعالم وملذاته وكل المتع الجسدية؟ ستكون بعيداً عن الله، وهذا امر رهيب، ولو لدقيقة واحدة. وهل ستكون هكذا لساعة فقط؟ أليس من المرجح ان تمر ساعة بعد اخرى وانت في حياة بعيدة عن الله، يليها يوم بعد يوم، وسنة بعد سنة؟ وماذا بعد كل هذا؟ حتى ولو اشفق الله عليك، فمنحك فرصة كي تعود الى نفسك، لتتحرر من فخ ابليس، وتنهض من كبوتك الرديئة، سيكون عليك ان تواجه المعركة التي هربت منها طمعاً في حياة سهلة، مع فارق واحد هو انها ستكون اكثر ضراوة، واكثر قساوة، واكثر الماً، الى جانب كونها اقل نجاحاً.

اما اذا تركك الله في ايدي اعدائك تخضع لمشورة نفسك، فماذا يكون؟ سوف لن اكرر الكلام ثانية، انما سأكتفي بالقول: تذكّر، ومن يجهل ذلك؟ ماذا سيكون بعد حياة ضائعة في متاهات الاهواء الرديئة، وبعد الاوقات التي استطيبتها في الحسيات، الا انها تفتقر الى الافراح الحقيقية؟ ستأتي ساعة الموت بغتة، وتكون النفس في حالة ألم وغم لا تستطيع كلمة الله ان تصورها إلاّ بالقول: «حينئذ يصرخون للجبال اسقطي علينا. . .» (رؤ ٦ : ١٦). ان هذه الصرخة تبدأ ساعة الموت، الا انها تدوم وتستمر بعده حتى نهاية العالم، الى حين الدينونة، ولكن عبثاً

(١) ظاهرة عرفناها مع القديس انطونيوس الكبير.

ودونما جدوى. لذا تعقّل كي لا تلقي ذاتك ـ بعلمك ومعـرفتك ـ في عذاب الجحيم الابدي. لا تهرب من الجهادات الوقتية ومشقات النسك الروحي. واذا كنت فهيماً لا بل نبيهاً، فخـير لك ان تحتمـل المشقات الوقتية، واتعاب الجهاد الروحي، كي تهزم اعداءك، وتنال الاكليل، فتتحد بالله هنا وثمة في ملكوت السماء.

الفصل السابع عشر

بأي ترتيب ينبغي ان تحارب اهواءك؟

من المفيد جداً يا اخي، ان تعرف جيداً بأي تـرتيب ينبغي ان تحارب اهواءك، وذلك كي يكون عملك على خير ما يرام، بدلاً من التخبّط عشوائياً كما يفعل البعض، دون ان يفلحوا، فكثيراً ما يلحقون الضرر بنفوسهم. والترتيب الذي به ينبغي ان تحارب اعداءك، فتجاهد ضد رغباتك الرديئة واهوائـك، هو التـالي: ادخل الى قلبـك بيقظة. وافحص بتدقيق، لتعرف في اية افكار واهواء وميول شهوانية ينشغل، على نحو خاص. واي هوى هو الاكثر تسلطاً وتحكّماً هناك. بعد هذا، تسلّح اولاً ضد الهوى، وجاهد كي تغلبه وتهزمه. ركّز كـل انتباهـك وعنايتك على هذا الهوى، الاّ عندما يحدث ان يبرز هوى آخر فيك. في مثل هذه الحالة، عليك ان تتعاطى مع الهوى الجديد بدون تأخير، كي تبعده عنك، وتعود بعد ذلك الى اسلحتك تحملها في وجه الهوى الرئيس الذي يثبت وجوده واقتداره دائماً. فكما في كل حرب، هكذا في الحرب غير المنظورة، ينبغي ان نحارب ما يهاجمنا في اللحظة الراهنة.

الفصل الثامن عشر

في كيف تحارب ضغوطات الاهواء المفاجئة

ان كنت يا عزيزي لم تألف بعد ان تغلب الضغوطات المفاجئة وفعل الاهواء التي تثور عليك، مثلاً: الاهانات او الصدامات. وانا انصحك ان تعمل على النحو التالي: اجعل ذلك قانوناً لك كل صباح، وانت ما تزال في البيت، بأن تستعرض في ذهنك كل المناسبات التي تصادفك في بحر النهار، سواء كانت ممدوحة ام مذمومة. تصوّر في ذهنك الضغوطات الشهوانية، والشهوات والاثارات التي تحركها ضدك. بعدها اعدد في نفسك، مسبقاً، كيفية اخمادها منذ بدايتها، دون ان تسمح لها بالنمو. وان فعلت هكذا، فلن تأخذك اي من حركات الاهواء، على حين غرة، انما ستكون دائم الاستعداد لمقاومتها. فلا الغضب يزعجك، ولا الشهوة تجعلك تضطرب.

ان استعراض ما قد يحدث، لا بد من ممارسته لا سيما لدى خروجك من البيت او زيارتك لأماكن تلتقي فيها اناساً كثيرين يجذبونك او يثيرونك. فإذا كنت مستعداً، تستطيع بسهولة ان تتحاشى الامرين معاً. واذا ظهرت موجات الهوى، فإنها ستعبر فوق رأسك او تتحطم عليك، كما على صخر، بدل ان تجرفك كما ينجرف القارب الخفيف. هوذا النبي الالهي داوود يقنعك بهذا، فقد سبق ان تكلم عن الغضب قائلاً: «اسرعت ولم اتوان في حفظ وصاياك» (مزمور ١١٩ : ٦٠). إلاّ ان هذا الاستعداد ليس في ذاته كل شيء. فإثارة الهوى ما تزال ممكنة ومفاجئة. في حالة كهذه اعمل على النحو التالي: ما ان تشعر بضغط

شهواني، سواء كان من شهوة او اثـارة، عجّل الى كبـح جماحـه بقوة الارادة، وانزل الى قلبك بيقظة ذهنك، محاولاً بشتى الطرق ان تحول دون انسلال الهوى الى قلبك. انتبه كي تمنع قلبك من ان يتأثر بما هو مثير، او ان ينجذب لما هو جذاب. وان حدث ان احد الامرين قد ولد في قلبك، فعجّل الى الحيلولة دون خروجه. ولا تعبّر عنه، سواء بنظرة او بكلمة، او بايماءة.

بالاضافة الى ذلك، ألزمْ ذهنك وقلبك كي يرتفعا الى الله، فوق. وحالما تسترجع صفاء ذهنك، وشعورك بمحبة الله اللامتناهية، وحقه غير المنحاز. حاول ان تطرح الشهوانية خارجاً، وتستبدلها بخير يعاكسها. فإذا كان الامر يتعلق بلقاء احد، قد يكون من الصعب القيام بكل هذا بنجاح وبالكامل. لكن رغم ذلك، لا تهمل نيتك الحسنة، انما حاول ان تفعل ما بوسعك. وان بدا جهدك عديم الجدوى والفائدة، فإنك ستبلغ الى مسعاك بعد انتهاء اللقاء الذي حرّك هواك. ولكن حذار ان تعلن الهوى الثائر فيك. وجهدك هذا، سوف يحول دون نموّه. وعندما تتحرر من تيار الخيالات الشريرة، بادر بالدخول الى قلبك، وجاهد كي تطرد الافعى التي وجدت طريقها الى قلبك.

ان خير وقاية فعّالة ضد اثارة الاهواء الفجائية، هي في التخلّص من الاسباب التي تولّدها. وهذه الاسباب هي فئتان: محبوبة وممقوتة. اذا كنت يا عزيزي متعلّقاً بشخص ما، وأسيراً لحبه، او على ارتبـاط بشيء ما، سواء كان كبيراً ام صغيراً، فمن الطبيعي - عندما تلتقيهم، او تراهم مهانين او متضررين، او ان احداً يريد ابعادهم عنك، وسرقتهم منك - ان تحزن وتثور وتضطرب، وتخاصم الذين يفعلون ذلـك. فإذا اردت ان تتحرر من هذه المعكّرات المفاجئة، احرص ان تتغلب على هذا الانجذاب وان تقتلعه من قلبك، فهو انجذاب خاطئ وتعلق مغلوط. فكلما استبد بك اكثر، فأنت بحاجة الى عناية اكثر كي يكون لك ذهن متزن. وهكذا تكتسب موقفاً معتدلاً من الاشياء ومن الناس. وكلما قوي الانجذاب او التعلق الشهواني، ازدادت حالات اثارتك المفاجئة كما بيّنتُ.

بنفس الطريقة، ان كنت تكنّ البغضاء لأحد، او كان في قلبك نفور من امر ما، فمن الطبيعي ان تثور فيك مشاعر الحنق والاشمئزاز عندما تصادفهم، لا سيما اذا سمعت احداً يمتدحهم. لذا فإن كنت ترغب في أن تحتفظ بسلام قلبك في مثل هذه الحالات، فحثّ نفسك على اخماد هذه المشاعر الرديئة، في هذه المناسبة. بعد ذلك اعمد الى ابادتها كلها. ويساعدك في ذلك، التفكير التالي: من جهة الناس، اعلم انهم خلائق الله مثلك، مخلوقين مثلك (كما انت)، على صورة الله ومثاله، بيد الله الحي القوية. وقد افتداهم واعاد تجديدهم، دم يسوع المسيح ربنا الذي لا يثمّن، وانهم اخوتك ايضاً وكلكم اعضاء (جسد المسيح)، ومن غير اللائق ان تمقتهم حتى بالفكر، كما هو مكتوب: «لا تبغض اخاك في قلبك» (لاويين ١٩ : ١٧). وعليك ان تتذكر هذا، حتى لو كنت تظن انهم يستحقون الكراهية والعداوة. فإن اظهرت لهم صداقة وحباً، فإنك بصنيعك هذا، تتشبّه بالله الذي يحب مخلوقاته ولا يزدريها كما يقول الحكيم سليمان في تمجيد الله: «لأنك تحب كل الكائنات. ولم ترذل اياً منها...» (حكمة سليمان ١١ : ٢٥). وبالرغم من خطايا الناس، فإنه يشرق شمسه على الاشرار والصالحين، ويمطر على الابرار والظالمين» (متى ٥ : ٤٥).



الفصل التاسع عشر

كيف تجاهد ضد الاهواء الجسدية

اعلم يا اخي ان الجهاد ضد الاهواء الجسدية، يختلف عنه ضد الاخرى غير الجسدية. فإن اردت ان تكون الامور على ما يرام، فاعلم ان هناك ما يجب ان تقوم به قبل ان تجرّب بهذه الاهواء. فما هو اثناء التجربة، يختلف عما هو بعدها. قبل التجربة، ينبغي ان يكون تركيز الانتباه على الاسباب التي منها تتولد التجربة في العادة، والتي من شأنها ان تثير الهوى وتحركه. والقاعدة هنا هي ان تستخدم كل الوسائل كي تتحاشى كل المناسبات التي تعكّر هدوء جسدك، لا سيما مقابلة الناس من الجنس الآخر. فإن اضطررت ان تتحدث الى احداهنّ، فلتكن المحادثة قصيرة ورصينة، مع شيء من عبوسة العفاف على محياك. لتكن كلماتك ودودة اخوية، محافظة، لا مندفعة. لا تثق بعدوك (جامعة ١٢ : ١٠) يقول الحكيم سيراخ. لا تثق بجسدك. فكما ان الحديد ينتج الصدأ من ذاته، هكذا طبيعة الجسد الفاسدة تنتج اثارات شريرة للشهوة: «فكما ان الحديد يتآكله الصدأ، هكذا يكون خبثه وشره» (جامعة ١٢ : ١٠). واكرر من جديد، لا تثق بنفسك من هذه الجهة. حتى ولو لم تشعر لفترة من الزمن بشوكة جسدك. لأن الخبيث المثلث اللعنة، كثيراً ما يحقق في ساعة او لحظة، ما عجز عنه في سنوات. ودائماً يعدّ للهجوم بصمت. فاعلم انه بمقدار ما يتظاهر الجسد انه يخطب ودّك ويصادقك، فلا يدع اي سبب للتشكك، فبقدر اكبر تكون الاذية التي يسببها، وكثيراً ما يقود الى الموت. ينبغي ان يحترس الجميع من مخالطة الجنس الآخر، الأمر الذي يعتبر خيراً في الحياة العامة، إما لأنهم اقرباء او لأنهم اتقياء

واهل فضيلة، او لأنهم اسدوا لك خدمة، فتجد نفسك ملزماً على التعبير عن العرفان بالجميل، على قدر المستطاع. عليك ان تتنبّه لهذا، فبدون الحذر والانتباه الى النفس، تمتزج هذه المخالطة عملياً، بالشهوة الحسية الرديئة، فتنسلّ الى النفس خلسة وحتى الاعماق، فيظلم الذهن، بحيث ان الانسان المصاب، كثيراً ما يبدأ بالتهاون مع اسباب الخطيئة الخطيرة، كالنظرة الشهوانية، والكلمات المعسولة من الطرفين، وحركات الغواية، واوضاع الجسد، وضغط الايدي. وفي النهاية يخضع للخطيئة ذاتها، ولحبائل الشرير الاخرى، التي كثيراً ما يعجز عن انتشال نفسه منها بالكلية.

لذا يا اخي، اهرب من هذه النار لأنك بارود. لا تتجرأ على التفكير، في زهوك وغرورك، انك بارود مبلل رطّبته مياه ارادة ثابتة وحسنة. لا لا، خير لك ان تفكر انك جاف كالجفاف، وانك ستشتعل لمجرد ملامسة اللهب. لا تثق بثبات عزيمتك، وفي عزمك على الموت من الاساءة لله بالخطيئة. اذ رغم ادعاءك بأن هذه العزيمة ستجعلك باروداً مبللاً، الا ان المخالطة الدائمة، والجلسات الانفرادية الخاصة، من شأنها ان تجفّف شيئاً فشيئاً رطوبة ارادتك الحسنة، بنار جسدية. وانت لن تلاحظ كيف اشتعلت بالحب الجسدي حتى هذا الحد. وهكذا لا تعود تخجل من الناس، ولا تخشى الله، وتزدري الشرف والكرامة، والحياة، وكل عذابات الجحيم، بشوقك الى ارتكاب الموبقات والخطايا. لذا تجنب بكل ما اوتيت من وسائل، الامور التالية:

١ - الاتصال بمن يمكن ان يكونوا تجربة لك، ان كنت تريد حقاً وباخلاص، أن تفر من أسر الخطيئة، بدفع ثمنها، وأعني موت النفس. الحكيم عند سليمان هو من يخاف اسباب الخطيئة ويتجنَّبها. اما الجاهل فهو من لا يتحاشى اسباب الخطيئة، كونه يثق بنفسه كثيراً.
«الحكيم يخشى الشر ويحيد عنه، اما الجاهل فيتصلّف ويثق بأفعاله» (امثال ١٤: ١٦). ألم يقل الرسول هذا، عندما نصح اهل

كورنثوس: «اهربوا من الزنى» (١ كور ٦: ١٨)؟

٢ ـ اهرب من الكسل والتراخي. تيقّظ وانتبه في كل شيء، مدققاً في افكارك عن كثب، ومدبراً نشاطك بحكمة وتعقّل، حسبما يملي عليك وضعك.

٣ ـ لا تخالف معلميك ومرشديك الروحيين، انما أطعهم برغبة، في كل شيء. نفّذ اوامرهم بسرعة واستعداد، لا سيما تلك التي تقدر ان تعلّمك التواضع، وتقودك ضد مشيئتك وميولك.

٤ ـ لا تسمح لنفسك، بوقاحةٍ، ان تدين قريبك. لا تحكم على احد، ولا تدن احداً، لا سيما في الخطايا الجسدية التي عنها كلامنا. وإن كان احد قد سقط فيها بوضوح، فأشفق عليه بعطف ومحبة. لا تحنق عليه، ولا تسخر منه، بل اجعل منه درساً لك في التواضع. تيقّن انك انت ايضاً ضعيف بالكلية، وتستطيع الخطيئة ان تحركك بسهولة كما يتحرك الغبار على الطريق. قل لنفسك: «هو سقط اليوم، وغداً اسقط انا». اعلم انك ان كنت سريعاً الى ملامة الآخرين واحتقارهم، فإن الله سيرسل اليك عقاباً مؤلماً، بحيث تسقط في الخطيئة التي تلوم الآخرين عليها «لا تدينوا لئلا تدانوا» (متى ٧: ١). سوف تنال العقوبة ذاتها، كي تتعلم منها مضرة كبريائك. اتّضع كي تشفى من شرّين: الكبرياء، والزنى. وان كان الله، لمراحمه، قد حماك من السقوط، وحفظك بدون دنس، فكفّ عن لوم الآخرين، ان كنت تلومهم. وبدل اعتمادك وثقتك بذاتك، خفْ بالحري، ولا تثق بثباتك نفسه.

٥ ـ تيقّظ لنفسك منتبهاً الى ذاتك. فإن كنت قد حصلت على هبة من الله، او وجدت نفسك في حالة روحية جيدة، فلا تقبل من خلال مجدك الفارغ، اوهاماً باطلة، ظاناً انك شيء. لا تتخيّل ان اعداءك لا يتجاسرون عل مهاجمتك، او أنك تبغضهم وتحتقرهم لدرجة انك تنفر منهم اذا ما تجاسروا على الدنو منك. فإن فكرت هكذا، ستسقط كما يسقط ورق الخريف من الشجرة. هذا ما يجب ان تعمله قبل ان تداهمك تجربة الشهوة الجسدية.

وفي وقت الشدة، اعمل على النحو التالي: بادر الى اكتشاف السبب الذي حرّك الهجوم، وأبعده للحال. قد يكون السبب إما خارجياً او داخلياً. أما الخارجية منها، فهي: نظرات غير رصينة، كلمات حلوة السمع، اغانٍ تبهج مسمعك بمحتواها او نغمتها، ملبوسات ناعمة وجميلة، روائح تسد الأنف، سلوك ومحادثات حرة (غير رصينة)، ملامسة الايدي، والضغط عليها، رقصات... وسواها. اما الشفاء من هذه فيكون بـ: ثوب بسيط ومتواضع، رغبة في عدم النظر او السمع او الشم او القول، او لمس اي شيء من شأنه ان يولّد هذا الضغط الشهواني، لا سيما مخالطة الناس من الجنس الآخر، كما سبق وذكرت. اما الاسباب الداخلية فهي: من جهة، راحة الجسد وهناؤه واسترخاؤه عندما يجد الجسد كفايته التامة من الشهوات والملذات. ومن جهة ثانية، الافكار المعابة التي إما انها تتولّد من تذكّر امور منظورة، مسموعة، او معروفة بالخبرة، او تلك التي تثيرها الارواح الشريرة.

اما الحياة في الراحة الجسدية والاسترخاء، فيمكن تقويتها بالاصوام والاسهار والنوم بعد سجدات ومطانيات كثيرة لإرهاق الجسد، وبكل الميتات الطوعية المتنوعة، في الجسد، كما ارشدنا اباؤنا القديسون الحكماء والمجرَّبون. اما الشفاء من الافكار، مهما كان مصدرها، فهو بالرياضات الروحية المختلفة، الملائمة للحالة الراهنة، والضرورة تمليها عليك. مثل: القراءة من الكتب المقدسة والكتب النافعة، لا سيما القديس افرام السرياني، ويوحنا السلمي والفيلوكاليا وسواها من مثيلاتها، مع تأملات وصلوات.

وعندما تبدأ الأفكار المعابة هجومها عليك، صلّ هكذا: ارفع ذهنك نحو الرب المصلوب عنا، وادعه من اعماق قلبك: «ربي يسوع»، «يا يسوعي الحلو»، اسرع الى نجدتي، ولا تدعني اسقط في ايدي اعدائي. وفي الوقت نفسه، عانق الصليب المحيي الذي صُلب عليه ربك (ان كان قريباً منك). قبّل جراحاته، وقل له بمحبة: ايها المجروح

البهي في جماله، القدوس، الطاهر، اجرح قلبي الدنس، ولا تتركني اسيء اليك واحزنك بنجاستي.»

وعندما تتزايد عليك افكار الشهوات الجسدية المعابة، لا تجعل تأملاتك فيها مباشرة، رغم ان كثيرين ينصحون بذلك. لا تحاول ان تتصور في ذهنك نجاسة وخزي خطايا الشهوات الجسدية، ولا تأنيب الضمير الذي يعقبها، ولا فساد طبيعتك وفقدانك للطهارة والنقاوة، ولا اتساخ شرفك واموراً اخرى مماثلة. اقول، لا تحاول التفكير بكل هذه، لأن مثل هذا التفكير ليس دائماً وسيلة ناجعة بها تغلب التجارب الجسدية. فكثيراً ما يكون مثل هذا التفكير، مجالاً لتقوية الهجوم او لسقوطك. فرغم ان ذهنك يمج الشهوة ويأباها، الاّ ان الفكر الواقف على موضوعاتها (objects of lust) يدعم القلب، ويحثه على النزوع اليها. فليس ما يدعو للعجب انه بينما يصب الذهن وابلاً من الادانات القاسية على هذه الامور، يكون القلب مبتهجاً وراضياً بها، وهذا يعني سقطة داخلية. لا، فالواجب يقضي بأن تشغل فكرك بما يَجعل ذهنك ينعتق من الامور المخزية، اعني تلك التي لها تأثير رصين على القلب، مثل، حياة وآلام ربنا يسوع الذي تجسّد من اجلنا، وساعة الموت التي لا مفر منها، او يوم الدينونة الرهيبة، والوان اخرى من عذابات الجحيم.

وان حدث ان استمر ضغط الافكار المعابة، رغم كل هذا، فهاجمتك الافكار بشدة وبطيش، لا تخف، ولا تكف عن التفكير كما اوعزتُ. لا تحاول ان تهجم ضدها كي تبيّن لنفسك طبيعة هذه الافكار المخزية. اياك من ذلك. انما استمر في التأمل بما يغرس في قلبك المهابة والرصانة، كما اسلفت، دون ان تمل هذه الافكار الرديئة، تماماً كما لو انها ليست فيك. واعلم انه ليس من وسيلة ناجعة تطردها بها، كإهمالها وعدم الاكتراث بها. وعلى قدر الامكان، اقطع تأملاتك بهذه الصلاة، او ما يشبهها: أنقذني من اعدائي يا خالقي ومنقذي من اجل آلامك المجيدة ورحمتك التي لا حد لها. حذار ان تتوقف عين ذهنك عند هذه النجاسة الجسدية. فمجرد النظر اليها ينطوي على خطورة. لا تحاك هذه

التجارب، ولا تتكلم عنها كي ترى ماذا كان قد حدث قبول لها فيك، أم ان قلبك قد رغب عنها. ورغم ان شيئاً من هذا قد يبدو نافعاً وحسناً، الا انها في الواقع من حيل الشرير الذي حاول على هذا النحو أن يثبّط من عزيمتك ويرميك في الضعف واليأس، فيجعلك تتوقف عند هذه الافكار اطول مدة ممكنة، وذلك كي يقودك الى فعل الخطيئة، من هذا النوع او سواه. فبدل كل هذه التمحيصات المتعبة، بادر الى ابيك الروحي، وسُرّ له بتفاصيل مكنوناتك، وهكذا تكون بلا انزعاج في القلب والفكر معاً، وغير مضطرب من اية اسئلة، انما راضياً بتدبير ابيك. عليك فقط ان تبوح له بكل شيء ازعجك ويزعجك مضايقاً ذهنك وشعورك، في هذه التجربة. لا تخف شيئاً ولا تجعل لسانك يُربط بالخزي، بل تواضع بإذلال نفسك، فلا نصرة لنا بدون تواضع عميق. وما احوجنا اليه لا سيما في التجربة الجسدية. ففي هذه الحالة، كثيراً ما تتولّد التجربة من الكبرياء، او انها تكون لتأديبنا. لهذا يقول القديس يوحنا السلمي بأن من سقط في الزنى او في اية خطيئة جسدية اخرى فقد سبق ان سقط في الكبرياء، وقد سُمح بسقطته في الخطيئة، كي يتضع. فحيثما السقطة، هناك كبرياء قبلها، فالكبرياء يسبق السقوط. وايضاً: «عقاب المتكبر هو السقوط» (فصل ٢٣).

وفي النهاية، عندما تُغلب الافكار الرديئة، وتتوقف التجربة، ينبغي ان تفعل التالي: مهما اقتنعت بأنك قد تحررت من هجمات الجسد، ومهما تيقّنت من نفسك، فاحرص ان يكون ذهنك وانتباهك بعيدين عن الاشياء والناس الذين كانوا سبباً في نهوض التجربة. لا تشبع الميل الى رؤيتهم بحجة انهم انسباؤك او انهم مكرّسون وأهل فضل. حذّر نفسك بأن هذا الفكر هو خطيئة ناجمة عن طبيعتنا الفاسدة، وهي فخ من فخاخ عدونا الماكر الشرير الذي يأخذ هنا شكل ملاك من نور، كي يلقي بنا في الظلمة التي تكلم عنها القديس بولس في (٢ كور ١١ : ١٤).

الفصل العشرون

في كيف تغلب الاهمال والتراخي

كي تتجنب السقوط في شر الاهمال الرديء - الذي يحول دون تقدمك نحو الكمال، فيسلمك الى ايدي اعدائك - عليك ان تهرب من كل انواع الفضول - (محاولة معرفة ما يجري هنا وهناك، التجول الباطل، الثرثرة الفارغة، وحب الاستطلاع في ما هو حولك) - ومن كل تعلّق بما هو دنيوي، وكل الافعال الاعتباطية، او عمل ما تحب، فإن هذه لا تنسجم بالكلية مع وضعك. لا بل على العكس، ينبغي ان ترغم نفسك بمحض الارادة، وعلى عجل، ان تتبع كل ارشاد، او امر، من معلميك وابائك الروحيين، وان تعمل كل شيء في حينه، وبالطريقة التي يرغبونها.

لا تؤخر عملاً ينبغي القيام به، فالتأخير الاول القصير، سيقود الى ثانٍ اكثر طولاً. والثاني، الى ثالث، ايضاً اطول، وهكذا دواليك. فيتأخر عملك، لأنك لم تتمّمه في أوانه. او انك تهمله، لأنه شيء ثقيل ولا قبل لك عليه. فمتى ذقت لذة التواني مرة، فإنك ستبدأ بإيثارها على العمل. وبإرضائك هذه الرغبة، تنمو فيك شيئاً فشيئاً، عادة التراخي والكسل، فتكف عن مجرد النظر اليها، للنظر الى مقدار ردائتها وسوءها. الاّ اذا سئمت هذا الكسل، وعدت مجدداً الى المباشرة بعملك. عندها سترى، بخزي وخجل، مقدار اهمالك، وكم من اعمال واجبة اهملتها، طمعاً بما يروقك انت من الاعمال الفارغة وغير المجدية.

قلما يُدرَك التراخي في بدايته. فهو ينسل الى كل شيء، ولا يتوقف

عند تسميم الارادة، فيبعدها عن كل جهاد، وعن كل اشكال العمل الروحي والطاعة، انما يضرب الذهن بالعمى، فيحول بذلك دون رؤية الحماقات واباطيل الجدل التي تساند استعداد الارادة. التراخي يعيق الذهن من ان يستحضر للضمير، التعقلَ الذي له القوة على تحريك الارادة الكسولة كي تنجز العمل الضروري بسرعة واجتهاد، فلا تؤجله الى أجل آخر. لأنه لا يكفي ان تنجز العمل بسرعة، فكل شيء يجب انجازه في اوانه، كما تتطلب طبيعته، وبكل عناية وانتباه، وذلك كي يأتي كاملاً قدر الامكان. فاسمع ما هو مكتوب: «ملعون هو من يعمل عمل الرب برخاوة» (ارميا ٤٨: ١٠). انت سبب هذه المصيبة، لأنك تقاعست فلم تفكّر بقيمة وأهمية العمل الملقى على عاتقك.

فالفكر سيلزمك باداء العمل في حينه، وبعزيمة تطرد كل الافكار المرتبطة بالصعوبات المتوقعة، والتي يوحي بها الكسل، كي يثنيك عن عملك.

اقتنع بأن رفع الذهن نحو الله مرة واحدة، والسجود له وتمجيده، لهي امور ذات قيمة، وتفوق كل كنوز العالم، واننا كلما أبعدنا التواني، وألزمنا ذواتنا بما ينبغي عمله، باجتهاد وجد، فإن ملائكة السماء ستعد لنا اكليل النصرة المجيدة. اما اذا استمرينا في الكسل، فإن الله سيسترجع من الكسالى العطايا التي سبق فمنحها لهم لجهادهم السابق من اجل خدمته. وفي النهاية سيحجب ملكوته عنهم، اذا استمروا على التراخي، كما قال في مثل المدعوين الى الوليمة: «لأني اقول لكم انه ليس احد من اولئك الرجال المدعوين يذوق عشائي» (لوقا ١٤: ٢٤). هذا هو جزاء الاهمال. اما المجاهدون الذي يلزمون انفسهم بكل عمل حسن، دون اشفاق على النفس، فالرب سيضاعف من عطاياه لهم في هذه الحياة، ويُعد لهم حياة البهجة الابدية في ملكوته السماوي كما قال: «ان ملكوت السموات يغصب، والغاصبون يختطفونه» (متى ١١: ١٢).

ان اوعز اليك فكر شرير، يحاول ان يلقيك في التراخي، واوحى لك ان العمل الضروري لبلوغ الفضيلة التي تحب، هو طويل جداً

وشاق، وان اعداءك اشداء اما انت فضعيف ووحيد، وان عليك ان تقوم بالكثير كي تبلغ مبتغاك. فلا تسمع له، انما فكّر بالأمر على النحو التالي: طبعاً لا بد ان تعمل، ولكن ليس كثيراً. فعليك القيام بأعمال، الاّ انها صغيرة جداً ولا تستغرق وقتاً طويلاً. ستصادف اعداء لا كثيرين بل واحد فقط. ورغم انه قوي جداً بالنسبة اليك، الاّ انك اقوى منه بما لا قياس له، ما دمت تتّكل على معونة الله التي تثق بها جداً. فإن كان موقفك هكذا، فالتراخي سينكفىء ليحل محله ـ بفعل تأثير الافكار الصالحة والأحاسيس الحسنة ـ حماس جدي في كل شيء، فتمسك بزمام كل ملكات نفسك وجسدك. اعمل الشيء ذاته في الصلاة. افترض ان اتمام خدمة مقدسة يستغرق ساعة من الصلاة باجتهاد، وهذه تبدو ثقيلة الحمل بالنسبة لكسلك. فحينما تباشر هذا العمل، لا تفكر ان عليك ان تقف لساعة كاملة، بل تصوّر ان ذلك يستغرق ربع ساعة فقط. بهذه الطريقة ستعبر هذه المدة دون شعور. بعدها قل لنفسك: لنقف للصلاة ربع ساعة اخرى، فهي ليست بالشيء الكثير. اعمل الشيء نفسه بالنسبة للربع الثالثة والرابعة، وهكذا تنهي عمل صلاتك دون ان تلاحظ شدة او صعوبة. وان كنت اثناء ذلك تشعر بأنها امر شاق وعسير، حتى ان احساسك هذا تداخل مع الصلاة ذاتها، عندها توقف عن تلاوة الصلوات لبرهة، وعد بعد ذلك لتستأنف وتنهي ما قد اسقطتَ.

تصرّف بالطريقة ذاتها مع العمل اليدوي وواجبات الطاعة. وكثيراً ما تكون واجباتك كثيرة، فتضطرب وتستعد للتوقف عن اتمامها. حذار من التفكير بكثرة عددها. بدل ذلك، اعدد ذاتك، وابدأ بإنجاز العمل المهم بجد ونشاط، كما لو ان الاعمال الأخرى غير موجودة. هكذا تتم عملك بدون غم وضيق. بعدها اعمل الشيء نفسه تجاه سائر واجباتك، وسوف تنتهي منها بهدوء، ودونما ضجر او تشويش. اسلك هكذا في كل شيء، واعلم انك إن لم تصغ الى صوت العقل، وان لم تحاول التغلب على الشعور بالتثاقل والمشقة التي يصورها لك العدو في الواجبات المطلوبة منك، فإنك ستسقط في النهاية اسيراً للتراخي، فتشعر

كما لو انك تحمل جبلاً على كتفيك، ليس فقط عندما تواجه واجبات ملحّة، بل عندما تكون هذه الواجبات بعيدة عنك ايضاً، فتكون مثقلاً ومعذباً بها كعبد لا امل له بالحرية. حتى في وقت الراحة، لن يكون لك راحة، وستشعر انك مرهق جداً حتى ولو كنت لا تعمل شيئاً.

اعلم يا بني، ان آفة الكسل والتراخي، تتلف بسمومها، ليس فقط الجذور الصغيرة التي منها تنمو العادات الحسنة، بل وايضاً تلك المتجذّرة، والتي هي بمثابة اساس لنظام حياة البر برمتها. وكما ان الدودة تنخر جذور الشجرة، هكذا التراخي، فمن شأنه اذا استمر، ان يتلف عصب الحياة الروحية ذاته. به يبسط الشرير فخاخه وتجاربه ضد كل انسان، ويولي عناية خاصة، ورصداً ماكراً، بالغيارى على الحياة الروحية، عالماً ان الكسول المتواني، يسهل انقياده الى الملذات، فيسقط كما هو مكتوب: «نفس الكسلان تشتهي ولا شيء لها» (امثال ٨ : ٤).

لذا تيقّظ دائماً وصلِّ واحرص على كل ما هو صالح، فهذا يليق بمحارب شجاع: «نفس المجتهد تسمن» (امثال ٨ : ٤). لا تجلس ويداك مضمومتان، تاركاً امر تخييط ثوب العرس الى اللحظة التي فيها تخرج بثوب العيد لمقابلة الختن الآتي، اي ربنا يسوع. ذكّر نفسك كل يوم، ان «الآن» في متناولنا، اما «الغد»، فبيد الله. فمن وهبك الصباح، لم يعدْك بالمساء. لا تصغ للشيطان عندما يهمس لك: اعطني «الآن»، والغد أعطه لله. لا لا، عشْ كل حياتك على نحو يرضي الله. ضع في ذهنك ان هذه الساعة لك، اما التالية فلن تعطى لك، وان عليك ان تقدم حساباً صارماً عن كل لحظة، من هذه الساعة.

تذكّر ان الوقت الذي بين يديك، لا يثمّن. وأنك إن أضعته سدى، فستأتي الساعة حيث تبحث عنه، فلا تجده. عُدّ اليوم ـ الذي تعمل فيه الامور الحسنة، دون ان تكون جاهدت كي تغلب ميولك الرديئة ورغباتك ـ ضائعاً.

أنهي امثولتي في هذا الموضوع، وانا اردد وصية الرسول: «جاهد الجهاد الحسن دائماً» (١ تيمو ٦ : ١٢). فساعة جهاد واحدة، كثيراً ما ربحتْ السماء. اما ساعة واحدة في التراخي، فأضاعتها. فاحرصْ جيداً ان اردت ان تبرهن لله عن ايمان ثابت بخلاصك، «لأن من يضع ثقته بالله، يسمن» (امثال ٢٨ : ٢٥).

الفصل الحادي والعشرون

في ضبط الحواس الخارجية وحسن استخدامها

على العطاش[1] الى البر، ان يفكّروا مليّاً، ويعملوا دائماً، من اجل ضبط الحواس الخمس جيداً، وتوجيهها حسناً: (النظر، السمع، الشم، الذوق، واللمس). فقلوبنا تنزع على الدوام الى طلب الراحة واللذة والتي ينبغي ان تجدها في النظام الداخلي للاشياء، وذلك بحمل صورة الله في اعماقها. فالانسان خلق على صورة الله الذي هو مصدر كل راحة وتعزية. الاّ اننا عندما ابتعدنا عن الله، بسقوطنا، وآثرنا ذواتنا، فقدنا ثباتنا بأنفسنا، ووقعنا في عبودية الجسد، وخرجنا من ذواتنا، وشرعنا نبحث عن المسرّات والملذّات. صارت حواسنا دليلاً لنا ووسيطاً. بالحواس تخرج النفس لتذوق الاشياء التي تعرفها (الحواس) وقد جرّبتها. صارت النفس تبتهج بما يبهج الحواس، فشرعت تبني دائرة المسرات والملذات، وتعتبر التمتع بها بمثابة الخير الاول. لقد انقلب نظام الموجودات. بدل الله في الداخل، شرع القلب يبحث عن الملذات في الخارج، وهو راضٍ بها. فالذين استمعوا الى صوت الله: «توبوا»، ها هم يتوبون، ويوطّدون لأنفسهم ناموس اعادة تشييد نظام الحياة الاصيل، وأعني التوجّه من الخارج نحو الداخل، ومن الداخل، الى الله، وذلك كي يعيشوا فيه وبه، ويكون هذا بالنسبة اليهم الخير الاول، فيحملون في داخلهم نبع كل تعزية. ورغم ان الخطوة الاولى في اعادة تشييد هذا النظام، هي رغبة قوية وعزم ثابت، إلاّ انهم لا يبلغون غايتهم فوراً. فمن سبق ان عقد العزم، لا بد له ان يواجه دأباً طويلاً

---

(١) الغيارى

من الجهاد ضد عاداته السالفة، وذلك لتحل محلها عادات اخرى تتفق وشرعة الحياة الجديدة. هنا تكمن اهمية ضبط الحواس الخارجية واستعمالها.

لكل حاسة سلسلة من المواضيع ترتبط بها، بعضها سارّ وبعضها الآخر بخلاف ذلك. النفس تبتهج بالامور السارة وتألفها، معتادة عليها، وهكذا تكتسب قوة، بها تسعى اليها. بهذه الطريقة تُدخل كل حاسة الى النفس، شهواتٍ عدة، وميولاً عدة، وارتباطات شهوانية. الاهواء تختبئ في النفس ملازمة الصمت، عندما لا يكون هناك ما يثيرها ويحركها. وكثيراً ما تثيرها الافكار المرتبطة بمواضيع هذه الشهوات. الاّ ان السبب الرئيس والاقوى الذي يثيرها، هو مثول المواضيع (مواضيع الشهوة) امام الحواس كي تجرّبها وتختبرها. في هذه الحالة، تنبعث الشهوة اليها بدون ضابط، في الانسان الذي لم يصمم بعد على مقاومتها، «فتولد الخطيئة، والخطيئة متى اكتملت تنتج موتاً» (يعقوب ١ :١٥) . ويتحقق كلام النبي في هذا الانسان: «فالموت طلع الى كوانا» (ارميا ٩)٢١)، اي الى الحواس التي هي كوى النفس للاتصال بالعالم الخارجي.

فالانسان الذي يدع الشهوات تدخل اليه، فيجعلها تشن عليه حرباً، هو عرضة للسقوط. على الانسان ان يرسم لنفسه قانوناً لا يتخلى عنه، من اجل ضبط الحواس، واستعمالها، بطريقة لا تثير اية شهوات حسية، فلا يسمح بالدخول، الاّ لما يُخمد الشهوات ويثير مشاعر مضادة لها.

وهكذا ترى يا اخي في اي من الاخطار يمكن للحواس ان تزجك. لذا انتبه لنفسك، وتعلّم كيفية ترويضها. حاول بكل ما أوتيت من وسائل، ان تحول دون تحرّك حواسك هنا وهناك كما يحلو لها. لا تحوّلها الى الملذات الحسية، بل على العكس، وجّه خطاها الى ما هو خير ونافع وضروري. وان كانت حواسك تجمح حتى الساعة الى الملذات الحسية، فحاول من الآن فصاعداً والى المنتهى، ان تكبح جماحها، وتعود بها عن غيّها. اضبطها جيداً.

وكما انها كانت بالأمس أسيرة للمباهج الضارّة والباطلة، عليها الآن أن تتقبّل ما هو نافع من كل مخلوق، ومن كل شيء، فتدفعه للنفس كي تتولّد الأفكار الروحية فيها، والتي من شأنها أن تجمع النفس في ذاتها، فتحلّق بأجنحة التأمّل الداخلي، وترفعها إلى معاينة الله وتمجيده كما يقول المبارك اوغسطين: «بمقدار ما هناك من مخلوقات في العالم تخاطب الأبرار، بمقدار ما هناك أفكار وتأمّلات مقدّسة تحرّك في هؤلاء محبة الله، على الرغم من ان هذه المخلوقات بكماء ولا تتكلم». وأنت أيضاً، يمكنك أن تفعل ذلك على النحو التالي: عندما يداني حواسك موضوع حسّي تراه أو تسمعه أو تشمّه أو تتذوّقه أو تلمسه، فافصل في ذهنك بين ما هو حسّي ومادّي منها، وبين ما هو من الروح الإلهي المبدع. واعلم ان ما في هذه، يستحيل أن يكون من ذاتها، فكل ما فيها هو من الله الذي يهبها الوجود، والخواص الحسنة، والجمال، والهيئة الحكيمة، للتأثير على الآخرين. فالله هو سبب ما فيها من جمال وروعة. طبّق مثل هذه الأفكار على كل الأمور المنظورة الأخرى، وافرح في داخلك بأن الله الواحد، هو أصل وعلّة كل هذه الكمالات العظيمة العجيبة المتنوّعة القائمة في مخلوقاته، فهو يحوي في ذاته كل هذه الكمالات. وما تراه في خلائقه، ليس سوى انعكاس ضعيف، أو ظلال، لكمالات الله التي لا حدود لها. درّب فكرك على هذا لدى رؤية كل مخلوق، كي تألف النظر إلى الأمور الحسّية، دون أن يستقرّ انتباهك على مظهرها الخارجي فقط، بل ينفذ إلى كنهها الإلهي، إلى جمالها الخفي غير المنظور، المعلن للذهن. وإن فعلت هذا، لن يعود هناك جانب خارجي للأشياء يجتذب حواسّك وشعورك، ولا يبقى سوى الجوهر الداخلي يثير ذهنك ويغذّي تأمّلاته الروحيّة، ويحثّك على تمجيد الرب.

وفي ما تنظر إلى العناصر الأربعة (الاستقساط): النار، الهواء، الماء، التراب، فكّر في ماهيّتها وقوّتها وفعلها، فتمتلئ بهجة روحيّة وتدعو للخالق العظيم الذي أبدعها: «أيها الإله العظيم، الكثير القوّة، العجيب في أعماله، أنا أسرّ وأبتهج لأنك أنت وحدك أصل وعلّة وجوهر

وفعل وقوّة كل مخلوق». وعندما تنظر إلى السماء فتعاين الأجسام السماوية، الشمس والقمر والنجوم وهي تعكس النور والضياء الذي منحه لها الله، ستقول بذهول: «أيها النور الأبهى من كل الأنوار، والذي منه جاء كل نور إلى الوجود، سواء كان ماديًا أو غير مادّي! أيها النور العجيب! يا فرحة الملائكة وبهجة المغبوطين. يا مَن فيه تغوص الشاروبيم في تأمّل ودهش على الدوام. أيها النور الذي الأنوار المادية هي ظلام حالك أمامه. انني أسبّحك وأمجّدك أيها النور الحقيقي الذي يضيء كل انسان آتٍ إلى العالم. امنحني أن أراك عقليًا، فيفرح قلبي كل الفرح».

وعندما تنظر إلى الأشجار والأعشاب والنباتات متأمّلاً كيف تحيا وتغتذي وتنمو وتتكاثر، وان وجودها ليس من ذاتها، بل من الروح المبدع الذي لا تراه، إلا انه وحده يحييها، فإنك ستصرخ: «ها هي الحياة الحقيقيّة التي فيه ومنه وبه تحيا وتنمو وتتوالد. أنت بهجة قلبي المحيية».

وعندما ترى الحيوانات العجماء، ترتفع بعقلك إلى الله الذي منحها الحواس والقوى كي تنتقل من مكان إلى آخر: «يا نبع الحركة لكل الموجودات، يا مَن حرّك كل شيء وهو لا يتغيّر. كم أبتهج وأفرح بك أيها الساكن غير المتغيّر.»

وعندما تنظر إلى ذاتك، وإلى الناس الآخرين، ترى انك وحدك أعطيت هذه الرتبة السامية، فأنت وحدك بين المخلوقات الحيّة التي تدبّ على الأرض، وقد حباك الله عقلاً، وجعلك تخدم الوحدة بين الخلائق المادية وغير المادية. تيقّظ إذن لتمجيد وشكر الله خالقنا قائلاً: «أيها الثالوث الأبدي، الآب والابن والروح القدس المبارك إلى الأبد. اني أشكرك في كل آن، ليس فقط لأنك خلقتني على الأرض، وجعلتني ملكاً على كل المخلوقات وأكرمتني، فخلقتني على مثالك، ووهبتني العقل والنطق والجسم الحي. انّما فوق كل شيء، لأنك منحتني إرادة حرّة كي أماثلك بالفضائل، وتكون لي، أحويك فيّ وأفرح بك إلى الأبد».

سأنتقل الآن الى الحواس الخمس كلٍ على حدة:

١ - النظر

عندما تنظر إلى جمال الخلائق وحسن تكوينها، افصلْ في ذهنك ما تراه، عمّا هو جوهرها الروحي. وتأمّل كيف ان كل هذا الجمال المنظور هو من صنع الروح المبدع غير المنظور والكلّي الجمال، الذي هو علّة كل جمال خارجي. وإذ تمتلئ فرحاً، قل: «أيتها الجداول الغنيّة المتدفّقة من نبع غير مخلوق. أيها المطر المحيي الآتي من بحر كل البركات غير المحدودة. كم أبتهج في قلبي عندما أعاين جمال خالقي غير المنظور الذي هو أصل وعلّة كل جمال مخلوق. يا لها من عذوبة روحيّة تلك التي تملأني عندما أفكر بجمال إلهي الذي يتعذّر على الكلمة وصفه، والفكر، إدراكه، فهو مبدأ كل جمال.»

٢ - السمع

وإن سمعت صوتاً شجيًّا أو انسجام أصوات أو غناء، فارفع ذهنك إلى الله وقل: «يا انسجام كل انسجام، يا ربي، كم أفرح بكمالاتك التي لا حدود لها، فكل شيء يندمج بك في انسجام كلّي فينعكس على طغمة الملائكة في السموات، وعلى الخليقة الكثيرة العدد، على الأرض. هذه هي السيمفونية الكاملة فوق حدود التخيّل». ربّي متى يحين الوقت لأسمع بأذني قلبي صوتك الكلّي العذوبة قائلاً: سلامي أعطيك. انه السلام من الأهواء. ان صوتك عذب كما تنشد العروس في نشيد الإنشاد (٢ : ١٤).

٣ - الشم

وإن صادف أن تنشّقت طيباً معطراً، أو رائحة الأزهار، فارفع ذهنك فوق هذا العبير المادي، إلى عبير الروح القدس السرّي، وقل: «يا شذى أجمل زهرة. أيها العطر الذي لا يفرغ والذي انسكب على كل

خلائق الله كما يقول نشيد الانشاد: «أنا زهرة شارون وزنبقة الأودية (٢ : ١). ان اسمك طيب مهراق (١ : ٣). يا نبع كل شذى، يا مَن يفوح أريجه الإلهي على كل الموجودات فيغمر أسمى الملائكة وأنقاها، ليشمل أدنى الخلائق، مفعماً الكل بشذاه.» هكذا حين اشتم اسحق رائحة يعقوب قال: «ها رائحة ولدي كرائحة حقل باركه الرب» (تك ٢٧ : ٢٧).

٤ ـ الذوق

عندما تأكل أو تشرب، فكّر في الله الذي أعطى كل طعم مذاقة تبهجنا وتلذّ لنا. وإذ تبتهج بالرب فقط، بادر إلى القول: «يا نفسي ابتهجي، فشبعك ومسرّتك وراحتك هي في الله. يمكنك أن تعرفيه وتلتصقي به، وتجدي كل بهجة فيه حسب قول المرنّم: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب» (مزمور ٣٤ : ٨). انها الأمر الذي عرفه سليمان فقال: «ثمرته حلوة لمذاقتي» (نشيد ٢ : ٣).

٥ ـ اللمس

عندما تبادر إلى عمل ما، تذكّر ان الله هو الذي وهبك القدرة والقوة على العمل، وانه علّة كل حركة، وانك لا شيء سوى أداة حيّة بيده. ارتفع إليه بالعقل قائلاً: «أيها الإله القدّوس، رب الكل، ما الفرح الذي يملأني عندما أفكر اني بدونك لا أقوى على شيء، فأنت المحرّك الأول في كل شيء».

وعندما ترى في البعض صلاحاً أو حكمة أو صدقاً أو أيّة فضيلة أخرى، بادر إلى فصل المنظور عن غير المنظور، وقل لإلهك: «يا كنز الفضائل الذي لا يفرغ، كم تعظم فرحتي عندما أعاين وأدرك ان كل خير هو منك، وان كل صلاحنا هو لا شيء، إذا ما قِيس بكمالاتك الإلهية. أشكرك يا إلهي على كل هذا، وعلى كل شيء خيّر عملته لقريبي. أذكر عوزي وفاقتي أيها المنعم علينا، فأنت تعرف مقدار

تقصيري في كل فضيلة». وعلى العموم، ففي كل مرّة تشعر ان في خلائق الله ما يسرّك ويجذبك، لا تدع انتباهك يتوقّف عند هذا الحد، انما اعبر بفكرك إلى الله قائلاً: «يا إلهي، إن كانت خليقتك بهذا القدر من الجمال والفرح والبهجة، فكم بالحري أنت يا كلّي الجمال والبهجة والفرح وخالق الكل! فإن واظبت على هذا المنوال يا عزيزي، ستتمكّن من معرفة الله بحواسك وذلك برفع عقلك على الدوام ممّا هو مخلوق، إلى الخالق. عندئذ سيكون وجود وهيئة كل شيء مخلوق، كتاباً لاهوتيًّا. ومع انك تعيش في هذا العالم الحسّي، إلاّ أنك ستشترك في معرفة العالم الآتي. فالعالم كلّه، والطبيعة برمّتها، هي أداة نتبيّن من خلالها المهندس والفنان نفسه صانع الكل، الذي يعلن أفعاله وكمالاته غير المنظورة في المنظورات. ولا يميّز ذلك، إلاّ نظر الخلائق العاقلة. ويقول سليمان الحكيم: «بعظمة الخلائق وجمالها نرى الله بقياس» (حكمة ١٣ : ٥). ومن جهة ثانية يؤكد المبارك بولس: «ان أموره غير المنظورة تُرَى منذ خلق العالم، مدركة بالمصنوعات قدرته السرمديّة ولاهوته» (رو ١ : ٢٠).

في عالم الله، كل خلائقه تقوم بحكمة. فمن جهة تتنوّع الخلائق، ومن الأخرى، فقد حبا الله الناس قوّة العقل، به يتأمّلون الخلائق، فيستشفّون حكمة لامتناهية وراء خلقهم وترتيبهم. ومن شأن ذلك أن ينمّي المعرفة والتأمّل في الكلمة الأقنومي الذي به كان كل شيء (يو ١ : ٣). فمن الأفعال، نأتي إلى رؤية فاعلها، وليس لنا إلاّ أن نقضي بصواب ورصانة، فإن وجدنا إيماناً في ما قد خلق، فإننا سنرى في الخلائق، خالقها.

الفصل الثاني والعشرون

في ان المواضيع الحسيّة ذاتها، التي دار حولها كلامنا، يمكنها أن تكون وسائل وأدوات نضبط بها حواسّنا جيداً إن تمكّنا بها من التأمّل في تجسّد الله وفي أسرار حياته وآلامه وموته.

سبق أن بيّنت كيف أننا من الأمور الحسيّة، نستطيع أن نرفع الذهن إلى التأمّل في الله. والآن نتعلّم طريقة أخرى نرفع بها ذهننا من الحسّي إلى الإلهي، أي، بالعبور من الحسّي، للتأمّل في تجسّد الله الكلمة، وفي أسرار حياته المقدّسة الطاهرة وآلامه وموته. فالأمور الحسيّة التي في هذا العالم، يمكنها أن تكون إطاراً لمثل هذا التأمّل، ان استطاع الذهن أن يعبر من خلالها إلى عظمة الله ومجده كونه علّة وجودها، وعلّة كل ما فيها من قوى (ملكات)، وكمالات ووظائف ومكانة بين كل الخلائق. بعد ذلك فكّر في عظمة صلاح هذا الإله ـ التي لا حدود لها، علّة كل ما هو مخلوق، ـ الذي رغب أن يتنازل إلى مثل هذه المسكنة والحقارة، فيصبح إنساناً، ويتألّم ويموت من أجل الناس ويسمح لَمن هم جبلة يديه أن يحملوا السلاح ضدّه ويصلبوه. فعندما ترى أو تسمع أو تلمس أسلحة وحبالاً وسياطاً، واغصان الشوك، ومسامير ومطارق وسواها... فكّر كيف ان هذه استخدمت مرّةً كأدوات لتعذيب الرب. عندما ترى بيوتاً فقيرة، أو انك تحيا في واحد يشبهها، تذكّر المغارة والمزود الذي وُلِد فيه ربّك كإنسان. عندما ترى المطر ينهمر، تذكّر قطرات الدم والعرق التي تساقطت من الجسد الالهي، من يسوع الحلو، فخضّبت أرض بستان الجثمانية.

عندما تبصر البحر والقوارب تمخره، تذكّر كيف مشى إلهك على المياه ووقف في السفينة يعلّم الناس.

عندما ترى الصخور، دعها تذكّرك بتلك التي تشقّقت لحظة موت الرب. دع الأرض التي تطأها، تذكّرك بالزلزال الذي حصل بُعَيد آلام المسيح. ينبغي أن تعيد الشمس إلى ذهنك ذكريات الظلمة التي غشيتها آنذاك. ليذكّرك الماء، بالماء الذي امتزج بالدم المنبعث من جنب الرب عندما طعنه الجندي بعد موته على الصليب. عندما تحتسي خمراً أو أي مشروب آخر، تذكّر الخلّ والمرارة التي دفعت للرب كي يشربها على الصليب. عندما تلبس ثيابك، تذكّر الكلمة الذي لبس جسداً بشريًّا كي ما تلبس ألوهيّته. وعندما ترى نفسك مستوراً، فكّر في المسيح ربّك الذي سمح أن يتعرّى للجلد والصلب من أجلك. إن شدّك صوت شجيّ، فحوّل ذلك إلى المخلص الذي على شفتَيه انسكبت كل عذوبة ونعمة حسب قول المرنّم: «انسكبت النعمة على شفتَيك» (مزمور ٤٥ : ٢). لحلاوة كلماته كان الشعب يتبعه، ولا يملّ من الإصغاء إليه كما يقول القديس لوقا «لأن الشعب كان متعلقاً به يسمع له» (لوقا ١٩ : ٤٨). عندما تسمع همساً وصياح أناس، تذكّر صرخات اليهود: «خذه، خذه، اصلبه» (يو ١٩ : ١٥)، والتي نفذت إلى مسامع الرب. عندما تعاين وجهاً جميلاً، تذكّر مَن هو أبهى جمالاً من بني البشر (مزمور ٤٥ : ٢)، ربنا يسوع المسيح الذي صلب حبًّا بك واحتُقِر وأُهين من الناس، وكان رجل آلام واختبر الحزن (أش ٥٣ : ٣). في كل مرّة يرنّ جرس الساعة، تذكّر الحزن المتفاقم الذي ملأ قلب ربّنا يسوع عندما كان في بستان الجثمانية وكيف انه اضطرب لدى اقتراب ساعة آلامه وموته. تخيّل انك تسمع ضربات المطارق التي سمعت عندما كان الرب يُسمَّر على الصليب.

وأقول بشكل عام، انه كلّما صادفك أمر مؤلم في حياتك أو حياة سواك، ضع في ذهنك ان أتعابنا وآلامنا وشجوننا هي لا شيء بالنظر إلى العذاب المبرح والجراح المؤلمة في جسد ربّنا ونفسه والتي احتملها من أجل خلاصنا.

الفصل الثالث والعشرون

في كيف تُترجَم الانطباعات الحسيّة إلى دروس مفيدة

عندما تنظر أموراً تسرّ العين، وذات قيمة عند أهل الدنيا، فكّر انها لا شيء ومجرّد غبار، إذا ما قورِنَت بجمال السموات وغناها والتي ستصير من نصيبك بعد الموت، لا محالة، إن كنت قد رفضت كل أمور العالم. عندما تنظر إلى الشمس، فكّر ان نفسك هي أكثر بهاءً وجمالاً منها، إن هي امتلأت بنعمة الخالق. وإلاّ، كانت أكثر ظلمة من الظلمة الخارجية. عندما تشيح بنظرك إلى السموات، ارفع عين نفسك إلى السماء الأسمى جاعلاً فكرك هناك. واعلم انها المكان المعدّ لسكناك، إن كانت حياتك على الأرض، مقدّسة وبلا عيب. عندما تسمع زقزقة العصافير فوق الأشجار أيام الربيع، أو أيّة نغمة مطربة أخرى، فارفع ذهنك إلى أكثر الأنغام حلاوة، أعني التي في الفردوس، وفكّر في الـ(هليلويا) التي تُنشَد في السماء على الدوام مع ترانيم الملائكة. صلّ إلى الله كي يعطيك أن ترنّم بتسابيحه إلى الأبد مع الملائكة كما ورد في الرؤيا: «بعد هذا سمعت صوتاً عظيماً من جمع كثير في السماء قائلاً: «هليلويا. الخلاص والمجد والكرامة والقدرة للرب إلهنا» (رؤ ١٩ : ١). عندما تشعر بالانجذاب إلى جمال إنسان، تذكّر ان هذه الهيئة الجذّابة تخفي وراءها أفعى الجحيم المستعدّة لقتلك، أو على الأقل تثخنك بالجراح، وقل لها: «أيتها الأفعى الملعونة التي تقف كاللص وتريد أن تبتلعني... ان محاولاتك لا تجدي وباطلة، لأن الله سندي. بعدها التفت إلى الله وقل: «مبارك أنت يا إلهي لأنك فضحت لنا أعداءنا المتستّرين، ولم تدفعنا فريسة لأسنانهم»(مزمور ١٢٤ : ٦). ثم توجّه إلى

جراح مَن صُلِبَ لأجلنا واتحدْ ذهنك بها متأمّلاً بما عاناه ربّنا في جسده الطاهر كي يعتقك من المآثم ويجعلك تمجّ شهوات الجسد. كذلك فإني أذكّرك بسلاح قوي به تبعد غواية الجمال الحسّي، عندما تسقط في مثل هذه الغواية، بادر إلى الغوص بذهنك، وفكّر مليًّا في ما سيؤول إليه هذا المخلوق الجذّاب، بعد الموت؟ انه جيفة مهترئة ورميم نتن يعج بالدود.

عندما تسير في أي مكان، فكّر بكل خطوة تخطوها، إنها تدنيك من القبر. عندما ترى الطيور وهي تحلّق في الفضاء أو تبصر الأنهار تجرى سريعة، تأمل في حياتك التي تعبر على نحو أسرع، نحو نهايتها. عندما تهب رياح هوجاء، وتحتجب السماء وراء السحب الداكنة، عندما تسمع صوت الرعد، وتلمح وميض البرق، تذكر يوم الدينونة الرهيب، وصلّ إلى الله جاثياً، كي يمدّك بالوقت والقوة كي تُعدّ نفسك آنذاك، للمثول أمام وجه عظمته المرهوب. عندما تحل بك ضيقات متعددة، لا تنسى أن تروّض ذهنك على الإفادة من الأفكار الخشوعية الملازمة لهذه الضيقات. لكن قبل البدء بأي شيء، اعملْ التالي: تأمل في ارادة الله الضابط الكل، متيقّنا أن هذه كانت لخيرك وخلاصك، فالله بحكمته وجوده ومحبته، قضى أن تعاني ما تعاني. تهلّلْ بالرب الذي أعلن لك محبته في مثل هذه الحالات، فأتاح لك سانحة بها تبرهن عن تسليم مشيئتك له برغبة تامة من كل القلب، في كل شيء يشاء أن يرسله لك. قل في قلبك: «هذه مشيئة الله مغروسة فيّ، بمحبته لي سبق أن رتّب من قبل الأزمنة أنه ينبغي لي أن أحتمل هذا الألم أو الغم أو الفقدان أو الجور. ليكن اسم ربي الجزيل الرحمة مباركاً». عندما يراودك فكر صالح، أنسبه لله، وتأكد أنه منه، رافعاً الحمد له. وعندما تنشغل بقراءة كلمة الله، اجعله ماثلاً أمامك وراء كل كلمة، معتبراً هذه الكلمات نفساً حيّاً ينبعث من فمه الإلهي. عندما ترى الشمس تغيب في المساء، والظلمة ترخي سدولها، فينكفئ النور، كما هو الحال في الكسوف، تنهّد مصلياً إلى الله أن لا يطرحك في الظلمة الخارجية. عندما ترى الصليب، فاذكر أنه رايتنا وقوتنا التي لا تهزم في الحرب

الروحية، وان أنت ابتعدت عنه، تقع في أيدي أعدائك، أما إذا بقيت في كنفه وظلّه، فتعرّج إلى السماء وتدخلها بمجد ونصرة. عندما ترى أيقونة والدة الإله القديسة، ارتفع إليها بقلبك واشكرها، فهي قد أبدت الاستعداد فسلّمت نفسها إلى مشيئة الله كي تلد وترضع وتربي منقذ العالم، وتشفع فينا وتحمينا وتعيننا في الحرب الروحية. وعندما ترى أيقونات القديسين، فتذكّر صلواتهم وشفاعتهم من أجلك أمام الله، ولا تنسى أنهم يحاربون إلى جانبك في الحروب الروحية غير المنظورة. فقد سبق لهم أن حاربوا أثناء حياتهم بشجاعة وبسالة وهزموا الأعداء، فكشفوا لنا فن الحرب. فإن أنت شعرت بمؤازرتهم في القتال، اعلم أنك ستنال الإكليل مثلهم، مع النصرة في المجد السماوي الأبدي. عندما ترى كنيسة، فبالإضافة إلى الأفكار الحسنة الكثيرة، تذكّر أنك أنت نفسك هيكل الله كما كتب: «أنتم هيكل الله الحي» (٢ كور ٦: ١٦). علينا أن نحافظ على هذا الهيكل كي يكون طاهراً وبلا عيب. عندما تسمع أجراس الكنيسة، فاذكر تحية رئيس الملائكة إلى والدة الإله: «سلام لك أيتها المنعم عليها...» (لوقا ١: ٢٨)، متأملاً في الأفكار التالية: اشكر الله الذي أرسل إليك هذه البشرى السارة التي هي بداية خلاصك. تهلّلْ مع والدة الإله من أجل العظمة التي ارتقتْ إليها بفعل عمق تواضعها. اشترك وإياها مع رئيس الملائكة جبرائيل في عبادة الكرمة الإلهية التي حبلت بها في بطنها الطاهرة. وخير لك أن تردد السبح هذا على الدوام، في النهار، مقروناً بما ذكرت، جاعلاً إياه أساساً لحياتك، تؤديه ثلاث مرات كل يوم على الأقل: في الصباح، ونصف النهار، وفي المساء. وباختصار، فأنا سوف أسدي إليك النصيحة التالية: تيقّظ على الدوام وكن مرهفاً من جهة علاقتك بحواسك. لا تسمح لما يأتيك عبرها، بإثارة أهوائك وتغذيتها. إنما استعملها على نحو لا تخرج فيه عن ارضاء الله على الدوام، وفي كل شيء. لا تكن منقاداً من ارادتك. ولكي يسهل عليك بلوغ هذا، فبالإضافة الى رفع الأفكار من الحسي إلى ما هو روحي، روّض نفسك على ما ذكرت في الفصول الأولى، أي، لا تنجذب إلى أمر أو تنفر منه على عجل، بل ادرس

الخطوة المناسبة بإزاء كل حالة على حدة، وذلك بتعقل وبأسباب مستقيمة، وذلك كله كي تنسجم انطباعات الحواس ومشيئة الله التي ندركها بوصاياه. وأضيف، أنه لا يليق بك أن تمارس كل السبل الآنفة الذكر كي تستخدم الحواس في المقاصد الروحية دائماً. يُفترض أن تجمع ذهنك في القلب، وتبقى هناك بمعيّة الرب الذي يعينك في نصرتك على أعدائك وأهوائك، وذلك إما بالمقاومة الداخلية المباشرة، أو بممارسة الفضائل المضادة لها. وقد عنيتُ بكلامي عن الطرق الآنفة الذكر، تلك التي تعرفها، والتي يمكنك استخدامها، عند الحاجة. ما من ريب في أن كل شيء ينفع في حربنا الروحية، وذلك كي تلبس أمورُنا الحسية رداءً روحياً.

الفصل الرابع والعشرون

دروس عامة في كيفية استخدام الحواس

بقي لي أن أعلن القواعد العريضة في استعمال الحواس الخارجية، وذلك للحيلولة دون فساد قيمنا ونظامنا الروحي، بفعل الانطباعات التي تنقلها (الحواس). لذا اسمع:

قبل كل شيء يا عزيزي، أرصد بكل حرص هذين اللصين اللذين يسلبان بخفة وعجل، وأعني: عينيك. لا تسمح لهما بالنظر بفضول إلى وجوه النساء، سواء الجميلات أو غير الجميلات، ولا حتى إلى الرجال، لا سيما الصغار منهم عديمي اللحى. لا تدع عينيك تحدّقان إلى الأجساد العارية، ليس فقط أجساد الآخرين، بل جسدك نفسه أيضاً. فالفضول المقرون بنظرات شهوانية، يولّد في القلب هوى الزنى، ويسهّل فعل الشهوة التي تستحق الدينونة حسب قول الرب: «ان من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه» (متى ٥: ٢٨). لقد كتب أحد الحكماء يقول: «تتولّد الشهوة من النظر». سليمان الحكيم نفسه ينصحنا بأن لا ننخدع بغواية العين، ولا ننجرح بلذة الجمال: «لا تشتهين جمالها بقلبك، ولا تؤخذ بهدبها» (أمثال ٦: ٢٥). وإليك أمثلة عن العواقب الوخيمة التي تترتّب على النظرات الشريرة: أبناء الله انجذبوا (نسل شيث وانوش)، نحو بنات قايين، حينما نظروا إليهن (تك ٦). لقد رأى شكيم بن حمور الحوي، دينة ابنة يعقوب، فسقط معها (تك ٣٤). جمال دليلة استبد بقلب شمشمون (قضاة ١٦). داوود سقط لما نظر إلي بتشبع (٢ صم ١١). شيخان من قضاة الشعب أثيرا لّما نظرا إلى

جمال سوسنا (دانيال). تنبّه جيداً من النظر بلهفة إلى منظر الطعام والشراب. تذكّر أمنا حواء التي نظرت إلى الشجرة المحرّمة في جنة عدن، فتجرّأت وأكلت منها، وهكذا جنت الموت على نفسها، وعلى كل نسلها. لا تحدّق بشهوة إلى الأثواب الجميلة، أو إلى فضة أو ذهب، أو إلى لمعان الأزياء العالمية، كي لا تنسلّ إلى نفسك عبر العين، أهواء المجد الباطل وحب المال. بل جُدّ في أثر داوود الذي تمنّى: «حوّل عيني عن مشاهدة الباطل» (مزمور ١١٩ : ٣٧). وعلى العموم انتبه من النظر إلى الرقص، أو الحفلات أو المهرجانات أو المجادلات أو الخصومات، وكل كلام فارغ، والأمور غير اللائقة والمعيبة التي يهواها العالم المجنون، لكن الناموس يمجّها، وينهي عنها. اهرب وأنت تغمض عينيك عن هذا كله، كي لا يمتلئ قلبك بحركات الأهواء، وخيالك بصور غير لائقة، فتكون تقاتل نفسَك بنفسِك. ان عدم صمودك في الحرب، يتأتى من ايثارك الأهواء في نفسك. ليكن ارتياد الكنائس مرغوباً عندك. وليكن نظرك، في الايقونات والكتب المقدسة. تأمل في القبور والمدافن وسواها من الأمور التي تضفي على القلب تخشعا وقداسة. لا تصغ إلى الأغاني والموسيقى، والأحاديث الماجنة التي تحرك الشهوة، فهي تملأ النفس بالخيالات الشريرة وتقود إلى الزنى، كونها تضرم نيران الشهوة الجسدية في القلب. لا تصغ إلى المزاح والضجيج الباطل، ولا إلى روايات البطولات التافهة. وان سمعتها مرة، فلا تفرح، ولا تنزل إلى دركاتها، فلا يليق بالمسيحي، التلذذ بمثل هذه الأمور التي تبهج فاسدي القلب والأخلاق، الذين تكلم عنهم الرسول قائلاً: «يصرفون مسامعهم عن الحق وينزعون إلى الخرافات» (٢ تي ٤ : ٤). لا تصغ إلى النميمة والنقد والافتراء التي يتناقلها البعض ضد أخوتهم. خليق بك أن تلجمها ان أمكن، أو، تتوارى، كي لا تسمعها، فالقديس باسيليوس الكبير يعتبر أن النمام والواشي كلاهما يستوجبان الحرم الكنسي. لا تصغ إلى الأحاديث التافهة التي يقضي فيها أهل العالم سواد وقتهم. لا تُسرّ بها، فالناموس يأمرنا بعدم قبول الخبر الكاذب (حز ٢٣ : ١). سليمان يردد الأمر نفسه فيقول: «أبعد عني الباطل والكذب» (أمثال ٣٠ : ٨). وكما قال

الرب: «ان كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عليها حساباً يوم الدين» (متى ١٢: ٣٦). حذار عموماً من الاستمتاع بأية كلمة أو حديث، فقد يلحق الضرر بنفسك، لا سيما التملق ومديح المرائين كما يقول النبي اشعيا: «مرشدوك يا شعبي مضلّون وطريق مسالك يبلغون» (اشعيا ٣: ١٢). أما أنت، فأحبب سماع الكلمات الإلهية والترانيم المقدسة والمزامير وكل ما هو صالح ومقدس ومفيد للنفس ويزوّدها بالحكمة.... لا سيما محبة توبيخ الذات، وقبول الاهانات الموجّهة ضدك. راقب حاسة الشم، واحفظ أنفك من متعة العطور التي قد تثير فيك أفكاراً وصوراً شهوانية. لا تستخدمها ولا تعطّر نفسك بها. لا تتنشّقها بلذة شهوانية وتراخٍ، فهذا يلائم النسوة الرديئات، لا أهل الحكمة. فالعطور تضعف شجاعة النفس، وتحرّك الأهواء الجسدية مع الشهوات، وربما تودي بالمرء إلى السقطة. بهذا تنطبق عليك ويلات عاموص النبي ضد مستعملي العطور المثيرة: «ويل للذين يدّهنون بأفضل الأدهان» (عا ٦: ١ - ٦)، فيكون بدل العطر عفونة (اشعيا ٣: ٢٤). احفظ حنجرتك وجوفك كي لا تستبد بها الأطعمة اللذيذة والمشروبات المسكّرة. أما إذا أطلقت لها العنان، فإنك سترزح تحت أهواء أخرى وأعمال شريرة، كالكذب والمداهنة وحتى السرقة. وإذا استبدّت بك شهوة الموائد، يمكنها أن ترمي بك إلى حضيض الملذات الجسدية والشهوات البهيمية التي تفعل بما دون البطن، «.... الشاربون من كؤوس الخمر» (عا ٦: ٤ - ٦). تحفّظ من اللمس والضغط بالأيدي، ومن احتضان أجساد الآخرين لإمرأة كانت أم لرجل، صغاراً كانوا أم كباراً، بما في ذلك جسدك نفسه، إلا عند الضرورة. لا تلمس أجزاء محددة، فكلما تفاقمت اللمسات غير اللائقة، كلما نمت ثورة الشهوات التي من شأنها أن تودي إلى ارتكاب الفعل الرديء نفسه. كل الحواس تساند حركة الشهوة مداورةً، حتى ارتكاب الخطيئة. فالذي يبلغ به الأمر، أن يلمس ما لا يليق لمسه، يصعب عليه العدول عن ارتكاب الخطيئة.

وتجارب اللمس تصل أيضاً إلى ما نرتدي من ملابس وثياب فوق

الرأس والجسد، والأحذية أيضاً. احذر أن تُلبس جسمك ثياباً ناعمة، ملوّنة، أو لّماعة، أو أن تضع على رأسك غطاء باهظ الثمن، أو أن تحتذي أحذية غالية، فهذه شؤون النساء الرديئات، ولا يليق بالرجال تعاطيها. إنما ليكن لباسك محتشماً ووقوراً بقصد حماية الجسم من قر الشتاء وحر الصيف، كي لا تسمع الكلام إلى الغني الذي لبس البز والارجوان: «اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك» (لوقا ١٦ : ٢٥). وأيضاً كي لا يجوز فيك وعيد حزقيال: «فتنزل جميع رؤساء البحر عن كراسيهم، ويخلعون جببهم، وينزعون ثيابهم المطرّزة» (حز ٢٦ : ١٦). تحت هذه اللائحة يندرج أيضاً: كثرة الاستحمام، البيوت الفخمة والمنيفة، والسجاد الفخم، والرياش الفاخر مع الأسرّة الوثيرة، والاستلقاء عليها. حذار من هذا كله ما دمت تبدي نقاوة هي السبب في الصور والحركات والاثارات الشهوانية وأعمال الجسد، لئلا يصيبك ما أصاب الذين توعّدهم عاموس: «ويل... المستلقون على أسرّة من عاج...» (عاموس ٦ : ١ ـ ٤). ان ما سبق أن ذكرته هو تراب حُكم على الحية (المجرّب) أن تلعقه، وهو طعام تغتذي به أهواؤنا الجسدية أيضاً. فعندما تحتقر هذه الأمور، ولا تلتفت إليها، إنما تتسلّح بالشجاعة كي تحول دون انسلالها إلى نفسك وقلبك عبر الحواس، فأنا أؤكد لك أنك ستسحق بأس الشر والأهواء، لأنك ستقطع عنها ما تقتات به لتنمو. أما أنت فتصبح بعد أمد قصير، من الظافرين الشجعان في الحرب الروحية. لقد جاء في سفر أيوب: «الليث هالك لعدم الفريسة» (اي ٤ : ١١). الليث هو الشرير، عدونا الدائم، الذي سرعان ما يفر ممن حجب عنه طعامه، فبتر واستأصل كل الحركات الشهوانية المتولدة بفعل الحواس الخارجية. قال الرهب جوبيوس في كتابات البطريرك فوطيوس: الشيطان أشبه بأسد النمل (ant-lion): فهو يشرع في افساد الإنسان، بزجّه في خطايا صغيرة صغر النمل. فعندما يعتاد الانسان عليها، ويألفها، يعود ليلقيه في الكبيرة منها. هكذا حال الشيطان، فهو في البداية يبدو ضعيفاً، وصغيراً كالنملة، لكنه سرعان ما يتحوّل، فيظهر مارداً ضخماً، وليثاً شرساً.

الفصل الخامس والعشرون

في ضبط اللسان

إنها ضرورة قصوى أن نضبط لساننا ونلجمه، فمحرّك اللسان هو القلب، وما يملأ القلب، هو الذي يخرج إلى الخارج بواسطة اللسان. وعلى العكس، فالمشاعر التي تخرج من القلب، عن طريق اللسان، من شأنها أن تتمتّن وتتجذّر في القلب. وهكذا، فالقلب هو عامل أساسي في استعدادنا الداخلي. الأحاسيس الطيبة الحسنة، هي على الدوام صامتة، أما تلك التي تبحث عن تجسيد، بالكلمات، فكثيراً ما تكون أنانية وذاتية، فهي تبغي التعبير عمّا يُطرّي محبتنا لذواتنا. كثيراً ما تتولد الثرثرة من المجد الفارغ، بحيث نتوهّم معرفة الكثير، وهكذا نسعى إلى زخرفة رأينا في موضوع النقاش كي يلقى استحساناً أكثر من رأي الآخرين.. بهذا نحن نتلمّس بالخبرة شراً لا قدرة لنا على مقاومته، فنتشدّق بسيل من الكلام وبلجاجة وتكرار، كي نعبّر عن رأينا ذاته مقحمين أنفسنا في قلوب الآخرين كمعلمين. وكثيراً ما نحلم أن نجعل الناس تلامذة لنا في موضوع يفقهونه أكثر من معلم. وهذا على أية حال، يشير إلى الأوضاع التي تكون فيها موضوعات الحديث، جديرة بكل انتباه. كثيراً ما تكون الثرثرة رديفاً للكلام الباطل، عندها لا يعود هناك من كلام يكفي للتعبير عن الشرور التي تتولد من هذه العادة الذميمة. والثرثرة عموماً قادرة أن تشرّع أبواب النفس فيفرغ القلب من الحرارة والتقوى. أما الأحاديث التافهة فلها نفس المفعول، إنما بصورة أكثر فعلاً وتأثيراً. فمن شأن الثرثرة أن تشتّت انتباه المرء لنفسه، وأن تجعل القلب مجرداً من كل غطاء وحماية، وهكذا تشرع الميول الشهوانية

والأهواء، بالانسلال إلى النفس. وكثيراً ما يكون ذلك بنجاح، بحيث أن القلب بعد حديث تافه، لا يعود يرضى إلا بالنزوع إلى ارتكاب الأعمال الشهوانية. الأحاديث التافهة هي باب الاغتياب والوقيعة، ومروّجة الاشاعات المغرضة المختلفة. والآراء المزيفة، من شأنها أيضاً أن تغرس بذار المشاحنة والنزاع، فتخنق العمل الذهني الداخلي. انها غطاء الجهل وعلامة لانتفاء المعرفة الرصينة. بعد حديث كهذا، يرتفع ضباب عشق الذات، ليعم أرجاء النفس، فيخلّف بعد ذهابه، احساساً بالبلادة والفشل. أليس في هذا دليل أن النفس قد سرقت قسراً؟ ولكي ابيّن كيف يصعب على الثرثار النجاة من الأخطاء والأذى، أسوق قولاً ليعقوب الرسول يرى فيه أن حفظ اللسان في الحدود اللائقة به، هو من سمات الكاملين: «ان كان أحد لا يعثر في الكلام، فهو انسان كامل قادر أيضاً أن يلجم كل الجسد» (يعقوب ٣ : ٢). ما إن يبدأ اللسان بالكلام بدافع الشهوة، حتى ينطلق كالفرس الجامح غير الملجوم فيغشى ليس فقط أعماله الصالحة إنما الضارة أيضاً. هذا ما جعل الرسول يدعو اللسان «شراً لا يضبط مملوء سماً مميتاً» (يعقوب ٣ :٨). وقبله بكثير قال سليمان: «كثرة الكلام لا تخلو من معصية» (أمثال ١٠ : ١٩). ليكن كلامنا على العموم، على غرار الجامعة في أن الثرثار يبدي حماقة، والجاهل يكثر الكلام (جامعة ١٠ : ١٤). لا يطل حديثك لإنسان لا يسمعك بقلب سليم، وذلك كي لا تضايقه فيبغضك كما جاء في الكتاب: «من يزيد الكلام مرذول» (سيراخ ٢٠ : ٨). حذار من الكلام بسلطان أو قسوة، فهذان لا يليقان، ومن شأنهما أن يجعلا الناس تشك بك وبفكرتك عن ذاتك. لا تتكلم عن نفسك أو شأنك أو أنسبائك إلا عند الضرورة، وباختصار وبكلام قليل قدر الإمكان. أما إذا رأيت من يتحدثون عن ذواتهم باسهاب، فجاهد كي لا تحذو حذوهم، حتى ولو بدت كلماتهم متمسكنة وتوحي بتقارب فكري. أما عن جارك وأحواله، فتكلم، لكن على قدر ما تستطيع من الاختصار، حتى ولو كان كلامك في مثل هذه الأمور لخيره ومنفعته. أثناء الكلام لا تنسى نصيحة القديس ثلاسيوس وهي: هناك خمسة أوضاع للحديث إلى الآخرين، اعمد إلى

ثلاثة بتمييز ودونما خوف. وليكن استخدامك للرابع، قليلاً. لكن حذار من استعمال الخامس» (فيلوكاليا ـ المئوية الأولى ـ ٦٩). لقد فهم البعض أن الثلاثة الأولى هي: نعم، لا، أو. وفهم الرابع على أنه يتعلق بالأمور غير المتيقّنة. أما الخامس فهو عن الأمور التي لا تعرفها أبداً. ما معنى هذا الكلام؟ معناه أنك من جهة الأمور التي تتيقّن من صحتها أو خطئها أو وضوحها، ليكن كلامك باقتناع على أن هذا صحيح، خطأ، أو واضح. أما من جهة الأمور المشكوك بصحتها، فلازم الصمت، لكن عند الضرورة، صرّح أنها غير أكيدة، وذلك كي يأتي حكمك صائباً. وما تجهله، لا تنطق به أبداً. ويقول آخر: لدينا خمس صيغ من الكلام: واحدة للنداء، عندما تخاطب إنساناً. وأخرى للاستفهام، عندما تطرح سؤالاً. وثالثة لالتماس العطف، لدى التعبير عن أمنية أو رجاء. وأخرى للجزم، عندما نتكلم على نحو قاطع في أمر من الأمور. وأخرى للأمر، عندما نتكلم عن شأن ما بقوة وسلطان. من هذه الخمس استعمل الثلاث الأولى بدون تحفظ، والرابع فنادراً. أما الأخير، فلا تعمد إلى استعماله أبداً.

ليكن كلامك عن الله بوقار، لا سيما عن حبه وخيريته. لكن انتبه في أن لا تخطئ فتسيء إليه، وتسبب عثرة لدى السامعين البسطاء. لذا يليق بك سماع الآخرين في هذا الموضوع فتجعل كلماتهم في بيت كنزك الخفي (القلب). أما عندما يكون الكلام في غير شأن الله، فاسمح لنبرات الصوت فقط أن تدخل مسمعك دون أن ينسل الفكر إلى ذهنك الذي ينبغي أن يكون موجّهاً نحو الله بثبات. وإن كانت الضرورة تدعوك إلى الاستماع، كي تفهم ما يقال، أو كي تجيب برد مناسب. لا تنسى في سماعك وكلامك أن ترفع عيني ذهنك إلى الله. فكّر في عظمته، وتذكّر أنه لا يكف عن النظر إليك، سواء برضى أو بامتعاض، وذلك حسب فكر قلبك وأفكارك وحركاتك. عندما تتهيأ للكلام، بادر إلى فحص أفكارك جيداً لا سيما التي تروم التلفظ بها، وهكذا تجد أموراً كان من الأفضل التكتم عنها. فثمة أمور نظن أنه يحسن التعبير عنها، لكن من الأجدى أن ندفنها في قبر السكوت. أحياناً، ستدرك هذا الأمر،

عندها بادر إلى التوقف عن الكلام.

الصمت قوة عظيمة في الحرب الروحية. إنه رجاء أكيد بنيل النصرة، يحبه ذاك الذي لا يثق بنفسه، بل يتكل على الله. الصمت حارس للصلاة المقدسة. انه عون كبير في التدريب على الفضائل. الصمت هو علامة الحكمة الروحية. ويقول القديس اسحاق السرياني: «حراسة اللسان لا ترفع الذهن إلى الله وحسب، إنما تعطي دفعاً داخلياً قوياً لاتمام الأعمال المنظورة التي يؤديها الجسد. الصمت بمعرفة هو استنارة في الأعمال الخفية» (الفصل ٣١ من الطبعة الروسية). وفي موضع آخر نراه يمدح الصمت قائلاً: «ان جعلت كل أعمال النسك في كفة، وجعلت الصمت في الأخرى، لرجحت كفة الأخيرة على الأولى». وأيضاً: «الصمت سر الدهر الآتي، أما الكلام فهو وسيلة هذا العالم».

إلا أن القديس برصنوفيوس يجعل الصمت في مرتبة تسمو على التعليم بكلمة الله، فيقول: «ان كنت كاملاً في كل ما يتعلق بالتعليم، فاعلم أن الصمت أجدر، وانه أكثر مجداً وفخراً». يمكن للمرء أن يكون صامتاً عندما لا يملك ما يجيب به. كما ويمكن أن يصمت آخر لأنه عارف بالوقت (سيراخ ٢٠: ٦). ويضيف القديس اسحاق السرياني دواعي أخرى للصمت، فيقول: «قد يصمت المرء من أجل مجد بشري، أو طمعاً في فضيلة السكوت، أو أنه يصمت، ليشترك مع الله في قلبه في الخفاء. وهذا الأخير لا يريد أن يشتت يقظة ذهنه أمام الله». وعلى العموم فحافظ الصمت، عاقل وحكيم ومرهف الاحساس (سيراخ ٢٠: ١ - ٥).

سأبين لك سبيلاً بسيطاً مستقيماً يجود عليك بالصمت: واظب على هذا التدريب، وهو نفسه كفيل أن يلقنك ما ينبغي عمله، ويمنحك عوناً للمضي فيه بحرارة متزايدة. فكّر جيداً، قدر المستطاع، في الأضرار والنتائج الوخيمة المترتبة على الثرثرة والكلام بدون تمييز. فكر في الثمار البهية التي تجنيها من الصمت بحكمة. وما ان تذوق ثمرة الصمت الطيبة، لن تكون بعد ذلك بحاجة إلى المزيد من الدروس عنه.

الفصل السادس والعشرون

في كيفية تقويم الخيال والذاكرة

بعد أن تكلمنا عن الحواس الخارجية، سنتكلم عن كيفية ضبط الخيال وتقويم الذاكرة. فمعظم الفلاسفة يرون أن الخيال والذاكرة هما انطباعات ناتجة عن الأمور الحسية التي رأيناها أو سمعناها أو ذقناها أو تنشّقناها، أو لمسناها. فيقال بأن الخيال والذاكرة هما حاسة داخلية واحدة، تصوّر وتذكّر بكل ما خبرته الحواس الخمس الخارجية سابقاً. الحواس الخارجية هي أشبه بطابع بريدي، أما الخيال فهو مادته اللاصقة. لقد وهبنا الله الذاكرة والخيال كي نستخدمهما عند سكون الحواس الخارجية، وفي غياب المواضيع الحسية. إذ بعد أن تمر هذه الأمور على الحواس، فتلتصق بالخيال والذاكرة - فلا نتمكن من تصوّر الأمور التي رأيناها أو سمعناها أو ذقناها أو استنشقناها أو لمسناها - نستطيع، إذا أردنا، أن نحرّكها في وعينا، عبر الخيال والذاكرة. بهذه الطريقة نفحص الأفكار كما لو كانت أمامنا حسياً. وإليك مثال على ذلك: ربما تكون قد زرت أزمير مرة، ثم غادرتها بعد حين. فإن أردت أن تراها مرة أخرى في وقت لا تكون فيه أمام عينيك الحسيتين، يمكنك أن تتصورها بحواسك الداخلية، أعني بالخيال والذاكرة، فتتخيلها كما هي، بكل ميزاتها المعروفة، بأبعادها ووضعها. هذا لا يعني أن روحك قد تركتك، انفصلت عنك وذهبت إلى أزمير كما يتوهم بعض الجهال، إنما ببساطة، ترى أزمير كما انطبعت في مخيلتك.

وتخيّل الأمور الحسية كثيراً ما يزعج المشتاقين على الدوام للبقاء في حضرة الله. فالتخيّل والتذكر في الأمور الحسية، من شأنهما أن يشتتا

الانتباه ويبعدانه عن الله، وهكذا تضطرب حالة الهدوء الداخلي. ونحن لا نعاني من جراء ذلك، في اليقظة وحسب، إنما في الأحلام أيضاً، حيث ان فعلها يستمر لعدة أيام.

الخيال قوة تخلو من المنطق، وتعمل على نحو آلي تلقائي، خاضعة لناموس توارد الصور. نحن نعلم أن الحياة الروحية هي صورة الحرية النقية، وعليه، فنشاط الخيال، يأتي ليعوّق هذه الحياة. وأجد نفسي في هذا الفصل مرغماً على تقديم بعض النصح: اعلمْ أن الله هو فوق كل أمر حسي. انه فوق الأشكال والألوان والقياس والمكـان. لا نقدر أن نتخيّله، فهو بلا هيئة وشكل، رغم أنه في كل الوجود، لكنه في الوقت ذاته فوق الوجود، وبالتالي فوق كل تخيّل. يقول القديسان كاليستوس واغناطيوس نقلاً عن القديس مكسيموس المعترف (فصل ٦٥): «يتعذر علينا أن نتخيّل الله في الذاكرة، فهو فوق العقل». نستخلص من هذا، أن ملكة الخيال في النفس عاجزة بحسب طبيعتها عن الدخول في نطاق الاتحاد بالله. اعلم أن لوسيفر (الشيطان)، الأول بين الملائكة، كان منذ القـديم فوق جنـون الخيال وطيشـه، حـراً من كـل هيئـة أو لـون أو احساس.. كان مخلوقاً لاهيولياً[1]، عقلاً لاشكل له ولا هيئة. إلا أنه لما أطلق العنان لخياله، امتلأ عقله بصور جعلته يرى نفسه مساوياً لله، فسقط من الشفـافية الخـالية من أيـة هيئة وصـورة، إلى هوى الخيـال الكثيف، والشهوات الرديئة، فتحوّل بذلك من ملاك غير متجسد، يخلو من الهـواجس والأهواء، إلى شيطان، يتجلى بشكـل حسي، عـديـد الأشكال. لقد تعرّض للأهواء. وما آلت إليه حاله، انسحب أثره على كل أتباعه. لقد كتب القديس غريغوريوس السينائي عنها يقول: «كانت الشياطين في وقت ما عقولاً، إلا أنها لما سقطت من اللاهيولي والنقاوة، اكتسبت شكلاً ذا كثافـة، وأصبح لهـا جسد بحسب مستـوى وطبيعة الأمور التي تتميز بها أفعالها. منذ ذلك الحين، كالإنسان تماماً، فقدت البهاء الملائكي السماوي، وطردت من النعيم، كما نحن، وعرفت اللذة

(١) لا مادياً

على الأرض، بعد أن تجسّمت واكتسبت طبيعة الأهواء الحسية (فيلوكاليا - ١٢٣). لهذا أطلق الآباء على ابليس اسم الوسواس أو الحية (الأفعى) المتعددة الأشكال، التي تتغذى بتراب الأهواء وتربّي الخيالات وما إلى ذلك من أسماء أخرى. أما الكتاب الإلهي فيصفه تنيناً له ذيل ورقبة وأنف وأعين وشفاه وجلد ولحم وأعضاء... (أيوب ٤٠، ٤١).

نفهم من كل هذا يا عزيزي، ان الخيالات والهواجس المختلفة هي من صنع الشيطان وحيله. لذلك فهو يرحب بها كثيراً لأنها تنفعه في ضربنا وتدميرنا. لقد شبّه الآباء القديسون تلك الهواجس، بجسر تعبر عليه الشياطين القتلة، الى نفوسنا. وهناك من النفس، تحرّك الخيالات والهواجس ضدنا كما لو انها خلية نمل، فتصير مأوى للافكار المرعبة الدنسة وكل صنوف ادناس الجسد والنفس. الله بحسب القديس واللاهوتي الكبير مكسيموس المعترف، خلق الانسان، ادم، نقي العقل يخلو من تشوش الصورة ولا يتأثر بالحواس او الحسيات. لم تكن في الانسان قوة التخيّل الدنيء. لم يكن يعرف ولا يجد للحسيات شكلاً او حجماً او لوناً. كان يتأمّل بفعل قوة نفسه العليا (الذهن)[1] في روحانية وطهارة غريبة عن ازعاجات المادة... إلاّ ان الشيطان قاتل البشر، لما سقط هو نفسه بتخيّلات مساواته لله، أغوى ادم بالطريقة نفسها (التخيّل)، فسقط من النقاوة اللاهيولية الخالية من الخيال، المضارعة لسيرة الملائكة، ونزل الى التعقيد الحسي والشهوات الرديئة والاوهام والتخيلات، الى حالة البهائم التي لا عقل لها. دخوله في تعقيدات الحسيات، هو بهيمية لا عقل فيها وليست هي طبيعة المعقولات (الخلائق العاقلة). من يقدر ان يطلعنا عما حل بالانسان من شرور واهواء بعد سقوطه؟ لقد امتلاءت قيمه الاخلاقية بالخداع، ومفاهيمه الطبيعية، بتعاليم خاطئة. اما لاهوته فعمّ ارجاءه ترّهات كثيرة غير لائقة ولا معقولة. لم يقتصر ذلك على القدامى وحسب، بل شمل من بعدهم، الذين ارادوا ان يتفحّصوا الله ويجادلوا شؤون اسراره الالهية بتخيلاتهم، دون ان يدركوا ان هذا شأن النفس العليا (الذهن)، فالله في جوهره بسيط.

(١) نوس

الا انهم تجرّأوا على هـذا الفحص بعقول غـير نقية. . . فخلصـوا الى الاكاذيب، بدل الحق. ومن المؤسف جـداً ان قلوبهم ونفوسهم قبلتهـا وتمسكت بها بحجة انها الحق، فتاهوا رغم كونهم لاهوتيين. لقد جاز في هؤلاء قول الرسول: «اسلمهم الله الى ذهن مرفـوض» (رو ١ :٢٨). طالع هذا في كتابـات القديس اسحق السريـاني، لا سيما رسـالته الى القديس سمعان (فصل ٥٥).

لذلك يا اخي، ان اردت ان تتحرر من كل هذه الهفوات وتقصي الاهواء عنك، ان كنت تفتش عن الهرب من فخاخ الشيطان، ان كنت في توق الى الاتحاد بالله وتطمع في نيل النور الالهي، بادر على الفور الى الحرب ضد خيالك. قاتله بما اوتيت من قوة وعزم كي تنتزع ذهنك من كل الامور الخبيثة وذكريات الحسيات الجيدة منها والرديئة، لأن هذه من شأنها ان تعتم نور ذهنك وتشوش طهارته وتجعله كثيفاً حتى في الامور اللاهيولية، فيعود الذهن الى اهوائه. في الواقع ليس هناك من هـوى ـ جسـدياً كـان ام نفسياً ـ يقـدر ان يدنـو من الذهن بـدون تصـويـر الحسيات. لهذا جاهد كي تحفظ ذهنك خاليـاً من كل شكـل وصورة ولون، كما خرج من يدي الله. وكي تبلغ ذلك، يعوزك ارجاع ذهنك الى ذاته. احصره في قلبك الضيق وفي الانسـان الداخـلي كله. درّب نفسك على البقاء في الداخل، سواء بالصلاة الداخلية (ايها الرب يسوع المسيح ابن الله ارحمني)، او بفحص نفسك بكل عناية وانتباه. وفوق كل هذا تأمل في الله، من هناك، ولتكن راحتك فيه.

عندما تريد الافعى خلع جلدها القديم، فانها تجعل نفسهـا في مجال ضيق، كما يطلعنا الـطبيعيون (naturalists)، وهكـذا تتحرر من جلدها. الذهن ايضاً اذا ما جُعل في طريق القلب الضيق واقترن بصلاة الرب يسوع، من القلب، يستطيع ان يخلع ثوب تخيل الحسيات الممقوتة، وينعتق من صور المحسوسات، فيتنقى ويصبح جميلاً واهلاً للاتحاد بالله. وكما ان القناة الضيقة يزداد تيارها زخماً وارتفاعاً، هكذا ضبط الذهن بالرياضات الروحية الخفية ويقظة الـذات، تدفعـان الذهن بقـوة نحو

العلاء. واليك تبيان ذلك: اشعة الشمس المبثوثة في الفضاء وغير المتحدة ببعضها، هي اقل دفئاً ونوراً منها لو اجتمعت عبر عدسات محددة، فيكون نورها باهراً وحرارتها محرقة. هكذا عندما ينجمع الذهن (النوس) الى ذاته في مركز القلب، فانه يضيء ويسطع بالرياضات الخفية، ولا تبقى فيه ظلمة الاهواء، لأنه يبيد سائر التصورات الحسية، ويبدد حركات الاهواء.

هذا هو النهج الاول والرئيس لضبط الخيال والذاكرة. فمارسها يا عزيزي على الدوام، اذ بها تقوّم الخيال والذاكرة اللذين هما من قوى النفس، وتبدد كل اثر او صورة او انطباع لصق بك عبر الحواس والحسيات التي تحرّك الاهواء ضدك، وتغذيها بآن. لكن نظراً الى فوائد هذا المنهج وفاعليته، فقد زادت صعوباته، وقلّ عدد من رغب في استخدامه. الذين يؤمنون بفاعليته يندرون، وقد مجّه الكثيرون، لا سيما المتعلمون والحكماء، ليس العلمانيين فقط، بل الاكليريكيين ايضاً، الذين رفضوا تصديق تعليم الروح في الاسفار الالهية وفي كتابات الاباء القديسين. والرب قال: «.. اخفى هذا عن الحكماء والفهماء واعلنها للاطفال..» (لوقا ١٠: ٢١)، أما الذين لم يثقوا بفاعلية هذا العمل الداخلي، فأحجموا عن ممارسته، فأشعيا يتوعّدهم بقوله: «ان لم تؤمنوا، فلا تأمنوا» (أشعيا ٧: ٩). وحينما تشعر ان التعب قد نال من ذهنك، وما عاد قادراً على متابعة صلاة القلب (الذهن والقلب)، فاعمد الى الطريقة الثانية واستخدمها:

دع ذهنك يتمتع بحرية في التأمل الروحاني، سواء من الاسفار المقدسة، او من ابجاءات خلائق الله، لأن مثل هذا التأمّل غير بعيد عن طبيعة الذهن الشفاف غير الهيولي. بهذا المنهج انت لا تحبس الذهن، انما تسد ظمأه بلا تشوّش، وضمن اطاره وحدوده. التأملات هذه، تحث الذهن على الرجوع الى القلب، للاتحاد بالله، عبر تذكّر قداسته. لهذا السبب يقول القديس مكسيموس المعترف: «الذهن بمفرده لا يقوى على التحرر من الاهواء، بل يجب ان يتفرّغ الى تأملات مختلفة». حذار ان

تنحصر في الطرف المنظور من خلائق الله، سواء كانت هذه الخلائق جامدة ام حية، او عندما ترزح تحت نير الاهواء بحسب تعليم القديس مكسيموس، حيث يكون الذهن غير متحرر بعد من النظرة الحسية الشهوانية. فبدل ان يتخطى المحسوسات، ليدخل الى الافكار الروحية الحلوة، ينجذب تحت تأثير الجمال الخارجي والتلذذ به، فيخرج بتصورات زائفة ويعلق بالشهوات، الامر الذي اودى الى سقوط كثيرين من المفكرين والطبيعيين. بالمنهج الثالث يمكنك ان تفسّح لذهنك بقسط من الراحة، ومفاد ذلك ان تتأمّل في اسرار حياة والآم الرب: مولده في مغارة، ختانته، تقديمه الى الهيكل، معموديته في الاردن، صومه الاربعيني في القفر، تعاليمه في الانجيل، عجائبه العديدة، تجليه على طور ثابور، غسله لأرجل تلاميذه، تسليم الاسرار في العشاء الاخير، خيانة يهوذا، الآم الرب، صلبه، موته، دفنه، قيامته وصعوده الى السماء. تأمل اوجاع الشهداء ومآثر القديسين في نسكهم الشديد والطويل الامد. وكي ينسحق قلبك وتحرّك فيه مشاعر الندامة، تأمل في ساعة الموت الرهيبة، والدينونة المخيفة، والعذابات الابدية المتنوعة، وفي بحار من النيران الدائمة، والهاوية القاتمة، وظلمة الجحيم، والدود الذي لا ينام، والعيش مع الشياطين. تأمّل في السلام الكامل والفرح الذي يتعذّر وصفه الذي صار اليه الابرار في السموات، والمجد الابدي. فكّر بالنعيم الدائم واصوات المعتَقين. فكّر بالاتحاد الكامل مع الله والشركة مع الملائكة والقديسين. وان كنت تستحضر هذه الافكار يا عزيزي، وتمرّرها على صفحات خيالك، فانك ستنعتق من الافكار الرديئة، والذكريات الدنسة، فمساعيك ستزكّيك يوم الدين، كما يقول القديس باسيليوس في البتولية: «كل انسان، في حياته بالجسد، هو اشبه برسام يرسم لوحة في الخفاء، فعندما ينجزها، يخرج بها ليراها الناظرون، فينال التقريظ، ان وفّق في اختيار موضوعه، فرسمه باتقان، او، يلام على رداءة ما قد انجز. هكذا هو كل انسان بعد الموت، فانه يخرج الى دينونة الله، فيمدحه الله والملائكة والقديسون، ان هو زيّن ذهنه وخياله بالصور الروحية والقامات الالهية والافكار الحسنة. او انه يخزى، ان كان قد ملأ

ذهنه بصور الشهوات الدنسة.

لقد انذهل القديس غريغوريوس التسالونيكي من الطريقة التي بها تؤثّر المحسوسات على النفس، بواسطة الخيال. فهي اما ان تنير الذهن، فتودي به الى حياة النعيم الدائم، او تحل ظلمة العقل، فتقوده الى الهلاك والجحيم (الفيلوكاليا اليونانية ـ ٩٦٩). ولست اقصد ان تنهمك على الدوام بهذه الافكار وحسب، انما بمقدورك استخدامها حيناً، حتى يستريح الذهن الذي ارهق نتيجة للتضييق عليه في القلب. بعد هذه الراحة، عد به الى القلب من جديد، وارغمه على المكوث هناك بدون خيالات الصور الدنيئة، واذكر الله فيه على الدوام. وكما ان حيوانات البحر (المحار) لا تستقر الا في اصدافها، هكذا الذهن، فانه لا يجد سلامه الطبيعي، إلاّ في مخدع القلب الداخلي، فيخلد اليه كمن يقيم في قلعة محصّنة. في القلب يرقب حربه بنجاح ضد الافكار والاعداء والاهواء المعششة هناك، وكثيرون يجهلون ذلك. ان اختفاء الاهواء داخل قلوبنا، لمقاتلتنا منها، ليست هي نظرتي انا. انما استمع لما يقوله الرب: «لأن من القلب تخرج افكار شريرة، قتل، زنى، فسق، سرقة، شهادة...» (متى ١٥ : ١٩ ـ ٢٠). كذلك ليس من ابتكاري القول بأن اعداءنا يربضون بجوار القلب. الآباء القديسون يعلّمون ذلك. وقد كان القديس ذياذوخوس فوتيق اكثرهم تحديداً حينما اعلن بأن النعمة الالهية تحرّك الانسان من خارج نحو الخير، بينما يكون الشيطان رابضاً في اعماق النفس والقلب. لكن بعد المعمودية تبدأ الشياطين بالطواف حول الانسان من خارج، لأن النعمة الالهية هي التي تكون في الداخل (فيلوكاليا ـ ٧٦). ويذهب القديس الى أبعد من ذلك، فيقول بأن الشياطين يسمح لها حتى بعد المعمودية ان تخترق اعماق اجسادنا لتبلغ الى سطح القلب، وذلك اختباراً لارادتنا. لهذا الغرض تلوّث الشياطين الذهنَ بملذات الشهوات الجسدية.

القديس غريغوريوس اللاهوتي يعلّمنا الامر نفسه، فيفسّر لنا ما قاله الرب عن الروح الدنس الذي يبارح الانسان ليعود اليه من جديد،

فتكون نهاية الانسان شراً من اوائله (متى ١٢: ٤٣ - ٤٥). ويقول القديس غريغوريوس بأن هذا يصيب المعتمد ايضاً، ان لم ينشغل بالبقاء داخل قلبه. واليك كلمات القديس: «الروح الدنس المطرود من المعتمد. . . يطلب الراحة هنا وهناك. . فلا يجد، فيقفل عائداً الى البيت الذي سبق ان غادره. فان وجد ان المعتمد متمسك بالمسيح، بحب ولهفة، وان المسيح مستقر حيث كان الشيطان، فانه سيخفق في الدخول. . . اما اذا عاد ورأى المكان خاوياً ولا مكان لله فيه، فانه ينسلّ على عجل، بخبث يفوق المرة الاولى، وهكذا تكون خاتمة ذلك الانسان، اسوأ من اوائله».

لقد توخّيت اطالة الكلام كي احثّك على المداومة على جمع الذهن في القلب مع تذكّر ربنا وفادينا، والصلاة اليه. فأنت عندما تكون هناك مع الرب، فان العدو لا يتجرأ على الدنو، فتبقى انت منتصراً في الضيق الذي ترميك به الافكار والافكار الشهوانية التي تداهم القلب. واقول لك، قبل اي شيء، ان تتيقظ، فلا تدع خيالك وذاكرتك تسترجع صوراً كنت رأيتها، او اموراً، كنت سمعتها، او استنشقتها، او ذقتها، او لمستها، لا سيما اذا كانت من النوع المخزي غير اللائق. من السهل تحاشي القتال، بالحرص واليقظة، إلاّ انه يصبح صعباً بعد استعمال الحواس. ومن يجاهد، يعرف ذلك حق المعرفة. ان اعتراضك على تجربة حسية، امر ممكن. اما اذا كنت وافقت عليها، ولو مرة، فمن العسير ضبط الخيال والذاكرة بعد ذلك. فان كنت تنظر الى وجه ما، او لا تنظر اليه، او كنت تنظر اليه بشهوة، او بدون شهوة، فهذا امر ممكن، ولا يحتاج الى عناء كبير. لكن بعد النظر بشهوة، لا يعود من السهل تبديد تلك الصورة التي لصقت بالذهن، والمجهود لا بد ان يكون كبيراً، والجهاد الداخلي، غير سهل. فالعدو قادر اذ ذاك، ان يلعب بالنفس كما بكرةٍ، فيجول بك بين الذكريات، ويرميك بالاهواء المحتجبة وراءها، فتكون في ضيق مستديم. لهذا اقول لك: تيقّظ على الدوام، وفوق كل شيء، ارصدْ خيالك وذاكرتك.

الفصل السابع والعشرون

يتوجّب على جندي المسيح الذي يرغب بحق ان يهزم اعداءه، ان يتحاشى كل عوامل الاضطراب في القلب

المسيحي الذي يفقد سلامه، لا يهدأ، ولا يستريح، بل يجدّ حسب وسعه، لاسترجاعه. وعليه ان لا يتيح لأي عارض في الحياة، ان ينال من سلامه، سواء كان مرضاً ام جرحاً ام رقاد احد الاقارب، او الحروب، او الحريق، الافراح الفجائية، المخاوف والضيقات، تذكّر الخطايا القديمة، وهفوات الحياة. وباختصار، كل ما من شأنه ان يثير القلب ويزعجه. وفي حال حدوث امور كهذه، علينا ان لا نستسلم لأحاسيس القلق والاثارة. فالرضوخ لمثل هذه المشاعر قد يفقد الانسان عزمه وقدرته على فهم الامور بجلاء، ورؤية اسلوب العمل الصحيح، مما يتيح للعدو ان يثيرنا اكثر، على نحو يجعل الواحد منا يُقدم على امر خطير يتعذر شفاؤه.

هذا لا يعني ان تكون بلا غم، فهذا ليس في متناولنا. لكن ما اعني هو ان لا تجعل للكآبة سبيلاً الى قلبك، بل اجعلها خارج قلبك. ثم بادر بعد ذلك الى تهدئتها وكبح جماحها كي لا تحول دون قيامك بالعمل اللائق والمعقول. ان هذا هو في متناولنا، بنعمة الله، عندما تكون مثلنا ومشاعرنا الدينية والمناقبية راسخة فينا.

لكل تجربة طابع خاص، وتستدعي علاجاً محدّداً. واذ ان كلامي على التجارب يأتي عامّاً، فأنا اراعي الامور المشتركة في ما بينها - كإغاظة النفس واثارتها - راسماً للذهن نهجاً علاجياً عاماً ازاءها. انه الايمان

بعناية الله التي تنظّم شؤون حياتنا بكل تفاصيلها ودقائقها، وما فيها من عوارض، لمنفعة كل واحد منا. من هذا علينا التسليم لارادة الله، برضى، قائلين من صميم القلب: لتكن مشيئة الرب، كما يشاء الرب، فمشيئته تعمل لخيرنا ومنفعتنا. لا يتساوى الناس في مشاعرهم من قبيل الخير القائم في التجربة. فهذا يرى فيها لطف الله الذي يقود خطاه الى التوبة. وآخر: التجربة ارسلت لي من الله بداعي خطاياي، كي اتطهّر، وسوف أتلقى قصاصه لي بصبر. وثالث يرى بأن الله يجرّبه كي يمتحن قامة ولائه له. وآخر يظن - وهو يرى الامر من الخارج - ان التجربة نزلت به كيما تتجلى اعمال الله فيه. إلاّ ان حكماً كهذا، لا يأتي إلاّ بعد عبور التجربة، فتكون معونة الله جليّة في الذي جرّب. علينا الأخذ بالمشاعر الاولى الثلاثة، فكل منها فضيلة لها وزنها في اخماد الغم واحلال السلام في القلب عندما تلجه. وها امامك وسائل عامة تحل السلام في القلب عندما تحاول التجارب ان تشوّشه.

ثبّت ايمانك بعناية الله بك، ساعياً بكل ما في وسعك، كي تفكر على هذا النحو.

جدّد في داخلك مشاعر التسليم السابق ذكرها، مع التكريس لمشيئة الله.

اجعل في قلبك الافكار الآنفة الذكر، وأنعم فيها، كي تدرك ان تجربتك كانت لتحثّك على التوبة على نحو عام او خاص، او هي لتحثّك على التوبة عن افعال سالفة صارت طي النسيان. فعندما يشرع القلب بمثل هذا الاحساس، يتضاءل الضيق تواً، فتتولّد فيك احاسيس اخرى، كأن تكون التجربة عقاباً على خطايا، او لاختبار الامانة في خدمة الرب. ومن شأن هذه المشاعر ان ترد لك سلامك وتعزيتك على عجل، فلا تقدر الاّ ان تقول: «ليكن اسم الرب مباركاً الى الابد». ان مثل هذه المشاعر في قلب جزع، لهي كالزيت فوق صفحة الامواج، يسكّنها، فيصير هدوء عظيم. وان اضطرب قلبك على قدر ما، جاهد

كي تسترجع سلامه، فبالمداومة والجهادات الروحية الكثيرة، تنغرس مثل هذه المشاعر في القلب، حتى يبلغ الشبع، عندها يستحيل على اية تجربة ان تنال منك، فاستعدادك يصدّها بنجاح. ولست اقصد ان احاسيس الحزن لن تداهمك بعد الآن، إلاّ انها متى اتت، ستنكفئ تواً، كأمواج البحر امام صخرة شامخة.

الفصل الثامن والعشرون

ماذا نعمل عندما ننجرح في المعركة؟

ان جُرحتَ بداعي رضوخك لخطيئة ما، سواء عن ضعف، او من طبيعة قيمك الخاطئة (كأن تتلفّظ بكلمة غير لائقة، او تفقد هدوءك، او خامرك فكر شرير، او هوى اضطرم فيك. . .)، فلا تفقد قلبك، فتجعله اسيراً لضوضاء لا معنى لها.

في الاول وقبل كل شيء، لا تزهو بنفسك فتقول: كيف أصابني ذلك؟ هذا كلام زهو وكبرياء. انما بادر الى التواضع وارفع عينيك الى الله وانت تردّد بكل رهافة: ماذا يرتجى من خاطئ ضعيف مثلي يا رب غير هذا؟» بعد ذلك ارفع الشكر له، فالأمر لم يكن اكثر مما كان، وقل: «لولا رحمتك التي لا تحد يا رب، لما توقفتُ حيث توقفتُ، بل كنت سأصير الى ما هو اسوأ».

وفي أي حال، لا تدمج شعورك هذا بالتساهل مع نفسك، كي لا تسقط في طيش الفكر، فتدّعي بأنك كما انت، وهذا يبرر خطيئتك. كلا. فرغم ضعف طبيعتك، وامكانية سقطتك، فأنت مجرم بما ارتكبت، لا سيما وانك تتمتع بمشيئة حرة[1]. فما تقترفه، سبق ان عُرض على ارادتك. فكل خير هو لك، والشر يعمل ضدك. لا يبرئ ساحتك مجرد الاحساس انك رديء، على اساس ما فعلت. بل بادر الى دينونة نفسك، ولا تفتش حولك عمن تعاتبه، فالناس والظروف التي حولك، لا يحملون تبعة إثمك. اللوم كله موجّه الى ارادتك. فبادر الى ملامة نفسك.

---

(١) self- authority

لا تحذو حذو من يصرّح فيقول: اجل، لقد اقترفت ما اقترفت، فأين المشكلة؟ كلا، فأنت منذ ان تتنبه لخطيئتك، بادر الى لوم نفسك على اساس دينونة الله المحتومة. عجّل الى اضرام مشاعر الندم والانسحاق، ليس بداعي انجرافك نحو الخطيئة وحسب، بل لأنك بخطيئتك، جرحت الله الذي لطف بحالك، وحثّك داعياً إياك الى التوبة وترك الذنوب السالفة ومساهمتك في اسراره، وقيادتك ورعايتك في الدرب القويم كي تنمو. فخير للندامة ان تكون عميقة، وتخلو من الشك بالغفران الذي أعد لك بالتمام من قبل، والخطايا التي زالت على خشبة الصليب. التوبة هي واجب كل من يطمع بعمل المسيح الخلاصي. لذا اسجد بكليتك واصرخ: «ارحمني يا الله كعظيم رحمتك..» (مزمور ٥٠). لا تتوقف حتى تبلغ الندامة وتشعر بنيل الغفران، فالملامة والغفران متلازمان. ان هذه النعمة تحل في نهاية المطاف على كل تائب، وتقترن بالعزيمة والتعهد بأن لا يتساهل المرء مع نفسه مستقبلاً، بل يرصد حركاتها بدقةٍ، فيتّقي السقطات الصغيرة والكبيرة، مواظباً على الصلاة من اجل النعمة لكل اعمالنا. لقد ثبت ان عدم الاعتماد على النفس، هو الذي يدفع القلب الى طلب المعونة من الله: «قلباً نقياً اخلق فيّ يا الله..» (مزمور ٥٠). عليك بملامة النفس والانسحاق والصلاةالمفعمة بترجي الغفران، مع عزيمة توحي اليك بمراقبة النفس، لاحقاً، والصلاة من اجل النعمة، لتثبيتها فينا، في مسعانا، وفي كل آن، عندما ترتكب خطيئة - من اي نوع - بالعين او الاذن او اللسان او الشعور. لا تدع الخطيئة تساكنك ولو لدقيقة، انما بادر الى البوح بها. لا تتوانى عن تطهير قلبك بالتوبة النقية امام الله. وان حدث وسقطت بعد ذلك، فبادر الى عمل الامر نفسه. بعد كل اثم، بادر الى طلب النقاوة في حضرة الرب. سرّ الامر لأبيك الروحي في مساء اليوم نفسه، ان امكن. وإلاّ عجّل الى ذلك في اقرب فرصة، فالاعتراف امام الاب الروحي، مفيد جداً في الحرب الروحية. لا شيء يردّ العدو على اعقابه، ويلحق به الهزيمة، غير هذا. فهو يتوق الى اعاقتك بكل الوسائل المتاحة، الخارجية منها والداخلية. اما داخلياً،

فبالافكار والاحاسيس. وخارجياً، فبتوفير الدواعي للقاءات والامور الباطلة. لكن مهما كان الثمن، انتبه كي تكتشف الاعيبه. سأسوق لك امراً: لا تنسى ان العدو يتلهّف جداً الى اقناعك بتأجيل النقاوة الداخلية توا. فهو يوجس لك بأن الخطيئة امر معروف، لكن تريّث بعض الشيء، للحظة، لا ليوم او ساعة. فأنت عندما تقبل اتجاه هذا، فانه يبادر الى اعداد خطيئة اخرى يرميك بها. بعد خطيئة اللسان، خطيئة العين وخطايا الحواس الاخرى. وهكذا، فأنت في النهاية تتوانى عن عمل النقاوة من جهة الخطيئة الثانية، ويكون ذلك رغماً عنك. ما عليك الا ان تبادر الى تنقية الخطيئة الاولى، فالاهمال يؤول الى الوقوع في خطايا اخرى، ومن شأنه ان يجعل خطاياك تدوم يوماً بكامله، وعند حلول المساء تهمل اعمال التوبة والتنقية. فالنفس قد فقدت قدرتها وشوقها الى ذلك، بعد تشويش كثير، وظلام كثير، بحيث ان النفس تكون بمثابة عين ذُرَّ فيها تراب او ماء موحل، فهي تعجز عن رؤية اي شيء، فيؤول ذلك الى اهمال التوبة، وتُترك النفس في رجاستها. من جراء هذا، تكون صلاة المساء منقوصة والاحلام رديئة.

لذا، لا تتوانى في شؤون النقاوة الداخلية ولو الى حين، بل بادر الى التوبة تواً عندما تتنبّه لخطيئتك. لقد اعتاد الشيطان ان يهمس لنا التكتّم وعدم الافصاح عما يصيبنا، بالاعتراف امام الاب الروحي، فلا تصغ اليه، بل قاومه بشدة، وبادر الى ابيك تبوح له بكل مكنوناتك. فكما ان للاعتراف منافع حميدة كثيرة، هكذا، للتكتم مساوئ واذى، كثيرة، تتولد منه.

الفصل التاسع والعشرون

في نظام الحرب الذي ينتهجه العدو ضدنا في الحرب الروحية، وكيف انه يضلل الناس بحيل داخلية مختلفة

اعلم يا عزيزي، ان دأب الشيطان وهاجسه، هي افساد كل واحد منا. إلاّ ان طريقته الى ذلك، ليست واحدة مع الجميع. ولتبيان ذلك، سأقدم لك خمس حالات داخلية مقرونة بحيل العدو: فهو يستعبد البعض للخطيئة دون ان يكون لديهم اية فكرة عن الانعتاق منها. اما البعض الآخر، فرغم تفكيرهم بالانعتاق ورغم شوقهم اليه، يتقاعسون فلا يبلغون ما يريدون. ثمة اناس ذاقوا العتق وتحرروا من فخاخ العدو وبلغوا الفضائل، لكنهم سرعان ما سقطوا مجدداً بداعي فساد اخلاقي كبير. ثمة اناس آخرون يزعمون، رغم كل ما ذكر، انهم ما زالوا جادّين في معراج الكمال. وآخرون يزيغون امام الفضيلة، إما بداعي التواني، او لأنهم يعكفون على الفضيلة في احوال تتسبب بأذية نفوسهم. فالعدو يبسط الاعيبه امام كل واحد، وفق استعداده وحالته.

الفصل الثلاثون

في كيف يثبّت الشيطان الخطأة في عبودية الخطيئة

عندما يحتجز الشيطان انساناً في عبودية الاثم، فانه يروم جاهداً ان يزيد من ظلمته قدر ما يستطيع، فيضربه بالعمى الروحي، مبدداً فيه كل فكر حسن، كي يفقده القدرة على رؤية الضرر الذي لحق به. ولا يكتفي بتبديد افكار التوبة منه، وحسب، انما يستبدلها بأخرى شريرة وفاسدة، ليجعل الانسان من خلالها، يقدم على الخطيئة التي اضحت بالنسبة اليه امراً عادياً، فيحثه على ارتكابها مع أخرى تفوقها، قدر المستطاع. وهكذا يدخل هذا المسكين في عمق اكبر من ذي قبل. ومن شأن هذا العمى ان يغذي فيه سرعة الاستجابة للخطيئة، وهكذا يستمر على غيّه وخطيئته، فيقوده تباعاً الى ظلمة اعمق، فخطايا اعمق. ويدور المسكين في دوامة اليأس هذه، حتى الموت. الا اذا تلطّف الله بنعمة ترفعه مما هو فيه. فان حدث ان وجد انسانٌ نفسَه في مثل هذه الحالة المأساوية، عليه، كي يتحرر، ان يقبل اية فكرة حسنة بمجرد عرضها عليه، فيلبّي تواً أية دعوة ترفعه من الظلمة الى النور، ومن الاثم الى الفضيلة، فيتيقّظ برغبة ولهفة ودونما تقاعس، بغية تحقيق الدعوة بغيرة صارخاً الى واهب الخيرات الجوّاد، من عمق القلب وقائلاً: «ايها الرب الهي أعنّي، ولا تدعني اتيه في عتمة الخطيئة اكثر». عليه بالمثابرة دونما كلل، رافعاً الى العلاء هذه الكلمات او ما يماثلها. اثناء ذلك، فليعمد الى طلب العون من الارض، بالاحتكام الى من عندهم خبرة النصح والارشاد، لما فيه انجع السبل الى انعتاقه من العبودية المطبقة عليه. وفي حال تعذّر وجود مثل هؤلاء الخبراء (المرشدون)، عليه اقتناص الفرص،

فلا يكف عن الابتهال الى الرب المصلوب عنا ويستشفع امه القديسة العذراء.

ينبغي للرازح تحت الخطايا، ان يدرك ان النصرة على الاعداء، تكون في عدم الابطاء، وفي الاستعداد النشيط للافادة من ظرف مؤات.

الفصل الحادي والثلاثون

في كيف يستبقي الشيطان اولئك الذين تحققوا من فداحة حالهم فرغبوا بالانعتاق، إلاّ انهم لا يتحركون. وما هي الاسباب التي تحول دون تحقيق نوايانا الحسنة، اجمالاً؟

هناك من ايقنوا ان درب حياتهم الرديئة، مأساوي وخطير، الا انهم رغم هذا الادراك فالشيطان قد افلح ووفّق الى احتجازهم وضبطهم تحت سلطانه ، بعد ان عمد الى هذا الايحاء البسيط والفتاك: «فيما بعد، فيما بعد. غداً، غداً.» الانسان البائس ينخدع بهذا الايحاء الداعي للتأجيل، والمتلبّس في العادة بميل حسن في الظاهر، فينوي في نفسه قائلاً: «اجل، غداً هو خير من اليوم. فانا ينبغي ان انتهي من بعض الامور، لأصير بعدها بلا غم وقلق، فأضع ذاتي في خدمة النعمة الالهية، واسلك درب السيرة الروحية بلا اعوجاج. اليوم سأقوم بكذا وكذا، وغداً أتوب.

بمثل هذه الحيلة يعلق الكثيرون يا عزيزي، فيمسك العالم برقابهم. ومن شأن هذه الالاعيب، ان ترمي بنا في التواني وعدم الرؤية، فيصبح اذ ذاك، مجد الله وخلاصنا، في خطر الضياع. مشكلتنا اننا لا نعمد الى السلاح الفتاك والبسيط نستخدمه، وأعني: ان نقول لذواتنا بحرارة: «سأباشر حياتي الروحية منذ اللحظة هذه.. سأتوب الآن، لا غداً. «الآن» بين يدي، اما «الغد» وما يليه، فعند الله. ولو ان الله وعدني بالغد، وما يليه، فكيف لي ان اتيقّن من انني سأحظى غداً بدافع حميد يقوّم سبيلي ويصلح سيرتي؟» أليس التأجيل ضرباً من

الجنون؟ ستكون حالتي كحالةالمريض الذي دُفع اليه الدواء الناجع، لكنه قال: «تريّثوا، دعوني في مرضي فترة اطول». ان من يؤجل عمل خلاصه، هو كهذا المريض تماماً. لذا فان عزمت على الانعتاق من ايحاءات العدو الماكر، ارفع في وجهه سلاحك الموثوق، مبادراً الى طاعة افكارك الحسنة على الفور، ودونما ابطاء. اغتنم الفرصة التي دفعها الله اليك ليدعوك الى التوبة. لا تتساهل مع نفسك فتقول: «لقد عقدت العزم ان اتوب، ولن اتوانى، لكن ليس الآن». كلا، كلا، لا تفعل هذا، فمثل هذا العزم قد ثبت اعوجاجه. لقد اعتمده كثيرون، ما زالوا حتى الساعة بدون توبة حتى اشرفت حياتهم على نهايتها، فغابوا غير توّابين. ان امراً كهذا، يُعزى لأسباب عدة:

السبب الاول هو كون عزيمتنا الشخصية، لا ترتكز على الله بالكلية، ولا تقوم على نكران الذات. فنحن لم نقلع بعد عن تبجيل انفسنا، فتكون نتيجة ذلك، ان ترتفع بركة الله عنا. في هذه الحال يكون السقوط امراً لا مفر منه، فالذي يقطع عهداً ويقول: «غداً أقلع عن الخطيئة ولا اعود اليها» كثيراً ما يبلغ الى نتائج معاكسة. فبدل النهوض، يتداعى الى الحضيض، وعلى نحو اردأ من ذي قبل، فتتتالى سقطاته الواحدة تلو الاخرى. والله يجيز مثل هذا احياناً ويسمح به، وذلك كي يدرك المرء المعتز بنفسه، حقيقة ضعفه، فينهض بحثاً عن معونة الله ولا يعود يحتكم الى ذاته، مهملاً كل ثقة بها، وجاعلاً كل رجائه بالله.

السبب الثاني هو اننا اثناء عقد النية نكون في تطلّع نحو الفضيلة وبهائها والتي سبق لإرادتنا أن انجذبت نحوها، فمن البدهي اذ ذاك ان تغيب عنا جوانب الفضيلة الصعبة. واليوم، نحن لا ننتبه الى الجانب الصعب منها، فجمالها يجتذبنا، لكن بعد ان ننخرط بأعمالنا اليومية، وهمومنا العديدة، فان الجاذبية تخبو رغم حضور النية، فتضعف الرغبةتباعاً. وبضعفها، تضعف الارادة، ويسوء حالها، فتتحوّل الى الاهتمامات الاخرى. في نفس الوقت يكون بصرنا مأخوذاً بجانب

الفضيلة الصعب، فدربها شاق بطبيعة الحال، وأصعب ما فيه هو الخطوة الاولى. افترض ان انساناً عقد النية بالامس على المضي في حياة الفضيلة، إلاّ انه بدل الشروع في مسعاه، اكتفى بعزم جديد فهو لا يرغب في انجاز الامر الاول، فالرغبة ضعفت، والارادة استكانت ووهنت، وما عاد يرى غير العراقيل تنبع من نفسه، او من نهج سيرته اليومية، او علاقاته بالآخرين، وهكذا يأتي الى القول: «أتريث حتى الغد فاستجمع عزيمتي. ويطول انتظاره وتريثه يوماً بعد يوم، وقد يدوم العمر كله، فلا تتعجب. فرغم انه شرع بالعمل بفعل رغبة دعته الى اصلاح السيرة، إلاّ انه لم يقم بأمر واحد ليطيع الرغبة هذه. كذلك فانه لم يجعل في نفسه امراً واحداً ذا هاجس مماثل، فبات في حالة من الضعف، بحيث ان ارادته تخور امام كل عائق وعرقولة.

لا مفر من العراقيل. لكن لا بد للانسان ان يزيلها اذا كانت فيه الرغبة. لا بد من تجاوز الصعاب. وكلما همّ المرء بتزليلها، كلما شعر مع الوقت، انها تتناقص. بالمداومة على ذلك، يسير المرء في الخط الصحيح.

اما السبب الثالث، فهو ان اليقظة المغبوطة من سبات الخطيئة، لم تتحقق بعد، عندها لن تتوالى مثل هذه اليقظات مرة اخرى. وان حدث وتحققت، بعد سبات طويل، يكون وقعها وفعلها في الارادة اضعف من ذي قبل، فالارادة لن تنزع اليها كما كانت قبل. العزيمة ستفتر وتحتاج الى من يمدّها بالزخم والحيوية. فالذي لا يطيع اليوم، بل يؤجل الطاعة الى الغد، يكون من السهل عليه ان يؤجّل المرة بعد الاخرى... فكلما ضعفت الطاعة، كان التأجيل اسهل، الى ان يجيء اليوم حيث تفقد الطاعة تأثيرها فيسلّم الانسان الى السقوط، ويتحجّر قلبه، ويدب اليه النفور من النداء الحسن، فيصير تأجيله سبيلاً الى هلاك ابدي للنفس.

وأضيف ان الضرر الناتج عن التأجيل، ليس فقط من جهة ما يحثّنا على تغيير السيرة من السيء الى الحسن، انما يمتد الى نطاق الحياة الصالحة نفسها، كأن تتاح للانسان سانحة يقوم فيها بعمل حسن، إلاّ

انه يرجئ ذلك حتى الغد، او اي وقت آخر. في مثل هذه الحالة، يمكننا ان نعمد الى ترداد ما ذكر آنفاً.

اعلم انه ان بدّد الانسان فرصة لعمل حسن، لن يحرم نفسه من ثمرته وحسب، انما يسيء الى الله. فلو ان الله بعث له بمحتاج، لكنه قال له: «اذهب... فيما بعد»، فرغم ان في القول توجّهاً نحو انسان، إلاّ انه موجّه نحو الله الذي ارسل المحتاج. والله سيرسل للمحتاج من يحسن اليه ويسد عوزه، اما هذا الذي رَفض، فسيقدّم حساباً عما فعل.

الفصل الثاني والثلاثون

في حيل العدو التي يستخدمها ضد الذين شرعوا في السير في الطريق الصحيح

لو ان المرء غلب العرقولتين السابقتين فرغب بالانعتاق من عبوديّة الخطيئة، وطفق يعمل دونما إبطاء، فالشرّير رغم كل هـذا، لا يتخلّى عنه. انّما يعمد إلى تعديل خططه فيجعل المرء يتأخّر ويتعثّر عند التجارب، بغية تحطيمه.

ان الآباء الإلهيين يصفون مَن كانت حالته هكذا، وكأنّه مطوّق بالنيران من كل جهة: من علو، من أسفل، من اليسار واليمين. من الأمام والخلف. بالإضافة إلى كل هذا، تنزل عليه السهام من كل صوب. فالآتية من علو، هي أمور تحثّه على أعمال روحيّة هي فوق طاقته. والتي من أسفل، فهي التي تحثّه على التنقيص من الأعباء الروحيّة، لا بل تركها أيضاً، وذلك بفعل الشفقة على الذات والتراخي والطياشة. أمّا التي من اليمين، فهي التجارب النازلة على المرء من باب أعماله ونشاطاته القويمة، فيعمد العدو إلى العبث بها واستغلالها، ليقودنا إلى الهاوية. والتي من الشمال، فهي التجارب الواضح شرّها، والتي يرمينا العدو بها ليشدّنا نحو الخزي والخطيئة. والتي من الأمام، كأن يبادر إلى إزعاجنا بأفكار المستقبل. والتي من الخلف، فهي أن يعمد إلى ذكريات الأمس من أفعال وأحداث، ليوقع بنا. ان هذه الأمور والتجارب، كلّها تهاجم النفس من الداخل، ومن الخارج معاً. فمن

الداخل، عن طريق صور الخيالات والتخيّلات المرسومة (المطبوعة) في الذهن عبر الأحاسيس، أو عبر إيحاءات خبيثة يرسمها العدو في القلب، وتكون في العادة مقرونة بالشهوات. أمّا من الخارج، فعبر الانطباعات التي تشكّلت بالحواس. علاوة على ذلك، يتحالف أعداؤنا مع خصالنا السيّئة القديمة، وطبيعتنا المنفسدة بسقطة آدم، ولهم غيرها ايضاً ولا يكلّون أو يتعبون بعد هزيمة أولى، بل يعمدون إلى وسيلة أخرى ليضلّلوا خادم المسيح الذي ابتعد عنهم.

عندما يعقد الانسان العزم على ترك السبل المعوجّة، ويتركها فعلاً، فان أول عمل يباشر الشيطان به، هو أن يبيّن للانسان ضعفاً جديداً، (والضعفات كثيرة)، غير الضعف السابق، فينسلّ عبره إلى الانسان، لإيهامه بأنه يعمل لصالحه وخيره، ويحثّه على عدم المضي إلى المرشدين من أجل النصح والإرشاد. لا تصدّق ما يقوله إليك، فالشيطان لا يدنو ممّن يسلك في الداخل والخارج حسب إرشاد الآباء وتدبيرهم، حسب كهنة الرعية بالنسبة للعلمانيّين، وحسب الشيوخ المجرّبين، بالنسبة لأهل الأديار. في مثل هذه الحالة ترى عينُ الأب الروحي توًّا كل الايحاءات والمشورات إن كانت من العدو أم من الله، فينبّه الابن. ولكن إن حجب المرء نفسه عن مرشديه، فسرعان ما يعمد الشيطان إلى بلبلة فكره وتشويشه وتضليله[1]. ثمّة أمور عدّة تبدو صالحة وحسنة، لكن داخلها شرّير، فيعمد العدو إليها ويوعز للمبتدئ بها، كي يُسقطه في حبائله فيتعرّض لأخطار جسام قد تحطّمه وتودي به إلى التهلكة.

أمّا الطريقة الثاني التي يعمد إليها العدو، فهي أن لا يكتفي بإبعاد المبتدئ عن كل مشورة وحسب، بل يتركه في الميدان بلا معونة أيضاً. فالذي احتقر كل نصح وإرشاد في حياته، وعاش كما يحلو له، فانه يبلغ مرحلة يستغني بعدها عن كل معونة خارجية، بما فيها الإلهية، من جهة

---

(١) اشارة الى الأب الروحي.

تدبير أمور سيرته، على نحو صحيح. هنا يبادر الشيطان إلى خطّته، فيحتجب عن المبتدئ، ويكفّ عن مهاجمته، فيشعر هذا المخدوع انه قد تحرّر من الأهواء، وان ما فيه هو ثمرة لجهوده، فيستمرّ كما هو. مثل هذا، عندما يصلّي طلباً للمعونة، فانه يتمتم بأسنانه كما لو كانت صلاته كلمات أو معادلة لا معنى لها. والمعونة لا تأتي، لأنه لا يطلبها. وهكذا يُترَك المبتدئ لمشورة نفسه وهواه، فيسقط فريسة سهلة للعدو.

من نتائج الاعتداد بالنفس، أن يأتي بعض الناس إلى ممارسة فروض لم يحن وقتها، أو هي فوق طاقتهم. ومن شأن الاعتداد بالنفس والثقة بها، أن تمدّهم بقوّة إضافية تجعلهم ينجزون أعمالهم، إلى حين، تخور بعدها قواهم، فيعجزون عن إتمام الأمور الوسط (الطبيعية)، ما يلبثون أن يهملوها أيضاً.

وثمّة آخرون تتّقد إرادتهم الشخصيّة، فيتوهّمون نتيجة لغرورهم، انهم قادرون على كل شيء. وفي حالتهم غير الطبيعية هذه، يُقدمون على خطوات غير لائقة: أمثال هؤلاء المخدوعين طرحوا أنفسهم في آبار جافّة، وآخرون قفزوا من فوق صخور شاهقة عليها كانت مناسكهم، والبعض الآخر أقلع عن الطعام نهائيًا... فتبيّن نتيجة كل هذا، ان هذه ترتيبات العدو، إلاّ ان مَن نزلت به التجربة، لم يدرك ذلك.

من نتائج الغرور أيضاً، أن يعزو المرء كل نجاح، إلى ذاته، وهذا يفترض، ان الانسان حرّ في إعطاء حلول لنفسه، أو تعديلات، أو تخفيفات في برنامجه الروحي. ولا ريب ان مَن كان على عتبة حياة جديدة، يواجه عدم تأقلم مع الاطار الجديد. فالتائب حديثاً، تمرّ أيّامه كالشهور، وأسابيعه كالسنين، وبعد قيام الانسان بجهد ضئيل، لترتيب حياته، يبادر إليه العدو ويدق رأسه بالوهم قائلاً له: «لقد تعبت، وصمت كثيراً، وقضيت الليالي بدون نوم، فها قد حان الوقت كي تأخذ لنفسك قسطاً من الراحة». ثم انه يدعوه بالشروع فيها من جهة جسده، فما أن يستسلم المبتدئ لذلك، حتى يبدأ بالتراخي، فيتغيّر نظام حياته، ويعود إلى شروره التي سبق وأقلع عنها، ليعيش في التراخي من جديد.

ان العدو يستخدم مثل هذه التجارب (المذكورة) ليس في بداية السيرة الحسنة فقط، بل في خضمّها أيضاً. فانظر إلى نفسك وكيف انه يعوزك القيام بكل شيء بعد مشورة. لا تنسب أي نجاح، صغيراً كان أم كبيراً، إلى نشاطك وجهدك. حذار من الافراط أو التراخي في المسلك الروحي، حتى ولو بدت لك سيرتك ذات همّة ونشاط بفعل هذا الافراط، أو ذلك التراخي. اتبع قوانين الآباء الذين عاشوا قبلك، واسلك حسب الأحكام الصالحة التي عند أهل الخبرة من معاصريك.

الفصل الثالث والثلاثون

في كيف يبعد الشيطان الانسان عن الأمور الصالحة ويفسدها

ان حيل العدو لا تتوقّف البتّة عن تشويش نظام حياة الانسان (النظام الحسن). فالانسان إذ يقاومها وهو في الدرب الصحيح، بلا كلل وانحراف، فمن شأن هذا، أن يدفع العدو إلى ابتكار حيل أخرى مختلفة، فينصب له العراقيل والعثرات. في مثل هذه الحالة، لا يكون عمل الشرّير ضد سيرة الانسان عموماً، بل يوزّع حيله وألاعيبه ضد كل شأن مسيحي يقوم الانسان به، وذلك كي يجعل جهدنا على غير اتفاق مع إرادة الله.

فمنذ أن نفتح عيوننا في الصباح، وحتى إغلاقها عند المساء، للنوم، ثمّة أعمال تشغلنا، عمل ينتهي وآخر نبدأ به، وليس عندنا لحظة فراغ واحدة. لنفترض اننا في صحو دائم، ومتيقّظين إلى ذواتنا، ولا نرزح تحت داء الكسل والتواني، يُضاف إلى ذلك ان ذهننا وقلبنا في وقفة صلاة أمام الله، وعلاقتنا بالآخرين، على صدق ومحبة. لنفترض ان الواحد منّا يجاهد ليوفّق كما يليق، بين النفس والجسد، من جهة أعمال النسك والجهادات، أو في شؤون حياة العلمانيّين العامة، إلاّ ان هذه كلّها ينبغي أن تتوخّى الخلاص بحرص شديد ويقظة وشوق. فالله يعين الدائبين على عمل أي شيء (حسن)، على النحو الصحيح، فيرسل نعمته لهم، ويصونهم بملائكته وصلوات القدّيسين. رغم كل هذا، فالعدو لا يحيد ولا يغفل. فهو يسعى إلى تعكير حياتنا مع الله. ويحاول

أن يضلّنا في كل عمل صالح نعمله، كي يحوّلنا إلى ارتكاب الشرور. وهذا يكون بعدّة أشكال: فامّا انه يسرع إلى إيقافنا عمّا هو حسن، أو انّه يتدخّل بعد أن نكون قد شرعنا به، وذلك ليعرقلنا. وإذا أخفق، فانّه يهمّ إلى جعل أعمالنا المنجزَة، وكأنها غير جديرة بقدْر أو قيمة. وإذا انغلب رغم مساعيه، فانه لا يتورّع عن نزع قيم أعمالنا من جهة الله، وهذا يحقّقه بتحريك المجد الباطل، والزهو، فينا.

عند القدّيس يوحنا السلمي كلام عن هذه الحيل كلّها: «الشياطين تنصب لنا ثلاثة فخاخ أمام الجهود التي نبذلها لإرضاء الله:

١ ـ تحاول أن توقف مسيرة الأعمال الحسنة.

٢ ـ وإن هُزمتْ، تحاول أن تجعل أعمالنا بخلاف مشيئة الله.

٣ ـ وإن أخفقت في هذه أيضاً، فانها تعمد إلى سلب النفس بهدوء، وذلك بتملّقنا والهمس لنا بأننا قد أرضينا الله».

التجربة الأولى تقاوَم بالغيرة الملتهبة مع ذكر الموت. أمّا الثانية، فبالطاعة وتواضع النفس. إلاّ ان الثالثة، فتكون، بإلقاء الملامة على النفس وتوبيخها: «فلمّا قصدت معرفة الذي هو تعب في عيني، دخلت مقادس الله وتنبّهت إلى آخرتهم» (مزمور ٧٣ : ١٦ ـ ١٧).

عندما تدخلنا النار الإلهيّة، لا تعود العادات الرديئة قادرة على النيل منّا «فإلهنا نار آكلة» (عب ١٢ : ٢٩). الهنا يلتهم كل ثورة وحركة شهوانيّة، وكل عادة رديئة، وكل فظاظة وعتمة داخلية أو خارجية، في الفكر والنظر (فصل ٢٦ ـ ٨).

ان قلماً لا يستطيع وصف كل حيل العدو ووسائله. فتيقّظ في نفسك، جامعاً ذهنك من أجل أمر واحد هو إرضاء الله، في الأمور الكبيرة والصغيرة. الحياة نفسها، ستعلمك التمييز وحسن النظر في مكائد ابليس، إلاّ انني سأسوق مثلين أو ثلاثة في ما يعمله العدو لبلبلة نفوسنا وإفساد أعمالنا إن كانت تدوم (أعمالنا) بعض الوقت:

إن قرّر إنسان مريض أن يحتمل داءه برضى، وقد تصرّف هكذا فعلاً، فالعدو إذ يرى انه بعمله هذا، سيثبت على الفضيلة، لا سيّما الصبر، فانه يقوم عليه، يثيره بالاضطراب، فيجعله يعدل عن عزمه الحسن. ولبلوغ هذا المأرب، يعمد إلى تذكيره بأمور حسنة عديدة كان يمكنه أن ينجزها لو كانت فيه صحّته. كذلك يسعى إلى إقناعه انه لو كان بصحّة جيدة، فهناك الكثير ممّا يمكن أن يعمله لمجد الله، ومنفعة نفسه، واخوته بآن. فكان من الممكن إذ ذاك، أن يرتاد الكنيسة، فيعظ، ويقرأ، ويكتب لخير الآخرين الخ.. وما أن يلحظ العدو ان أفكاره باتت مقبولة، حتى يعمد إلى تصويبها ضد الذهن أكثر فأكثر، بتنويع صورها (الأفكار) وتنميقها. وهكذا تصير الأحاسيس في الانسان، وتولد الأهواء والضغوطات المصاحبة لها، مع كل ما ستحظى به هذه الأعمال من قبول ونجاح، هي وسواها. وهكذا يتولّد في المريض حالة حزن، فمرضه يقيّد قدميه ويديه. وما يلبث هذا الحزن أن يتحوّل إلى تأفّف، بفعل ضغط الأفكار وحركات النفس التي من داخل، فينقلب الصبر على المرض برضى، وبدل قبوله كدواء من الله، ومناسبة تتروّض فيها النفس على فضيلة الصبر، ها هو يراه أمراً يعطّل عمل خلاصه، فتصير رغبة الانعتاق من المرض غير مضبوطة، رغم انها ما تزال ذات قصد حسن، وهو إنجاز الأعمال الحسنة المقبولة عند الله، في كل سبيل. فما أن ينحرف الانسان (المريض) ويتيه، حتى يعمد العدو إلى سلبه، فينتزع القصد الحسن من قلبه وذهنه، فيصير المرء راغباً بالشفاء من أجل ذاته، وينظر حالته ومرضه بحزن وامتعاض، ليس على انها عائق في سبيل الخير وحسب، بل على انها الشرّ في حدّ ذاته. وهكذا يبلغ انعدام صبره أقصى مداه، فيتأفّف، كونه لم يُدعِّم ذاته بالأفكار الحسنة. ومن شأن التأفّف هذا، أن ينزع سلامه، فيفرح العدو بتعكير صفائه، والحيلولة دون امتلاكه الصبر على المرض، برضى.

كذلك فالعدو ينقضّ، على نحو مماثل، على المسكين القنوع بما هو فيه، فيصوّر له مقدار الخير الذي يمكنه القيام به لو كان صاحب ثروة.

وعلى نحو مماثل يبلبل العائشين في الطاعة، سواء في دير أو غيره، فيوجس لهم انهم سيبطئون في النمو نحو الكمال المرجو، إن هم تابعوا على هذا المنوال (الطاعة)، فيحثّهم على التوحّد والاعتزال، في القفر، وكثيراً ما ينجح. فالذي قصد التوحّد والاعتزال، سيتوانى، فيسقط في التراخي والكسل، فيفقد نتيجة لذلك، كل ما قد أنجزه بعد جهد وعناء في حياته تحت الطاعة. والعكس أيضاً قد يحدث، حيث ان العدو ينجح بإخراج المرء من وحدته وعزلته، بحجّة انها لا تعود بالنفع على ذاته أو على الآخرين، فحياته بالخدمة، ستمتلئ من الأمور النافعة له وللآخرين. فعندما يستجيب المرء لهذا الإيحاء، فيدخل الدير أو يذهب إلى العالم للخدمة، فانه لا يقوم بالأعمال التي قطع على نفسه عهداً بإتمامها، بل سرعان ما يهدر ما قد جمع، ويصير خاوي اليدين.

هناك حالات مماثلة عديدة فيها ينجح العدو في غواية الانسان كي يغيّر وضعه، بحجّة ان وضعاً آخر، هو خير من الأول، وأكثر نفعاً منه. وهكذا فانه يضرب هذا بطريقة، وذاك بأخرى.

ان مَن يسلك تحت إرشاد معلّمين، من ذوي الخبرة، فيطيعهم في إرشاداتهم، بتسليم كامل مع تواضع، يستطيع أن ينجو من مثل هذه التجارب. ولكن إن حُرِم المرء هذه المنفعة، لسبب أو آخر، يتوجّب عليه الانتباه والتمييز بين الخير والشرّ على ضوء التعاليم المسيحيّة التي تقوم عليها حياتنا. فالظروف التي تبدو عائقاً أمام مسيرتنا نحو الخير، ولم تكن من اختيارنا نحن، بمحض الإرادة، إلاّ انها من الله. هذا يدعونا إلى الرضوخ بكل طاعة، لنصمّ سمعنا عن أي اقتراح ضد هذا الرضوخ. فالله عندما يرسل إليك ظروفاً كهذه، لا يريدك أن تدبر شؤونك بنفسك، فتسلك بحسب اقتضاء الظروف في حدود الامكانيّات القائمة. فسواء كنت مريضاً أم فقيراً، بادر إلى احتمال مرضك وفاقتك، فالله لا يريد منك غير الاحتمال بقلب صالح مع الانشغال بأعمال الخير. فمتى جاءك وافتقدك، يجدك تعمل وتسلك على نحو سليم. وعلى العموم، فرغبتك بتغيير وضعك، هي رغبة في استبدال الأصلح بالأسوأ.

أمّا إن رأيت نفسك في وضع يحول دون قيامك بالأعمال الحسنة الممكنة لديك، وان هذا الوضع جاء نتيجة لنزوة منك، فطالما انك اخترته لغرض ما، فتمسّكْ به، ولا تدعْ أفكارك تجول وتتشتّت في أمور كثيرة، جاعلاً نصب عينيك هذا الهدف الواحد لما يمكنك أن تعمله من خلال وضعك، إن أنت ثبتّ هناك. انجز أعمالك المتصلة بهدفك، بهدوء. واقنع انك إن نسبتها إلى الله، بدلاً من الاعتماد على النفس، لن يكون الزمان الذي تقضيه مهدوراً وضائعاً. فأعمالك تكون مرضيّة لله، وبمثابة تقدمة تامّة، بينما تكون أنت في سلام.

الفصل الرابع والثلاثون

في كيف يحوّل العدو الفضائل ضد الذين يمارسونها

لنقل أنك تسلك درب الفضيلة بصدق وحق، وبدون زيغ نحو اليمين أو اليسار، فلا تتوهّم بأن العدو سيكفّ عن مهاجمتك. لقد تعلّمت هذا ممّا طالعته عند القدّيس يوحنا السلمي. فالعدو عندما يرى ان مساعيه قد باءت بالفشل، وانه لم يتمكّن من النيل منك، يبدأ برصدك خفيةً، هامساً لك بتملّق: «لقد أرضيتَ الله في حياتك». هذه تجربته الآخيرة. أمّا نتيجة الاستجابة لتملّقه، فهي، في العادة، زهو بالنفس، وشعور بالأهمّية الشخصية، والرضى عن الذات. وهذه المذكورة، من شأنها أن تولّد الكبرياء والمجد الباطل. والمجد الباطل يسلبنا كل قيمة، حتى الصالحة منها. أمّا الكبرياء، فيجعلنا نبغض الله. لذا، تيقّظ يا عزيزي وأبعد هذه التملّقات عنك. لا تدع لها سبيلاً إلى قلبك، وهذا يكون، برفضها منذ أن يبدأ الهمس في أذنيك. وإذا ما رُمْتَ تفادي الشرّ الذي يتهدّدك، اجمع ذهنك في قلبك متأهّباً على الدوام لدحر سهام العدو. كن هناك في قلبك، كقائد جيش في ساحة الوغى، واجعل لنفسك ركناً مكيناً محصّناً تقود القتال منه، لا تبارحه البتّة. أمّا سلاحك في هذا القتال، فهو شعورك العميق، بالعدم وبالفقر، وانك أعمى، ومجرّد من كل شيء، ولست غنيًّا إلاّ بالضعفات والهفوات والأعمال الجديرة باللوم والغباوة والتفاهة والاثم. ولدى تأهّبك للقتال، لا تسمح لذهنك أن يجول خارج حصنه، ولا سيّما حقولك وجنائنك

اليانعة الثمر في الظاهر، وأعني أعمالك الحسنة. وإذ تثابر على هذه الرياضة، فلن تقوى سهام العدو على ملامستك. وإن حدث أن أصابك أحدها، فانك ستبعده توًّا، فترميه بعيداً عنك.

وكما ان المحاربين داخل حصن، لا يتكاسلون، بل يواصلون تدريباتهم العسكريّة أو يستعدّون لتدعيم تحصيناتها، هكذا أنت أيضاً، يجب أن تتحصّن بشعورك بالعدم. وكي أكون أكثر دقّة، اعملْ على النحو التالي: اعلم ان ضبطك لذهنك مهما كان حازماً، سيبقى الذهن عرضة للشرود. ولا عجب ان كان في شروده يحطّ عند أعمال لك تبدو حسنة في الظاهر. فما أن يبلغ إليها، يقبض عليها توًّا ويضربها بالعجب بالنفس، على نحو يجعل الذهن ينزع من ذاته إلى جهة العدو فيحاول ذاك أن يقودك كي تسير في ركبه. فما أن تلاحظ مثل هذا، بادر إلى جمع ذهنك وقل له: «أيها الذهن: أنت مصرّ على إطلاعي بأن هذا حسن وذاك لا مضرّة منه، وربما الأمر هكذا، لكن ما شأني أنا به؟ كنتَ على وشك امتداحي. لا بأس، ها أنا إذن صاغية أستمع إليك وأنت تقرّظني. لكن ليكن في حسبانك ان العدل يقضي امتداحي على أمور خاصّة قمت بها، أمّا تلك الآتية من الله ونعمته، فالمديح والعرفان هو لله. لهذا دعنا نتفحّص ما يعنينا وما يعني الله. لنعزو لله ما هو منه، تاركين لأنفسنا ما هو لنا. بهذا سنعرف قدرنا وقيمتنا. وإن بقي لنا من شيء نستحقّ أن نُمدَح بسببه، فهيّا بنا نعاين زمان ما قبل وجودنا. أين كنّا؟ كنّا مجرّد عدم لا نقوى على شيء، مهما كان. ماذا عملنا حتى نستأهل وجودنا من نبع الحياة؟ وجودنا هبة من الله. هذه كانت البداية وقد أعقبتها خيرات متتالية من مراحم الله التي لا تحد. لذا، لنجعل الله أصل كل هذا. تُرى كيف بدأنا نعيش؟ نحن أنفسنا نجهل ذلك. نحن لم نكن ندري بوجودنا سنين طوال منذ مستهلّ حياتنا، رغم اننا كنّا في الوجود حقيقة. ثم اننا لما شعرنا بوجودنا، كنّا عاجزين عن القيام بشؤون حياتنا. إلاّ ان ثمّة أيدي بادرت إلى العناية بنا، وهذا كان بدافع العناية الإلهية المغروسة في نفوس أصحابها بيد رئيس الحياة والوجود.

فنشأنا وترعرعنا، وانتصبنا على أقدامنا. لم نكن نحن سبب كل ما أصلح سيرتنا. لذلك فلنجعل هذا جانباً. لقد شرعنا نحيا واثقين بذواتنا. لكن أي شيء لنا منها؟ ما الذي لنا في داخلنا؟ انها طاقة حيوية فينـا، مع وسائل استمرارنا ووجودنا. وهذه في ذاتها ليست منّا، بل هي هبة من الله.

«ان المعرفة المباشرة عن الله هي في ذاتها هبة منه. الضمير نفسه هبة منه. العطش إلى الحياة العلوية هو منه. هذه الثلاثة تؤلف في ذاتها روح وجودنا، دافعة إيّانا باتجاه السماء. أنت يا ذهني لست لي، لقد أتيتني من الله. كل ما فيّ من قوى حيويّة، الإرادة، وما يرتبط بها، مشاعري، وما يتصل بها، القدرة على التمتّع بالحياة وبما هو حولي، ليست مني، ولا يعزى وجودها إليّ. جسدي بكل غرائزه ووظائفه ومستلزماته التي تحدّد وجودي الحسن، ليست مني أيضاً. فكل ما فيّ هو هبة من الله. أنا نفسي لا أنتسب لنفسي، بل لله. وعندما وهبني الوجود، حباني طاقات بالغة التعقيد والحيوية. لقد أغدق علي الضمير والحرية. لقد رأى هو نفسه، انه ينبغي لي أن أسود ما هو موجود فيّ، وذلك، بمقتضى وظائفية وقيمة كل جزء من أجزاء كياني. فهذا كلّه لا يسمح بامتداح الذات، بل يدعو إلى إدراك المسؤوليات الجسام الملقاة على عواتقنا. انه يدعونا إلى الخوف من الجواب على سؤاله لنا: ماذا عملنا بأنفسنا، ومن أنفسنا؟».

لنعد الآن إلى وسائل الحياة. فينا حياة الجسـد، وحياة النفس، وحياة الروح. لكل من هذه حـاجاتـه إلى وسـائـل وجوده. وكلّهـا في متناولنا، وهي بدورها هبـة لنا من الله، وليست من تعبنـا وجهدنـا. الهواء، النار، الماء، والتراب (الأرض) بكل كنوزها ومكوّناتها وحجارتها ومعادنها، ونباتاتها وحيواناتها التي تزوّدنا بما نحن بحاجة إليه، كالطعام واللباس والبيوت. وهذه أيضاً ليست من صنعنا، انما أُعطِيت لنا. كل المفاهيم التي نحتاج إليها من أجل ما يحيط بنا، أشكال حياتنا اليوميّة، المجتمع، الحكومة، الفنون والمهن وكل أصول العمل في كل قطاع من هذه القطاعات، كلها سبق أن أعدّت وليس لنا سوى أن نتمثّلها، بدل

التعب في ابتكارها وإيجادها. كل إنسان أتى إلى الوجود، آخذاً أمور المعرفة عن أسلافه. من أين جاء أسلافنا بهذه المعرفة؟ لقد أرسل الله أناساً يتمتّعون بمواهب خاصة وقوّة إرادة فقدّموا اكتشافات جديدة وطوّروا الحياة الانسانيّة. وإن سألت أيًّا من هؤلاء المبتكرين، كيف توصّل إلى هذا أو ذاك، فانه سيقول لك: لا أعرف. لقد راودت ذهني كفكرة، ما لبثتْ أن اختمرتْ وتشكّلت. هكذا كانت، وهكذا ستكون إلى منتهى العالم. إذن وسائل حياة النفس ليست منّا، انها هبة من الله. وإن كان الأمر هكذا، من جهة النفس، فكيف تكون الأمور من جهة حياتنا الروحيّة والأخلاقيّة والدينيّة؟ لقد جعل الله معرفة عن ذاته في أذهان نفوسنا، وفي ضميرنا، وأعني معرفة إرادته، واهباً الجميع بالتساوي رجاء النعيم الأبدي. وهذا هو بذار حياة الروح الذي غرس فينا وتقبّلناه، حين نفخ فينا شرارة حياته الإلهية. كل إنسان، عندما يولَد، يأتي حاملاً معه وفيه هذا البذار. أمّا التطوّر اللاحق لهذا البذار، فيرتبط بالذين يحيطون بهذا الانسان. يا لها من بركة عظيمة يتعذّر وصفها، عندما يولد المرء وسط أناس يتقنون الإرشاد إلى حياة الروح الحقيقيّة. لكن تأمّل في ما حولك. ان لدينا معرفة عن الله الواحد الحق المعبود كثالوث. نحن نعترف بابن الله الذي تجسّد من أجلنا ومنحنا كل شيء من أجل خلاصنا. نحن نؤمن بالروح القدس الذي نعمته تحيينا والذي يعمل لبناء حياة الروح فينا. نحن مغروسون في كنيسة الله، وفيها نتلقّى ما يلزمنا للعناية بحياتنا الروحيّة وتنميتها، وفيها نتلقّى الإلهام، كي نترجّى قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي. وكل هذا هو لنا في أنقى وأبهى صورة. لم تكن واحدة من هذه منّا، بل كلّها هبات من الله. وهكذا ترى غنى في الوسائل التي بحوزتك لتسير في الحياة. وهي قد تبدو لك طبيعية في ملئها، إلاّ ان واحداً منها ليس ثمرة لجهودك، فالكل معطى لك، وأنت مدعو إلى وليمة الحياة المعدّة من قبل. فإن كان لك ولي شيء من هذا القبيل نعتزّ به، فهو (ربّما) كيفيّة استخدامنا لهذه الوسائل. فإن تناولناها بصورة تامّة، نقتني لباس العروس الذي به نلج إلى الوليمة. فهل في هذا مجد لنا؟ أليس حريًّا بنا أن نجزع لئلاّ يأتي ضيف الوليمة

الجوّاد ويقول لنا: انظروا كم هي عظيمة هذه الوليمة، لكن ماذا عن لباسكم؟

والآن، دعنا نمعن النظر عن كثب بهذا اللباس. يتألّف ثوب النفس في الأساس من: استعدادات دينيّة وأخلاقيّة، مع مشاعر متجذّرة كلّها فينا، لا من أعمال فقط. لكن طالما ان هذه محتجبة فينا، فقلّما هي مناسبة لغرور أو كبرياء. إلاّ ان الأعمال فمنظورة، وتتراقص أمام أعيننا. ولّما كانت أموراً اختياريّة، فهي تولّد في الفاعل شعوراً بالأهميّة الذاتيّة، والرضى عن النفس. أمّا تأثيرها الخارجي، فهو أن تثير شهادة المديح من الآخرين على أعمال الانسان، الأمر الذي يعمّق الإحساس بالأهميّة الذاتيّة ويرسّخ جذور الغرور والإعجاب بالنفس. لذا فلنفحص أعمالنا لنرى، هل لنا فيها ما يجعلنا أهلاً للافتخار بلا منازع.

لنذكر ان افتخارنا يكون فقط عن أمور تنتج عن إرادتنا الشخصيّة، ونقوم بذلك بمعزل عن أي شيء آخر. لكن أنظر كيف تنمو أعمالنا، وكيف تبدأ؟ انها بعض ظروف تجتمع معاً فتؤدّي إلى هذا إو ذاك من الأعمال. ان فكرة تراود ذهننا للقيام بعمل ما، فننجزه. إلاّ ان اتفاق الظروف ليس منّا. وواضح أيضاً ان الفكر ليس منك، بل آخرون أوحوا به إليك، وهذا لا يدعو إلى المديح الذاتي. أنظر ودقّق كم هو عدد الأمور التي تقوم بها من هذا القبيل. فان دقّقنا في كل شيء، بضمير نقي، سنجد ان أعمالنا كلّها تبدأ على هذا الغرار، وبالتالي ليس لنا ما نعتزّ به.

وإن كنّا نمتدح أنفسنا على شيء ما، فذلك على أعمال لا حاجة لنا للقيام بها. لأنه مهما كانت الدوافع الخارجيّة والداخليّة للقيام بعمل ما، فالقرار بإنجازه يتوقّف على إرادتنا. لكن ليس كل قرار من أجل القيام بأمر صالح، هو قرار صحيح. يكون القرار صحيحاً، إن جاء متفقاً مع إرادة الله، وكان ينبع من طاعة إرادته. أمّا أن يكون القرار إرضاء للنفس أو للآخرين، فهذا ما يجعله غريباً ورديئاً ومظلماً. أحياناً يكون قرارنا بعمل ما، نابعاً من خوفنا من الناس في حال عدم القيام به.

وأحياناً نعمل ونحن نتوقّع نفعاً أو رضى ما، إمّا الآن أو في المستقبل. وطوراً نقوم بالعمل ببساطة، ليس لأننا نروم ذلك، انّما لأنّه ينبغي لنا أن نعمله. مثل هذه لا تعد أعمالاً صالحة، فهي رغم انها ممدوحة في ظاهرها، إلاّ انها ليست هكذا أمام الله والضمير. لنفحص كم هي أعمالنا التي من هذا القبيل. مرّة أخرى سنجبر على القول، بأنه ليس لنا ما نستحق الافتخار به.

وهكذا، وبالتمحيص الدقيق ندرك ان أعمالنا الحسنة لا تجيز لنا أن نفتح شفتَينا للافتخار أمام الآخرين، أو أن نقرع لها بالطبول لأنفسنا في الداخل. لكن إن تذكّرنا كل الأعمال التي نستحق اللوم عليها، الباطلة، التافهة، عديمة النفع، الضارّة، والمخالفة للناموس، والتي يمقتها الله، فهي كلّها من صنعنا. فإذا تذكّرنا انها أعمال غير مقبولة، فاننا سنتذكر أيضاً ان الانسان كلّه غير جدير بالقبول.

سأضيف أمراً آخر: ما نقوم به علناً، في البيت، في العمل، في المجتمع، هو مقياس لسلوكنا. وإذا نظرنا حولنا، لا يمكننا إلاّ أن نقول ان سلوكنا، على العموم، صحيح. إلاّ اننا لا نستطيع أن نؤكّد ان وضعنا الداخلي صحيح أيضاً. فعيون الذين حولنا تؤثّر في نمط سلوكنا تأثيراً عظيماً جداً. والذين ينظرون إلينا، يرغموننا أن لا نعطي فرصة للشرّ المشتعل في قلوبنا كي يظهر، فنحجب الشرّ فيبدو عملنا صحيحاً. لكن بدون الناس الذين حولنا، كان من الممكن أن يكون سلوكنا مختلفاً. والأمر يصبح هكذا، عندما نتأكد ان العيون لا تنظر إلينا. ويحدث لبعض الناس انه بمجرّد تغيير ظروف حياتهم الخارجية، وتمكّنهم من العيش بحريّة أكثر، ان كل ما كان محجوباً من قبل، بداعي الخوف من رؤية الناس لهم، ينفجر، وينقلب الانسان الذي كان يبدو ذا سلوك حسن، إلى سكّير فاسق ولصّ. فكل هذه الدوافع لم تكن وليدة اللحظة، بل كانت قائمة أصلاً، لكنها كانت تعابير مستنكَرة. أمّا الآن وقد أُطلق لها العنان، فقد استبانت على حقيقتها. ولو ان ذلك كان كلّه في الداخل، فالانسان كلّه سيكون سكّيراً وفاسقاً ولصّاً، رغم انه في

الخارج، (المظهر) ليس هكذا. تأمّل جيداً، فربما تندرج أنت أيضاً في هذه القائمة. فإن كان الأمر هكذا، ولو بدرجة محدودة، فليس لك حق في الافتخار أو قبول المديح.

وفي الختام، إن تبعت التعليمات الآنفة الذكر، يمكنك البدء بعمل دوري في حياتك. فعندما يشرع العدو بنفخ البوق في أذنيك قائلاً: يا لك من إنسان صالح... فان هذا النفخ لن يجد صدى فيك، بداعي تقدير الذات والرضى عنها، انما على العكس سيمنى بخيبة مرّة ويرتدّ عند كل مناسبة، بفعل الأفكار المتواضعة القائمة على تحقير الذات، مع المشاعر الحسنة التي فيك.

الفصل الخامس والثلاثون

نصائح لغلبة الأهواء واكتساب الفضيلة

رغم أنني أطلعتك على الكثير من الوسائل التي تستخدمها من أجل غلبة الأهواء الرديئة، بقي ثمة أمر آخر أقوله لك عنها: بادئ ذي بدء، لا تتمثل يا عزيزي، في مسألة اكتساب الفضائل، بالذين ينظمون شؤونهم الروحية على نحو يمارسون فيه فضيلة ما لمدة أسبوع، وأخرى، لأسبوع آخر. فلا يراعون حاجتهم إلى الرياضة في هذا أو ذاك.. لا، لا تفعل على غرارهم، إنما باشر تواً إلى مقاومة الهوى الأكثر مضايقة لك، والذي يهزمك على الدوام، وتشعر أنه يتحفّز للوثب عليك الآن. حاربه بكل ما فيك من قوة. واجتهد أن تجعل في نفسك الفضيلة التي تعاكسه. استخدم كل الرياضات الممكنة، والأعمال الضرورية في هذا السبيل. ان نجاحك وفلاحك في هذا، يستتبع حياة وانتعاش سائر الفضائل الأخرى فيك. ان الفضائل لهي سلاح تتقي به سهام الأهواء.

إن قلوبنا مليئة بالفطرة من الحسيات الحسنة التي تخنقها الأهواء. والأهواء تختلف ودرجة استبدادها، من إنسان إلى آخر. ففي هذا يسود فلان من الأهواء، وفي آخر، يسود هوى آخر، ولفترة اطول من سواه. أما أنت، فبمجرد أن تتخلّص من الهوى الرئيس، للحال تختبر أن الأهواء الأخرى ستضعف وتزول من ذاتها. وهذا ان حدث، فإن من شأنه أن يعيد الحسيات الحسنة، إلى سابق قوتها الطبيعية، فتنعتق من الأهواء، لتقف عند عتبة القلب، متأهبة لخدمتك عندما تدعوها.

ثانياً، لا تحدّد لنفسك مهلة تكتسب بها الفضائـل، لا أيام ولا أسابيع ولا شهور أو سنين. لا تقل لنفسك: اعمل الآن ثم استريح، وبعد الراحة أعود إلى عملي من جديد. لا، ليس من راحة هنا. إنما بادر إلى إعداد نفسك للعمل الدائم. جاهد وثابر ولا تسمح لأي ايحاء يدعوك إلى تلطيف الجهاد أو التنقيص منه. اقتدِ بالرسول الإلهي بولس الذي قال في أمر نفسه: «إذ أسعى هكذا، لعلّي أدرك، ما أصبو إليه» (١ كور ٩: ٢٦ - في ٣: ١٢ - ١٤).

ثالثاً، كن رصيناً في أعمالك، واعلم أن التوقف للراحة، في درب الفضيلة، لا يعطي دفعاً جديداً، إنما يثبّط الهمم ويبرّد الطاقة التي فيك، ويضعفها. وقد يعني هذا أن تتداعى، أو أن تتلف ما قد بنيته بعد مشقة وتعب. فأنت تتوهّم اكتمال الفضيلة فيك، فتكفّ عن الرياضة من أجلها، وهكذا تنقص فيك دون علمك.

لا تكن أنت هكذا، بل تيقّظ بغيرة ولا تغمض عينيك عن مناسبات العمل الحسن. لا تتجّنبه أن عُرض عليك، بل جدّ في طلبه والبحث عنه بكل السبل، لا سيما ذاك الذي انجازه يستدعي جهداً ومشقة. لأننا بهذا نغلب الصعاب المزروعة في درب الفضيلة، والتي تتجذر في نفوسنا حتى أعماق القلب.

تحاش، قدر المستطاع، الظروف التي من خلالها تظهر فضيلة النقاوة، لكنها في نفس الوقت تمتص قدرتك إذ تثير عليك الشهوة الدنسة. خير لك أن تبعد هذه النار عنك، لئلا تحترق.

كن متعقلاً ورصيناً لدى قيامك بالأعمال الجسدية، الأصوام، الاسهار، عمل اليد... الخ. إنها أمور واجبة وأساسية، ولا تتوهم أن تقدمك في الحياة الروحية ممكن بدونها. لكن تعقل في معرفة قدرتك على الاحتمال، كي تبلغ ما تسعى إليه. والاحتمال هو وسط بين الانحلال الجسدي، بالشفقة على الذات، وتعذيبها بلا هوادة، بإجهادها دونما داع أو ضرورة. جاهد كي تعرف بالخبرة الحية، هذا المدى الوسيط في

الأعمال، لا نظرياً. وبادر إلى التقدم التدريجي منطلقاً مما هو أدنى نحو ما هو أسمى.

أما من جهة فضائل النفس الداخلية: محبة الله، ازدراء الدنيا، تحقير الذات، الاقلاع عن كل شهوة وخطيئة، الصبر والتواضع، السلام مع الذين يمقتونك ويضطهدونك، ففي هذا لا يُطلب منك حد وسيط، لأن تقدم هذه الفضائل تدريجياً من شأنه أن يتجدد فيك. أما أنت، فما عليك سوى الاستمرار على حث النفس للقيام بما تتطلّبه الفضائل منك بلا تباطؤ أو تلكؤ. في هذا تكمن قوتك وحكمتك.

رابعاً، أثناء عملك هذا، فكّر بكل ما فيك من قوة، وارادة، واطلب من كل قلبك أمراً واحداً لا غير، وأعني أن تغلب الهوى الذي تحاربه في ذلك الوقت. ليكن هذا كل شيء بالنسبة إليك، ليكن السماء والأرض وكنوزك كلها وغايتك الوحيدة. اقتنع انك بذلك تخدم الله وترضيه على نحو قانوني ولائق. فسواء أكلت أم صمت، عملت أم استرحت، استيقظت أم خلدت إلى النوم، في الخارج أم داخل البيت، سواء في العمل أم في الصلاة، ليكن كل شيء منصباً على غاية واحدة هي، غلبة الهوى الثائر فيك، وممارسة الفضيلة المعاكسة له.

وكلامي هنا هو على الأهواء، الأساسي منها والثانوي. ففي الحروب الحسية، ربما كنت في صفوف عسكر يديرهم قائد أعلى، أو أحد معاونيه، أو سواهما. الأمر نفسه تراه في الحرب الروحية. فالهوى الأساسي ليس دائماً هناك، فكثيراً ما يرسل إلى الميدان من ينوب عنه، ويكون القتال ضد الأعوان، لا ضد الرئيس. إلا أن النصرة هي الغاية في هذه الحال.

خامساً، ثابر على معاداة كل الملذات الدنيوية المتولدة عن التراخي والكسل. فإن كنت هكذا، فأنت أقل تعرّضاً للهجمات والتجارب، ليس فقط الجسدية، بل الشهوانية عموماً، والتي من شأنها أن تمد جذورها حتى التراخي والكسل. فعندما تقطع الكسل وتبتر التراخي، تصبح

الأهواء بدون قوة (عاجزة)، وتفقد ثباتها واستبدادها حتى تستأصلها. لا تتساهل مع الفكر الذي يدعوك إلى التهاون واختبار اللذة أو تذوّق متعة واحدة فقط. فالمتعة هذه، وان كانت غير مذمومة، إلا أن قبولها هو بداعي الشفقة على النفس. فإن حصل وتراخيت، ستحرك الأهواء رأسها وتتحرك فيك كالدود عند انسكاب الماء عليها. ولا غرابة أو عجب ان ثارت احداها، على نحو يكون الجهاد ضدها صعباً وعسيراً، والنصرة غير أكيدة. لذا لا تنسى كلمات الكتاب التالية: «من يحب نفسه يهلكها (أي من يحب نفسه، هو إنسان يهلك نفسه)،» ومن يبغض نفسه في هذا العالم، (أي الذي لا يتيح لنفسه فرصة للتراخي والشفقة)، يحفظها إلى حياة أبدية» (يوحنا ١٢: ٢٥). إذن أيها الأخوة، نحن مديونون ليس للجسد لنعيش بمقتضاه، فالعيش للجسد يؤول إلى الموت. أما ان كنا بالروح نميت أعمال الجسد، فسنحيا (رومية ٨: ١٢ - ١٣).

سادساً، وفي النهاية أسدي إليك هذه النصيحة الأخيرة: من النافع جداً، أو بالحري من الضرورة القصوى بمكان، أن تبادر بادئ ذي بدء إلى اعتراف عام - بكل يقظة وانتباه، بكل الرياضات الواجبة، وفحص للنفس مرات ومرات مع يقين وعزيمة - انك بهذا تمتلئ بقناعة راسخة من وقوفك في حضرة نعمة الله، مصدر كل المواهب الروحية والفضائل وكل نصرة.

الفصل السادس والثلاثون

في ترتيب اكتساب الفضائل

يتوجب على جندي المسيح الحقيقي، المفعم برغبة الوصول إلى منتهى الكمال، أن لا يضع حدوداً للجهاد من أجل بلوغ النجاح الكامل في كل شيء. لكن في الوقت نفسه، عليه أن يوازن خطواته ويوجّهها بفعل حرارة روحية قائمة على الحصافة والتمييز، لا سيما في مستهل الدرب. فثورات روحية كهذه، من شأنها أن تثور بقوة لا تضاهى، ما تلبث أن تخفت وتضعف تدريجياً حتى تنطفئ، تاركة ايانا مرهقين في منتصف مسيرتنا. الفضائل الجسدية يمكن اكتسابها شيئاً فشيئاً بالصعود كما على درجات سلم. كذلك ينبغي أن نراعي نظاماً تدرّجياً في فضائل النفس الداخلية. بهذا ينمو القليل الذي لنا، ويدوم فينا إلى الأبد. مثال على ذلك: في مسيرة اكتساب فضيلة الصبر، يستحيل البدء فوراً بالترحيب بالظلم الواقع علينا، أو قبول الاهانات، وكل أشكال الحزن الأخرى، فنبحث عنها، ونسر بها. فهذه درجات رفيعة جداً من الصبر، ولا بد دون بلوغها، من الارتقاء بدءاً من الأسفل، وأعني: التواضع واذلال النفس إلى درجة اعتبارها تستحق كل ملامة واهانة. يضاف إلى ذلك غلبة أحاسيس الرغبة بالثأر، وهي عنيفة، فتمج أصغر فكرة إلى الانتقام... الخ.

علاوة على هذا، أنصحك بعدم التدرّب على كافة الفضائل دفعة واحدة، أو حتى على قسم منها. إنما ثبّت نفسك في واحدة، ومنها تصير النقلة إلى أخرى. بهذا تتجذر فيك الفة الفضيلة بيسر وثبات. وبالثبات

على فضيلة واحدة، ينشغل الذهن بها، ويلتحم بالتأمل فيها دون سواها. ومن شأن هذا، أن يؤدي إلى بلوغها واتقانها، وتكون ارادتك مستعدة وتواقة، الأمر الذي يساعد كثيراً في اتقان التآلف مع الفضائل، واكتساب مهارات عملية في وسائلها وأحوالها. وهذه النتائج لانترجاها ان كنا عاكفين على فضائل عدة، دفعة واحدة.

كذلك فالتقارب والتشابه في أمور الفضائل أمر حاصل، واتقانها سيسهل النقلة من الواحدة إلى الأخرى، بأقل قدر من الصعوبة، مقرونة بأكبر سرعة ممكنة. فالفضيلة تقوّي الفضيلة القريبة منها، وتساندها. وبمجرد قيامها في القلب، تساعده على اقتبال مثيلاتها، فتكون كل فضيلة تكملة لفضيلة أخرى. ونحن نعرف من الخبرة، أنه إذا روّض المرء نفسه على فضيلة واحدة، بجد واخلاص، وامتلكها جيداً، فإنه سيتعلّم ليس فقط كيف تدين له الفضائل الأخرى، إنما ستزداد خبرته مع الأولى أيضاً. فالأولى ستدعم كل الفضائل اللاحقة، وتشد أزرها. فالفضائل متماسكة، ولا تنفصل احداها عن الأخرى. إنها كحال الشعاعات الصادرة عن النور الإلهي نفسه.

الفصل السابع والثلاثون

ما هي الاستعدادات المطلوبة لاكتساب الفضائل عموماً وكيف يكون التدريب من أجل كل واحدة منها؟

على من يرغب في اكتساب الفضائل أن يكون كبير النفس، متين الارادة، جسوراً وذا عزم ثابت لا يعرف الفتور والتواني. وليعلم أن صعوبات عديدة تتربّص به، والجهادات الشاقة تنتظره، وذلك لكي يكون مستعداً لتحملها والقيام بأعبائها بحزم وثبات. وعليه، فينبغي أن يحب كل فضيلة بحرارة، وأن يصبو إلى السيرة الفاضلة، فيكون ذا غيرة متقدة تخوّله أن يبلغ إليها. وينبغي أن تكون قوته قائمة في درب الفضيلة المضني والصعب. ينبغي أيضاً أن يكون حاراً بالروح، كي لا يضربه الضعف، فيبلغ به مبلغاً يتوقف معه عن السعي. لذا لا تهمل غيرتك، بل اجعلها متقدة على الدوام نحو الفضيلة. ليكن قلبك مفعماً بمحبة السيرة الفاضلة المرضية لله. كم تكون الحياة الفاضلة سامية وجميلة في حد ذاتها وكم هي ضرورية ونافعة لنا؟ انها بداية كمالنا ونهايته. من أجلها هي بداية كمالنا الحقيقي ونهايته، كذلك فإن بداية تقدمنا ونهايته فيها أيضاً.

لذا حاول كل صباح أن تفحص ذاتك جيداً، وتوقّع الظروف المحتمل أن تصادفها أثناء النهار، إذ من شأنها أن تتيح لك الفرصة للقيام بعمل حسن. أرفقْ ذلك برغبة ثابتة وعزم أكيد بأن تنتفع من هذه الظروف بدون فشل. وفي المساء افحص ذاتك فيما إذا كانت الأفكار الحسنة والرغبات الصالحة التي كانت فيك عند الصباح، قد تحققت،

وكيف تم تحقيقها. وفي الصباح التالي، جدّد النوايا ذاتها مع الرغبات بغيرة نشيطة ورغبة حارة، جاعلاً نصب عينيك أن تحققها كاملة.

حاول أن توجه كل شيء شطر ممارسة فضيلة محددة، كالتي عزمت على اقتناء بركاتها لنفسك. وفي الحاضر اتخذ لك سيرة القديسين قدوة، مع التأملات في حياة والآم ربنا يسوع، وسواها من الأمور الضرورية المناسبة، للحصول على النجاح في الفضائل والسيرة الروحية. وجّه كل هذا نحو الفضيلة التي انشغل بها قلبك. وحاول في الوقت ذاته أن تستفيد من الأحداث العابرة اليومية، مهما تعدّدت. وهذا ليس كي تمنعها من افساد ترتيب رياضتك في الفضيلة التي انشغلت بها، إنما كي تكون هذه الأحداث سبباً لتدعيم وترسيخ الفضيلة فيك. أما الحد الأقصى لمثل هذه الممارسة، (العادة) فهو أن تبلغ إلى حالة تكون فيها أعمالك الفاضلة الخارجية منها، والداخلية، بنفس السهولة والجهوزية، كأعمالك السالفة التي عاكستها. وبالحري أن تكون بنفس السهولة التي بها نشبع احتياجات وجودنا الطبيعية. وهذا يعني أن تكون أعمال الفضيلة، جزءاً من طبيعتنا. وسوف اذكّرك بما قلته، انه كلما كثرت العراقيل التي تصادفها، الخارجية منها والداخلية، في دربنا إلى الفضيلة، تزداد السرعة والعمق التي تمتد بها جذورها في نفوسنا. وهذا يكون في حال رغبنا بالتغلب عليها، بعزم ثابت، وبدون تساهل مع الذات.

إن مطالعة الأقوال المناسبة من الكتب الإلهية، أو مجرد ترددادها في الذهن، لهي في ذاتها قوة عظيمة في فعلها، تقدر أن تطبع فينا صورة الفضيلة التي ننشد، وتحرّك الشوق إليها من القلب. وهذه خير معونة نستمدها في شوقنا إلى الفضيلة. لذا فتّش في الكتاب المقدس عن مقاطع تختص بالفضيلة التي تبغي، واحفظها عن ظهر قلب، حتى تمثل بين يديك. ردّدها باستمرار قدر المستطاع، لا سيما عندما يبادر الهوى المضاد إلى التحرك فيك. مثال على ذلك: ان كنت تعمل طمعاً في فضيلة الصبر، عليك أن تنتقي وتحفظ غيباً المقاطع التالية من الكتاب: (بطيء الغضب كثير الفهم) (أمثال ٣٤: ٢٩). (رجاء البائسين لا يخيب إلى

الدهر) (مزمور ٩: ١٨) (الويل للذين تركوا الصبر) (سيراخ ٢ : ١٤). (البطيء الغضب هو خير من الجبار، ومالك روحه، خير ممن يأخذ مدينة) (أمثال ١٦ : ٣٢). (بصبركم تقتنون نفوسك) (لوقا ٢١ : ١٩). (لنحاضر بالصبر في الجهاد الموضوع أمامنا) (عب ١٢ : ١). (ها نحن نطوب الصابرين) (يعقوب ٥: ١١). (طوبى للرجل الذي يحتمل التجربة) (يعقوب ١ : ١٢). (أما الصبر فليكن له عمل تام) (يعقوب ١ : ٤). (لأنكم تحتاجون إلى الصبر) (عب ١٠ : ٣٦). أضف إلى هذه، صلواتك الموجزة التالية والتي على شبهها: «يا إلهي متى يتحلى قلبي بالصبر؟ متى احتمل كل مذمة بقلب غير مضطرب حتى تبتهج فيّ يا الله». «علمني يا رب كيف أرحب بالشدائد التي تجعلني أقتدي بك يا يسوع، يا من احتملت الالام من أجلي. آه يا يسوع، أعطني ولو إلى حين أن أحيا بلا اضطراب بين ألوف الضيقات من أجل مجدك».

«طوبى لي ان كنت أضرم الشوق إلى الاحتمال وسط نيران الشدائد مشتهياً شدائد أعظم، وعلى نحو أعظم. ومن أجل احراز تقدم في الفضيلة، ينبغي أن تكون هذه الصلوات ومثيلاتها، بروح التقوى والايمان، لأن مثلها هي حسب قول النبي: «طرقاً إلى هياكل الله في القلب» (مزمور ٨٤: ٥)، فتمتلئ بالإيمان والرجاء من القلب وتصعد إلى العلاء لتبلغ مسمع الله (مزمور ٣٨: ١٠). «هذه هي الصرخات التي يسمعها الله وإليها يستجيب. . .» (مزمور ٥ : ٢). لكن على الإنسان، إضافة إلى هذه، أن يضيف شعورين مرهفين قوين، هما بمثابة أجنحة للصلاة:

١ ـ الله يبتهج عندما يرانا نجتهد إلى بلوغ الفضيلة.
٢ ـ وإذ نمتلئ بكل شوق لبلوغ كمال الفضائل، لا نتوخى غير ارضاء الله.

الفصل الثامن والثلاثون

يجب ممارسة الفضيلة بثبات واجتهاد

في الجهاد من أجل اكتساب الفضائل، ينبغي العمل دائماً بالامتداد إلى ما هو قدام (فيليبي ٣: ١٣). وهذا ان كانت الرغبة في الوصول إلى النجاح بسرعة وعلى عجل. فالتوقف، ولو لأمد قصير، من شأنه أن يرمينا، فنسقط للحال. وحيثما الاهمال والتواني في الجهاد، هناك تشرئب رؤوس الأهواء، لتعتلن في حياتنا، رغم أنه سبق لنا أن هزمناها وطردناها. فهي تؤثر فينا عن طريق قابليتنا للمحسوسات، وتساهلنا مع النفس، فتُنزل بنا الطيش، مع حركات وشهوات داخلية، لا سيما عندما يروقها محيطنا الخارجي. فهذه الحركات التي من داخل، هي التي تفسد أمورنا الحسنة. وما يؤذينا، هو الحرمان من عطايا النعمة، التي بدونها، لا نمتلك أي شيء حسن، ولا نحرز أي تقدم في الشأن الروحي.

وينبغي لك أن تعلم، أن المضي في درب السيرة الروحية، ليس هو نفسه الدرب الذي نسلكه على الأرض، لأن المحطات التي يقوم بها المسافر أثناء رحلته، لا تفقده شيئاً من المسافة التي قطعها. إلا أن توقّف المسافر في درب الفضيلة عن المتابعة الروحية، من شأنه أن يفقده الكثير من الفضائل التي سبق له أن جناها. ففي حالة السفر، كلما تقدم المسافر كلما أنهكه التعب. أما في السفر الروحي، فكلما تقدم إلى الأمام، كلما جنى قوة أكثر، تحفزه على تقدمه التالي.

ومفاد ذلك، أن جهادات درب الفضيلة تخفض المقاومة من الجهة

الدنيا، وأعني الجسد الذي يعرقلنا في درب الفضيلة، ويعاكسنا إذ هو يناهض الروح ويعاكسها، بينما يتقوى الجانب الأعلى، حيث ترتع الفضيلة وأعني الروح، فيتشدد المرء، أكثر فأكثر. لهذا فكلما أفلحنا في الفضيلة والخير، كلما صغرت الصعاب المؤلمة التي تصادفنا لدى المضي في هذا الدرب. أضف إلى ذلك أن عذوبة سرّية داخلية تنساب إلى قلوبنا آتية من الله، ما تلبث أن تتزايد شيئاً بعد شيء. فكلما تقدمنا نحو الأمام بإرادة أمتن، فإننا نعرّج من فضيلة إلى أخرى، حتى نبلغ ذروة الكمال الروحي، حيث تبادر النفس إلى ممارسة شتى أنواع الصلاح، بجهوزية وشوق وغبطة طبيعية، فقد غلبت الأهواء، وابتعدت عن كل ما هو حسي، لتحيا لله، حيث أنها في خضم جهاداتها وأعمالها الروحية، تتذوق عذوبة السلام، بلا انقطاع.

الفصل التاسع والثلاثون

على المرء ألاّ يتجنب الفرص التي يصادف، من أجل أعمال الخير

إن كنت تود السير قدماً في درب الفضيلة دون توقف، فاحرص على السانحات المتاحة لك لكسب الفضيلة، ولا تدعها تهرب منك. فالذين يتحاشون، قدر المستطاع، كل صنوف الصعاب التي تبرز في درب الفضيلة، إنما هم أناس عديمو الخبرة. فالصعاب هي التي تساند المرء في الفلاح والتقدم. فإن أردت اكتساب فضيلة الصبر، فلا ينبغي أن تتحاشى الناس والأمور والأحوال التي يمتحن فيها صبرك بشكل دقيق. إنما بادر إلى مقابلتهم بارادة حسنة، مصمماً على تلقّي ازعاجاتهم، وكل سوء آخر، بهدوء وثبات. فبدون ذلك، يستحيل تقدّمك في الصبر. عليك أن ترضى أي عمل يضايقك، سواء من ذاته، أو بحكم كونه مفروضاً عليك من انسان تمجّه، أو لأنه يزج نفسه في أمور تحبها حقاً. بكلام آخر، عليك مواجهته، لا تحاشيه. قم بالعمل حتى تنهيه، كما لو أنه أحبّ الأعمال إلى قلبك. لا تدع قلبك يضطرب البتة بحجة أنه لو أنك فعلت ذلك ستكون في سلام مطلق. بدون مثل هذه المواجهة، لن تتمكن من احتمال الشدائد، ولن تجد السلام الذي تنشد. فسبب هروبك من الصعاب، هو في الأساس شفقة على الذات، والقلب العالق بالشفقة هذه، لن يعرف السلام.

أدعوك إلى القيام بالأمر نفسه من جهة بعض الأفكار التي تداهمك حيناً، فتزرع الاضطراب في قلبك عبر ذكريات اساءة أحد إليك، أو عبر

شؤون الآخرين المنحرفة. لا تسمح للأفكار أن تطيح بك، بل دعها تهجرك من ذاتها، لا بفعل معارضتك لها. وهذا يكون بالصبر الذي به تتقبل الذين يضايقونك ويؤلمونك. في الوقت نفسه ستتعلّم أن تحتمل المكاره بصبر. وعموماً، فإن من يوعز إليك بالاحجام عن هذا التفكير، إنما يحثك حقيقة على كسر قوة الشوق الذي تحمله نحو الفضيلة التي تبغي.

أما في حالة الايافع غير المجرَّبين في الحروب، فمن الأفضل أن يهربوا من الضيقات العابرة، ولا يكترثوا لها، من أن يعرّضوا نفوسهم إلى مؤثراتها، فيقعون في حبائلها. لكن حتى في مثل هذه الحالة، لا ينصح المرء بادارة ظهره للهرب. فمن الأفضل له أن يقابل الهجوم بيقظة وحذر، وفي وقت آخر لا يكترث له البتة. وهذا منوط بدرجة التقدم في الفضيلة والقامة (الروحية). أما من جهة الشهوة الجسدية فقط، فلا ينصح العمل على هذا النحو: فهنا يتوجب الهرب من كل المناسبات التي من شأنها أن تضرم هذا الهوى بداعي زيغانه، وبداعي مكر العدو الذي يعرف كيف يموّه حركات الشهوة الجسدية، فيستميل الإنسان إلى اشباعها.

الفصل الأربعون

على المرء أن يحب الفرص الصعبة من أجل ممارسة الفضيلة

لا تهرب أيها العزيز، مهما كان السبب، من الفرص التي تتاح لك، كي تكتسب الفضيلة. إنما على العكس، فبمجرد أن تعرض عليك السانحة، اقبلها بغبطة، معتبراً اياها خير الأمور التي ينبغي قبولها بترحيب، رغم الكآبة وعدم الراحة التي تنتج عنها. وأنا أرجو بنعمة الله وعونه، أن تعمل هكذا، ان جعلت في نفسك الأمور التالية:

أولاً، تأكد أن خير وسيلة، بالنسبة إليك، بها تقتني الفضيلة، هي هذه الظروف المتاحة لك من الله، لمساندتك في اكتساب هذه الفضيلة أو سواها. فأنت حينما رغبت بفضيلة محددة، لا بد أنك قد سبق أن صليت إلى الله طالباً اياها منه. أيضاً لا بد وأن تكون قد صليت من أجل الوسائل التي بها ستكتسب هذه العطية. إلا أن الله لا يهب الصبر قبل تجاربه، ولا التواضع بدون الظروف المرتبطة بالإهانات والتحقير. فالله أرسل لك هذه الوسائل الناجعة، استجابة منه لصلاتك من أجل الفضائل. فأنت حينما تهرب منها، فأنت ترفض عون الله الذي طلبته عبر الصلاة، وتهزأ بعطايا الرب. لذا رحّب في قلبك بسرور، بكل فرص الفضيلة التي تعترض سبيلك، وينبغي أن يكون سرورك بها على قدر صعوبتها. ففي مواقف كهذه نجني شجاعة كبيرة للعيش بمقتضى الفضيلة، ونتزود بطاقة اخلاقية هائلة، فنسير بخطى كبيرة في الدرب الروحي، وهذا دأبنا وغايتنا.

وأنصحك باستخدام الظروف الهامة والمواقف الصعبة العسيرة،

من أجل اكتساب الفضيلة. وبالطبع لا أعني هنا أن تقلل من شأن الظروف الأقل أهمية، أو المواقف الأقل تعباً وصعوبة، فتسلك نحوها كمن يغض الطرف عنها. لا، لا، لا تتغاضى عن أية سانحة، كبيرة كانت أم صغيرة، وذلك لكي تعمل في الفضيلة بلا انقطاع. وعلى سبيل المثال، عليك أن تحتمل ليس فقط الاساءات العنيفة، أو الاهانات المروّعة، بل أيضاً اللكمات والضرب واللطمات، مع نظرات الاحتقار والتعابير المزرية، والكلمات النابية، التي تقال فيك. فمثل هذه المواقف الأقل أهمية، هي الأكثر شيوعاً. واستجابتنا القويمة لها، تصون أخلاقيتنا، وتبقينا في جهوزية دائمة. وهكذا نتزوّد بالقوة الكافية، للسلوك كما يليق، في الظروف الهامة والصعبة. أما ان أهملنا هذه السانحات، فإن قوتنا الأخلاقية تضعف، فنصبح أكثر ضعفاً أمام مواجهة الأمور الهامة.

ثانياً، ضع في ذهنك أن الأمور العابرة تجري بمقتضى مشيئة الله، ولخيرنا وفائدتنا، وذلك كي نجني من دراستها، ثمرة روحية معينة. هذا علماً أنه لا يمكننا أن نفترض بأن أموراً، كخطايانا وخطايا الآخرين، تمت بمشيئة الله. نحن لا ننكر أنها بسماح منه، وهي بمثابة وسائل تلفتنا وتقودنا إلى التواضع، كي ما نتطهّر بالمعاناة والتعب، سواء تلك الناتجة عن آثامنا، أو التي يرسلها الله عبر الآخرين، كي ما نفوز ببركة الفضيلة التي نصبو إليها، ان كنا نحتملها كما ينبغي. الأمر نفسه ينطبق على أحكامه الأخرى المخفية فينا، والتي هي بدون شك، محقة ومباركة.

وهكذا، اقتنع بأن الله نفسه يريدك أن تحتمل التعب والحزن النازل بك، سواء كان من طبيعة الاخرين الشريرة، أو من أفعالنا نفسها. لا تفكر على غرار ما يفعل البعض. لا، ان هذه لم تأت من الله، إنها الظلم والأثم، والله لا يشاء الأثم، بل يبعده مع كل مرتكبيه. بهذا يبرر الناس قلة صبرهم وانفعالات الغضب التي رزحوا تحت تأثيراتها، ومشاعر الانتقام التي يحسون بها لدى رؤية الظلم. لكن الحقيقة أنهم بذلك يبعدون ترتيبات الله، وينفرون منها، ويحاولون أن

يطرحوا عنهم صليب معطي الحياة، الملقى عليهم من الله، لخيرهم، بدلاً من حمله بقلب صالح، كي ما يرضوا الله. ماذا يجنون من هذا؟ هم غير قادرين أن يلقوا عنهم صليبهم، بل يضيفون إليه حزناً وغماً وثورة لا طائل تحتها، وتصير حالتهم غير محمولة، فيسيئون إلى الله، ولا يفوزون بالسلام. فيما لو أنهم احتملوا ما أصابهم، بقلب صالح، يصيرون في سلام تام ويستميلون حب الله لهم، فيأكلون ثمار الروح، بغنى. لذا أجعل هذا قاعدة لنفسك: عندما تقابل الظلم والاهانات والهجمات، لا تكترث لها مهما كانت خطيئة من يسيء إليك. إنما أجعل انتباهك على أمر واحد فقط، هو أن الله سمح بهذا، لمنفعتك، وأنك بالتمادي في قلة الصبر والثورة والخصومة، ستحرم نفسك من هذا الخير. لا تحاول أن تحلّل في السبب الذي من أجله سمح الله بذلك. أما تعتقد أن الله محق ورحوم؟ أقتنع من هذه المناسبة أيضاً أنه يعلن لك عدله ورحمته، رغم أنك لا ترى كيف. تذكّر كيف أن الرب يبارك الذين يسلكون هكذا: «طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يوحنا ٢٠ : ٢٩). أما تعتقد أن كلمات الهك: «احمل صليبك»، تعنيك أنت شخصياً؟ ان كنت تؤمن بهذا، بادر إلى حمل صليبك الذي جعله على عاتقك في الشدة الحاضرة. لا تقل إنه صليب ثقيل جداً، فالرب يعلم مقدار احتمالك وقوتك. فهو يرسل لبعض الناس تجارب وأحزاناً ناجمة عن ظروف لا شأن للآخرين بها، وهذه تحتمل بسهولة. كما ويرسل للبعض تجارب وأحزاناً ناجمة عن الناس، وهذه أصعب، لا سيما ان حدثت عن سابق أصرار. أما الأصعب، فهو أن نكون قد أحسنّا لمن يسيء إلينا. الحالة الأخيرة هي الأصعب من جهة الاحتمال. فإذا أرسل لك الله هذا، فاعلم أنه، بكل دقة، الأكثر نفعاً لك، وكن على يقين أن الله يرى قوتك على نحو يكفي لاحتمال هذه الآلام، ويتوقع منك أن تحتمل الآلام بقلب صالح دون تأفف، فلا يخيب أمله فيك.

وينبغي أن أضيف بأن الله يُؤثر احتمالنا ـ لتلك الأتعاب النازلة علينا من طبيعة الناس الشريرة، لا سيما أولئك الذين صنعنا معهم

بعض الخير، ـ على الأتعاب الناجمة عرضياً من ظروف غير مستحبة. لماذا؟ لأن كبرياءنا الذاتي يستعبد بسهولة، وينغلب، عن طريق الأول، أكثر منه عن طريق الثاني. وأيضاً لأنه ان كانت الطاعة لارادة الله هي الأساس في العمل الروحي، فليس ثمة طريق أفضل لبنياننا كما في مثل هذه الحالات. وذلك ان كنا نحتملها بقلب صالح، رافعين شكراً حاراً لمن أرسلها، فهي بمثابة بركة عظيمة لاثبات طاعتنا التامة لله وارادته، مع عزمنا الأكيد على عمل كل شيء بمقتضى مشيئته. ان هذا الاستعداد يسبق الافتقاد بالتجارب، ويتولّد عنه. وهذه التجارب تقوّي الاستعداد، وترسخه، فيرسل الله كأس التجارب الأقوى التي إذا احتملناها برضى، وبقلب صالح وغبطة، تأتينا على الدوام بالثمرة الروحية المباركة. فلنرجو هذا من الله إذ فيه عظم حب الله، ـ بايمان تام وبلا تشكك، ـ لنا، وفيه أيضاً يقين تقدمنا الروحي. وهكذا فبمقدار الفرح، وعدم التذمر، تكون مذاقتها ذات مرارة أكبر.

الفصل الحادي والأربعون

التقدم في فضيلة واحدة
في ظروف مختلفة

قلنا في احد الفصول السابقة أن العمل على فضيلة واحدة في زمن محدد، أنفع وأجدى للنفس، منه على فضائل عدة في زمن محدد. فينبغي على الواحد منا أن يستفيد من كل الأحداث التي تقابله في الحياة اليومية، مهما اختلفت. والآن، اسمع كي أبيّن لك كيف يكون ذلك، وبدون صعوبة.

إن حدث مثلاً أنك في يوم من الأيام، أو في ساعة ما، إن واحداً لامك جوراً على أمر لا يستحق اللوم في ذاته، أو أن أمراً ما رُفض لك، أو أن أمراً ما أثير ضدك ظلماً، أو أن مرضاً جسدياً أصابك، أو أن أحد رؤسائك أرغمك على أمر لا ترغب به، أو أن أموراً محزنة واجهتك وهي لا تطاق، والتي هي كثيرة في حياتنا الانسانية. عندها، فبسبب الاختلاف الطبيعي بين كل هذه الأمور وما يشابهها، هناك أمور مختلفة تطلب منك. لكن خير لك، على أساس القاعدة التي اعتمدتها، أن توجّه كل هذه على أساس الفضيلة التي تمارسها في ذلك الحين. هكذا، فإن كنت في وقت مواجهة هذه الحوادث المذكورة، تدرّب نفسك على فضيلة الصبر، فبادر إلى احتمال هذه كلها بصبر وفرح. وان كنت منشغلاً في الأساس بفضيلة التواضع، جاهد كي تدرك أنك تستحق كل نوع من الشرور، وأنك تستحق الضيقات التي واجهتك. وان كان عملك يقضي أن تكتسب فضيلة الطاعة، فأرغم نفسك أن تنحني بخضوع تحت يد

الله القدير، بتسليم كامل لمشيئته مبتغياً رضاه. سلّم برغبة لمخلوقاته، سواء كان لها عقل وحياة، أو لم يكن، والتي من خلالها أرسل الله هذه الضيقات والشدائد. وان كنت تتوق إلى النجاح في فضيلة الفقر، فحرّك في ذاتك الشعور بالرضى والفرح والشكر بأنك محروم من كل عزاء عالمي ودنيوي. وان كنت تجاهد من أجل فضيلة المحبة لترفعها وتعمقها فيك، فحاول أن تثير في ذاتك مشاعر محبة القريب، فمن خلالها تجني الخير الذي تريد. حُثّ نفسك على محبة الله، فهو الآن كما في كل حين العلة الأولى للمحبة، وهو يرسل هذه الضيقات أو يسمح بها، من أجل تقدمك الروحي.

مما قلت، يمكنك أن ترى لنفسك كيف تستخدم من أجل فضيلة واحدة، الضيقات الكثيرة، والتي تدوم طويلاً، كالمرض مثلاً، أو أموراً أخرى مماثلة.

الفصل الثاني والأربعون

كم من الوقت ينبغي على المرء ممارسة الفضيلة وما هي علامات تقدّمه فيها ؟

يستحيل أن نحدّد نظريًّا مقدار الوقت الذي يستغرقه الإنسان للتمرّس على فضيلة ما. فهذا يحدّده المرء عندما يراعي ظرفه، وحالته، ودرجة تقدّمه في الحياة الروحيّة، لا سيّما بحسب قضاء وحكم شيخه (starets) أو أبيه الروحي الذي يوجّهه. فإن كانت غيرة الانسان متّقدة، فلا يمكن لأيّة عقبة أن توقفه، أو أيّة وسائل أن تعصى عليه، إذ سرعان ما يظهر فيه تقدّم ملحوظ.

وعلامة التقدّم هذا، هي أن يسلك المرء درب الفضيلة، بغيرة وجهاد، وقد عقد العزم أن لا يقلع عنها ويتركها، مهما اشتدّت صعوباتها، ومهما كانت التضحيات فيها، والتي قد تفرض نفسها. ورغم كل حالات فتور النفس وعتمتها الداخلية عندما يحلّ الفقر الروحي، فيفقد الانسان كل التعزيات والأفراح المباركة، مع كل ما تسمح به عناية الله من أجل خيرك.

أمّا العلامة الثانية على التقدّم الروحي، والتي تشير إلى النمو في الفضيلة، فهي ضعف حروب الجسد مقابل الأعمال الحسنة، وعلى قدر الإقدام على الأعمال الحسنة. فكلّما فقدت الحرب من شدّتها، علينا، كان هذا إيذاناً بالتقدّم في الفضيلة، كذلك عندما لا تشعر بهجمات من جهة الحسيّات الأدنى في الطبيعة، لا سيّما عندما تكون ظروف قيامها

نصب عينيك، عندها ثق ان الفضيلة قد قويت. إلاّ ان العلامة الأولى، هي الأكثر دلالة على انك تسير بثبات في درب الفضيلة، من العلامة الثانية.

وبحسب نصيحة القديس اسحاق السرياني، فالمرء الذي حدّد الهدف الذي من أجله يوجّه كل أعمال حياته، لا بدّ أن يسأل أهل الخبرة عن العلامات التي تبيّن سيره في الدرب الصحيح، أو انحرافه عنه، إلى درب فرعي. وعليه أن يجعل هذه العلامات في ذهنه على الدوام. أمّا العلامات فهي الأمور التالية: إن وجدت ذهنك مستعدًّا وبلا تغصّب، للأفكار الحسنة، فهذا علامة تقدّم. وفي نفس الوقت، إن وقفت للصلاة لا يشرد ذهنك ويتوقف لسانك على حين غرّة، عند فقرة ما، فيسودك سكون ليس طوعيًّا أو عن اختيار، أو لاحظت انه مع كل فكر أو أمر حسن، أو تأمّل روحي، تمتلئ عيناك بالدموع وتنساب على خدَّيك، أو كنت أحياناً ترى ذهنك يدخل قلبك بدون جهد، ويبقى على هذا المنوال قرابة الساعة، بينما يكون السلام في أفكارك، فهذه كلّها علامات التقدّم في دربك الروحيّة (فصل ٤٤).

إلاّ انه من الخطأ التيقّن أنّنا أكملنا بنيان الفضيلة المرجوّة، أو ان بعض الأهواء قد غُلبت نهائيًّا حتى ولو ان ضغوطاتها احتجبت، مع تأثيراتها، إلى أجل طويل. فهذه ربما تكون خديعة شيطانية، أو حيلة من الخطايا التي فينا. فالأمور ذات الطبيعة المختلفة، كثيراً ما نراها تحت نور جيّد ونقبل بها، على انها حسنة، وذلك بفعل الكبرياء الرابض فينا. علاوة على ذلك، لو اننا فكّرنا بالكمال الذي يدعونا الله إليه، فنحن ولو قطعنا شوطاً في الفضيلة، إلاّ اننا سنحسّ بالتقصير، فنحن بالكاد بدأنا الخطوة الأولى في الحياة التي ينبغي أن نسلكها. هذا هو السبب الذي يجعل الآباء القدّيسين يدعون حياة الأكثر كمالاً، ناقصة، أي انها لا تخلو من النواقص. فكمال الكاملين نفسه، ليس كاملاً، كما يقول القديس يوحنا السلمي. القديس بولس يرى الكمال في دوام السعي، دون النظر إلى الوراء، أو التفكير بأننا قد بلغنا ما نصبو إليه، فيقول:

«ليس اني نلت أو صرت كاملاً، ولكني أسعى لعلّي أدرك... إلاّ انني أفعل شيئاً واحداً، وهو انني أنسى ما وراء وأمتد. أسعى إلى الغرض من أجل جعالة دعوة الله العليا في المسيح يسوع». (في ٣ : ١٢ - ١٤). ولّما كان يريد أن يبيّن ان الكمال هو في هذا، قال: «فليفكر بهذا جميع الكاملين منا» (في ٣ : ١٥). فالكمال ليس في أن يظن المرء انه بلغ الكمال، لأن حياة الفضيلة، لا تتوقف، بل تتقدّم باستمرار.

أضِف إلى ذلك ان بعض الأهواء الدقيقة فينا، تتحرّك بين الحين والآخر، حتى اننا لا نعرف إن كانت أهواء أم لا. فكيف نتكبّر ونظن اننا قد تطهّرنا منها تماماً؟ إن كانت عين داوود النبي النبوية، ذات النظرة الثاقبة، لم تتمكن من تمييزها فيه، فكيف ننسب نحن القدرة على هذا، إلى نفوسنا؟ داوود نفسه لم يكف عن الصلاة إلى الله قائلاً: «نقّني من هفواتي الداخلية» (مزمور ١٩ : ١٢)، فأين نكون نحن، وكم نحتاج من تضرّع إلى الله كي يطهّرنا من أهوائنا الدفينة؟ نحن عاجزون عن إدراك هذه الأهواء والاحساس بها وبتأثيراتها ومفاعيلها بدون استنارة الروح القدس. نحن نعرف أهواءنا عندما تكون فعّالة فينا. أمّا إن هدأت، فنتوهّم اننا بلغنا اللاهوى.

كيف نعرف ان الأهواء لم تمت فينا، لكنها هادئة فقط؟ هذا يكون بالعلامة التالية: إن صادفك موقف ما يغذّي الأهواء التي فيك، لا سيّما إن حدث هذا فجأة، فبدأت الأهواء تظهر وكنت تحسّ بها، وكانت حركاتها في غاية الشدّة والعنف، وتسبّب الاضطراب، فلا تعجب، فالأهواء مختبئة فيك، وها هي الآن تخرج. ويشرح القدّيس اسحاق السرياني ذلك بصورة جميلة: «تختفي الأعشاب والزهور من الأرض في فصل الشتاء، إلاّ ان جذورها تبقى سليمة في أعماقها. لكن ما أن تشعر بمطر الربيع ودفئه، تبدأ بالخروج من الأرض لتغطيها». هكذا الحال مع الأهواء. فكما ان الشوك ينبت في الأرض العارية، هكذا تُنبت الطبيعة الساقطة الأهواء. لهذا لا نستطيع الوثوق بطبيعتنا والاعتماد عليها.

الله وحده يعرف قلوبنا. فهو ينير البعض، ويسمح لهم برؤية

مقدار تقدّمهم في الفضيلة. إلاّ انه لا يمنح هذه الفضيلة للبعض الآخر، فهو يعرف ان مثل هذه المعرفة ستقود إلى التواضع في الحالة الأولى، إلاّ انها ستقود إلى المجد الفارغ، في الثانية. وكأب محبّ، فهو يبعد عن أتباع الحالة الثانية، الوقوع في الخطيئة التي يبغضها بشكل خاص. فيهب الأولين فرصة كي يزدادوا اتضاعاً، وهذا أمر يُسرّه. والشخص الذي لم يُعطَ معرفة عن تقدّمه، يستطيع الله أن يكشف له، على نحو ما، مقدار تقدّمه، إن كان يعمل على الدوام من أجل الفضيلة، وإن كانت مسرّة الله أن يكشف له ذلك، لمنفعته وخيره.

الفصل الثالث والأربعون

ينبغي على المرء أن لا يرغب بشدّة في الانعتاق من هجمات الضيقات، بل يجب أن يسلّم نفسه لله وإرادته

إن كنت تحتمل بعض الضيقات بشكر، فانتبه أن لا يجرّبك العدو بمكر، فتطلب الخلاص من الضيقات، بمحبتك لذاتك. لأنك ستسقط، وخسارتك ستكون مضاعفة. أمّا الخسارة الأولى، فهي انك ستفقد فضيلة الصبر التي فيك. فرغم حسن الرغبة بالتحرّر من الضيقات، إلاّ انه عندما لا تتحقّق، بفعل ضعف صبرك، فانك ستصل تدريجيًّا إلى الشكوى وفراغ الصبر. والخسارة الثانية، هي انك ستفقد أجرك الذي كنت ستفوز به لو احتملت الشدّة بقلب راضٍ. منذ أن أجبرت على الصبر، لا يُحسب لك الأجر، فالله لا يكافئ ولاً يفرح، إلاّ بمَن يحتمل عن حرية واختيار. فمجرّد الرغبة بالتخلص من الشدّة، لا يخلص منها. وطالما ان الاحتمال هو قسري وعن إرغام، فهو بلا جزاء. الله سيجازيك عن احتمال الشدائد منذ أن يبدأ احتمالك بقلب راضٍ لا يفتش عن نجاة. لذا، اخمد فيك رغبة التخلّص من الضيقات. أطردها بمجرّد الإحساس بها، وسلّم ذاتك لله بالكليّة، مظهراً استعداداً لتحمّل أحزان تفوقها بمئة ضعف، ان كانت هذه إرادة الله، أو إن كان الله أرسلها إليك. وإن حدث أن انتهت شدّتك الراهنة، بعد ساعة أو أقلّ، فالله سيراها ويقدّرها كأمر عظيم، ويكافئك عليها، كما يرى هو.

اعمل هكذا في كل الأمور الأخرى. لا تستسلم لأهوائك بل أحْكِمْ لجمها، ووجّهها بحزم نحو الهدف المركزي، أعني أن تبقى ضمن نطاق الإرادة الإلهية، فتنمو باطّراد بمقتضى إرادة الله. عندها تكون كل رغباتك صالحة، وتظل محتفظاً بالهدوء في تجاربك، فتجد سلامك داخل إرادة الله. وإن آمنت بكل ثقة وإخلاص انه لا يمكن أن يصيبك شيء بدون إرادة الله، وإن كانت رغبتك الوحيدة أن تفعل إرادة الله بكل ما فيك من قوّة، فمن الواضح، انه مهما حلّ بك ستتقبّله برضى.

وعندما أقول بأن لا شيء يحدث لك بدون إرادة الله، فأنا أعني الضيقات والحاجات والحرمانات التي يرسلها الله، امّا لتنبيهنا، أو لتعليمنا، أو مجازاة لنا على خطايا اقترفناها. إلاّ اني لا أعني خطاياك أنت، أو خطايا الآخرين من الناس، فالله لا يحب الخطيئة. التجارب هذه نافعة لنا، وقد دعيت بحق صليب النجاة الذي يجعله على مناكب أعزّ أحبّائه، وعلى الذين يجاهدون لارضائه، فحمل الصليب أمر يبهج الله ويلقى ترحيباً منه.

وعندما قلت: لا يجب أن نرغب التخلّص من الضيقات، فينبغي أن يُفهَم كلامي هذا، على أساس التسليم لمشيئة الله. فنحن لا نقدر إلاّ أن نرغب الانعتاق من الأحزان، فالله نفسه غرس في طبيعتنا الرغبة بالوجود الحق (well-being) وقد تضمّنتها الصلاة التي هو نفسه علّمنا إيّاها: «لا تدخلنا في تجربة لكن نجّنا من الشرّير». انها ما نردّده نحن أيضاً مرّات ومرّات في اليوم. فإن كان الله بعد أن سمع دون ريب، هذه الصلاة، يرسل إلينا الضيق والحزن، فمن الواضح انها إرادة خاصة، علينا إطاعتها، كوننا خليقة الله، ونعي واجبنا الذي يلزمنا بطاعة الله في كل شيء، فنخضع له بقلب صالح، محتملين الضيقات التي هي أساسيّة لخلاصنا.

وعندما نردّد الصلاة: «لا تدخلنا في تجربة...»، فاننا نعني: «ليس كما أريد أنا، بل كما تريد أنت (متى ٢٦ : ٣٩). بهذا نقتدي بمخلّصنا الصالح. ردّد الصلاة الربّانية، ليس كأنك تنفر من التجارب

وتودّ تحاشيها بكل ثمن، انما لأن الرب أمرنا أن نصلّي على هذا النحو. كن مستعداً من أعماقك لمقابلة ما قد سُرَّ الله بإرساله إليه، بقلب راض. ارفض الانجرار وراء رغبة حب الذات، واطمع في حياة تقوم على الوجود الحسن، بدون انقطاع، الأمر الذي يستحيل على الأرض، لأن حياة كهذه هي خاصة بتلك، الأبدية والمستقبلة.

الفصل الرابع والأربعون

التنبيه ضد مشورات الشيطان الشرّيرة فيما يختص بالأعمال الصالحة

عندما يرى الشرّير تقدّمنا في درب الفضيلة، وغيرتنا القويّة، ونظامنا الجميل، رغم كل حربه ضدّنا والتي يتوخّى فيها تضليلنا بإغراءاته المتجهة نحو الشرّ، فانه يتحوّل إلى ملاك من نور: فتارة بأفكار تبدو حسنة، وطوراً بآيات من الكتاب المقدس، وأخرى بأمثلة من سير القديسين. وكثيراً ما يحثّنا على الجهاد نحو الكمال على نحو متطرّف، أو في غير الأوان. وهذا كي يلقينا في الهوّة في اللحظة التي نتوهّم فيها اننا في الذروة. فهو يهمس للبعض أن يميتوا أجسادهم بشدّة بالصوم، والجلد والنوم على الأرض الصلبة، وبسواها من الأمور المماثلة، فيرميهم في الكبرياء، بإيهامهم انهم بلغوا درجات عظيمة الشأن. أو انه يرهقهم بالمرض، إلى حدّ أنّه يجعلهم عاجزين عن القيام بأبسط الأعمال الحسنة. أو انه يضربهم بالقنوط، عن طريق أحمالهم العسيرة الحمل، فلا يقوون بعد ذلك على الجهاد الروحي، حتى على مستوى خلاص نفوسهم. فتبرد غيرتهم تدريجيًّا، وهكذا يجعلون ذواتهم في صميم شهوات الجسد، وملذّات الدنيا، بشغف منقطع النظير. كم من نفوس أهلكتها هذه الفخاخ، فقد اندفعت بحماسة حمقاء، لكنها هلكت بداعي الغلو في قهر الذات، ومهارات النسك الزائد التي هي من ابتكاراتها، فصارت موضع سخرية لدى الشرّير، وكل أتباعه.

وبالطبع ما كـان سيحدث هـذا، لو انها احتكمت إلى مشـورة صالحة، أو تذكّرت ان الاماتات رغم كونها جديرة بالثناء، ومفيدة إن كان في الجسد ما يكفي من القوة، وفي النفس، اللازم من التواضع. إلاّ انه لا بدّ من ضبطها بأفكار صالحة، واستعمالها وسائط للتقدّم الروحي، لا أهدافاً قائمة في حد ذاتها. فهذه الاماتات، كثيراً ما تزيد، وكثيراً ما تنقص وتتعدّل، وأحياناً تتوقف ردحاً من الزمن.

فـالذين عـاشوا في تسـاهل مـع ذواتهم، على خـلاف مـا كـان القدّيسون، ولم يقووا على الارتفـاع إلى قامـة تلك الأعمال النسكيـة، يمكنهم أن يتبعوا درباً أخرى في حياتهم، فيظهرون أو يجعلون ميـولاً حسنة في قلوبهم، فيكتسبون عادة الصلاة الحارّة، ويشنّون حرباً ضـد أفكار الشهوة وكل الأهواء الـرديئة، ويحفـظون نقاوة قلوبهم، ويحبّـون السكينة والاعتزال، فهم متواضعون وودعاء مع الجميـع. يحسنون إلى جميع مَن يسيئون إليهم. يحفظون ذواتهم من كل ما هو شرّير، مهما كان صغير الشأن والأهميّة. فهذه الأعمال، إن كانت تنبع من القلب، فهي مرضيّة لله، وهي مصدر سرور له أكثر من إتقان الاماتات الجسديّة عندما لا تكون هذه الاخيرة (الاماتات)، من مستلزمات حالتنا الأخلاقيّة.

بالاضافة إلى ذلك، أنصحك باستخدام الاعتدال أثنـاء ممارسـة النسك الطبيعي، إن كان من ضرورة لذلك. لا تندفع في العمل على مستويات رفيعة جداً، بل ابدأ من الأسفل. فخير لـك أن ترتقي إلى الأعلى تدريجيًّا، من أن تقوم بأعمال تفوق قامتك، فتضطرّ إلى الهبوط إلى عارك وخزيك. كذلك أنصحك أيضاً بالعدول عن التطرّف الذي سقط بسببه كثيرون، بعد أن كانوا رجالاً في الروح، وذلك نتيجة للتساهل مع النفس، والشفقة عليها، فبالغوا بالاهتمام بصحتهم، وأفرطوا في العناية بأبدانهم، وكانوا يخافون عند أي حديث أو مناقشة، على صحتهم. ليس في أفكارهم ما هو أهمّ من صحتهم البدنية، وحياتهم، فيبتكرون أطباقاً من الـطعام شهيّـة تلذّ للذوق بدل أن تكـون صحيّة. بهـذا يبـدّدون صحتهم، من شدّة اهتمامهم بهذه الأمور، ويضعفون، ويحرمون أنفسهم

بركة الثواب الأسمى، لأنهم لم يعملوا بما هو ضروري لبلوغه.

ورغم تبريرهم لأعمالهم، بالرغبة في عمل أفضل، من أجل الرب، إلاّ ان ذلك ليس سوى محاولة للجمع بين خصمين لا يتصالحان: الجسد، والروح. ليس لأنهم أهملوا منفعة الاثنين وحسب، بل لأنهم تسبّبوا في أضرار لحقت بالاثنين معاً، فهم حرموا الجسد من العافية. والروح، من حالة النقاوة والصفاء. لهذا فان النظام المعتدل، والحياة بتعقّل، والتي من شأنها أن تأخذ في الحسبان احتياجات النفس والتركيبة الجسدية الخاصة، فيفيد الجسد والنفس معاً، ويكون الانسان أقلّ تعرّضاً للأخطار، وأوفر صحّة. وفي هذا المجال فان الناس ليس عندهم معيار واحد، رغم ان ناموساً واحداً يسود الجميع، وأعني أن يكون الجسد في خدمة الروح. تذكّر ما قيل آنفاً بأن اكتساب الفضائل، سواء الجسدية أم النفسية، ينبغي أن يكون تدريجياً، بالارتقاء صعداً خطوة بعد أخرى.

الفصل الخامس والأربعون

في ان دينونة الآخرين القاسية، تتأتّى من تقدير رفيع لذواتنا، ومن تحريض ابليس عليها. وكيف تكون النصرة على نزوعنا إلى دينونة الآخرين

ان حب الذات، والتقدير الرفيع لأنفسنا، من شأنهما أن يولّدا شرًّا يسبّب لنا أذى عظيماً، وأعني الحكم العنيف ضد الآخرين ودينونتهم. وهكذا نتجاهل وجودهم، ونحتقرهم. وإن أتيحت سانحة نذلّهم ونحتقرهم. ان هذه الرذيلة الخبيثة متولّدة عن الكبرياء، وتنمو وتتغذّى به. وبالتالي فهي تغذّي الكبرياء، لأننا في كل مرة نسمح بإدانة الآخرين، يتقدّم الكبرياء بالشعور المصاحب للدينونة والذي هو أهمّية الذات ومدحها.

وإذ ينظر المرء إلى نفسه عالياً، فمن الطبيعي أن تكون نظرته نحو الآخرين، من فوق، فتكون الدينونة والاحتقار. فمَن يرى نفسه بعيداً عن اخطاء الناس، التي يلصقها بهم، هو إنسان يقدّر نفسه بإفراط. ونحن عندما ننظر بهذا الوضع الخاطئ إلى نفوسنا، فان العدو يراقبنا ويفتح عيوننا، ويوجس لنا أن نلاحظ بدقّة كل أقوال الآخرين وأفعالهم. ومن هذه الملاحظات، يصوّر لنا ما نستنتجه عن أفكارهم ومشاعرهم. ومن خلال ذلك، تتكوّن فكرتنا عنهم، وهي عادة خاطئة وغير حسنة. والشيطان يبالغ في تصوير أخطاء الناس فيحجب حسناتهم وفضائلهم.

من هنا تكون الأحكام الصادرة بحقّهم، مجحفة، وغير منصفة. بهذا ينطبع الانسان على الظن السيّء، والريبة بالآخرين، وهذا بفعل العدو الذي يجعل هذه (العادة) دائمة فينا، رغم ان حقيقة الأمور ليست هكذا البتّة.

لذا يا أخي، ما دام العدو يراقبك على الدوام، كي يغرس بذاره فيك، ضاعف جهادك ويقظتك على نفسك، كي لا تقع في الفخاخ الممدودة لك. وعندما يكشف لك العدو أخطاء الآخرين، بادر على الفور إلى طردها لئلاّ تمتدّ بجذورها فيك. ارمها بعيداً عنك، حتى لا يكون لها أي أثر فيك. استبدلها بفكر له صفات حسنة أنت تعلم بوجودها في الآخرين من الناس عموماً. وإن كنت رغم كل هذا، ما تزال رازحاً تحت فكر الدينونة، عجّل إلى إتّباعه بأمر آخر مفاده، ان لا سلطان لك، وان أحداً لم يجعلك ديّاناً وقاضياً على أحد، ليس فقط أمام الناس الذين لا حول لهم، بل أمام الله القاضي العظيم، ديّان الجميع. ان الأفكار المضادة لفكر الدينونة، هي خير الوسائل نطرد بها الأفكار المباغتة، فنتحرّر نهائيًا من هذه الرذيلة. أمّا الطريقة الثانية والفعّالة، فهي أن لا تدع أفكار ضعفك الشخصي، وأعمالك الشرّيرة، تبارح عقلك وذاكرتك. وفي النتيجة، ستدرك انك لا شيء، وذلك لأنك ستكتشف عدداً كبيراً من الأهواء والأفعال الشرّيرة. أمّا إن كنت لا تقبل بهذا، بل تقول: «ما يحدث فليحدث»، فانك لن تجد علاجاً لهذه الأمراض التي تفتك بك. أمّا إن تصرّفت بإخلاص ويقظة، فلن يكون هناك وقت لديك كي تنشغل بأمور الناس فتنتقدهم بشدّة. وإن فعلت، فسوف تسمع القول: «يا طبيب طبّب نفسك (لوقا ٤ : ٢٣)». «أخرجْ أولاً الخشبة من عينك» (متى ٧ : ٥). وعلاوة على كل هذا، اعلم انه إن كان حكمك على قريبك قاسياً، وكانت دينونتك له من جهة بعض الأمور الخاطئة، فلا بدّ أن يكون شيء من ضعفه فيك أنت أيضاً، فقلبك المريض هو الذي يوجس لك أن تفترض أموراً خاطئة عن الآخرين وتدينهم عليها الآن. فالانسان الشرّير، من كنوز قلبه الشرّير

يخرج الشرور (متى ١٢ : ٣٥). أمّا العين النقيّة الخالية من الأهواء السمجة، فتنظر إلى أعمال الآخرين بدون شرّ: «عيناك أطهر من أن تنظرا الشرّ» (حبقوق ١ : ٣). لذا فعندما يأتيك الفكر ويحثّك على دينونة الآخرين على خطيئة ما، فبادر إلى السخط على نفسك التي ترتكب الخطأ نفسه وتسقط فيه. قل في قلبك: ان مَن كان مثلي، غير مستحق، كيف يستطيع أن يرفع رأسه ليرى عيوب الآخرين؟ كيف أفتري عليهم وأنا في نفس الخطيئة، لا بل تعدّياتي وخطاياي تفوق خطاياهم؟ فأنت إذ تفعل هكذا، سترفع في وجه نفسك السلاح الذي أوجستْ لك الأفكار الشرّيرة أن ترفعه ضد الآخرين. وهكذا، فبدل أن تجرح قريبك، تضمّد جراحاتك.

إن كانت خطايا قريبك مكشوفة للجميع، فحاول أن تعرف سببها، ليس كما يقترحه فكر الدينونة، بل كما يمليه عليك شعورك الأخوي نحوه. قل في نفسك: الله سمح له أن يقع في هذه الخطيئة، وأن يكون على هذه الحالة مدّة من الزمن، فيكون في نظر نفسه غير مستحق، ويقطف ثمار التواضع من مذمّة الآخرين له. وهكذا يفرح الله به. ان هذه النظرة نافعة وتخلو من ضرر. وخير لي أنا أيضاً أن أتّقي هذا الشرّ، شرّ دينونة الآخرين. لا تدنْ أحداً، حتى ولو كانت خطيئته واضحة كل الوضوح، ومخزيّة، وتنبع من قلب صلب. انما ارفع عينيك نحو أحكام الله العجيبة التي لا تدرك، فترى ان كثيرين كانوا بالأمس في الخطيئة، أمّا الآن فتابوا، وبلغوا درجات عالية من القداسة. كذلك فان كثيرين كانوا على درجة عالية من القداسة والكمال، لكنهم سقطوا. فحذار أن يصيبك ما أصابهم، بفعل دينونة الآخرين.

لذا تيقّظ بخوف ورِعدة، واجزع على نفسك أكثر من جزعك على الآخرين. كن على ثقة ان كلمة واحدة حسنة، تعظ بها قريبك، وكل شعور طيب، تبديه نحوه، هو من أعمال الروح القدس، ومن ثماره. وان كل دينونة واحتقار للآخرين، تأتي من طبيعتك الشرّيرة، ومن

مشورة الشيطان. لهذا فعندما تُجرَّب بأفكار قبيحة ضد أخيك، لا تغمض عينيك للنوم، حتى تزيل التجربة من قلبك، فتكون في سلام تام مع أخيك.

الفصل السادس والأربعون

في الصلاة

رغم ان عدم الاعتماد على النفس، والثقة بالله، والجهادات الدائمة، هي أمور أساسيّة جدًّا في حربنا اللامنظورة، كما جاء سابقاً، يبقى ان الصلاة، هي الأمر الأكثر أهمّية من أي شيء آخر. انها السلاح الرابع في حربنا هذه، كما ذكرت في نهاية الفصل الأول. بالصلاة تكتسب الأسلحة الثلاثة الأولى ملء قوتها، وبها نحصل على كل البركات والخيرات الأخرى. انها أداة الجذب، واليد التي بها نتقبّل البركات. وتنسكب الصلاة فينا، من نبع المحبة الإلهية الذي لا ينضب، ومن صلاح الله نحونا في الحرب اللامنظورة. بالصلاة تضع فأس القتال في يد الرب، فيحارب أعداءك ويهزمهم. ولكي تعبّر الصلاة عن ملء قوتها وفعلها فيك، لا بدّ من بقائها في الداخل، (في القلب)، على الدوام، كوظيفة طبيعية في روحك. وينبغي أن تحفظها وتستلهمها، وذلك من خلال الأمور التالية:

١ - عليك أن تجاهد بنشاط كي تخدم الله فقط في كل ما تفعل، وأن تكون خدمتك هذه مرضيّة له. ولكي تجدّد هذا الميل فيك، ينبغي أن تقتنع بجعل الصلاة في الذهن. على كل مخلوق عاقل أن يقدّم العبادة والتسبيح والخدمة للرب فقط، وذلك بداعي عظمة صفات الله، كصلاحه وحكمته وكمالاته الأخرى التي لا تعد ولا تحصى. وعندما تضيف إلى كل هذا، التذكّر الدائم بأن الله نفسه بادر إلى خدمتك وانتفعت به على نحو لا يوصف، وذلك بتجسّده، فافتداك وأعتقك من

اللعنة الكبرى، وافتدى الجراح التي احدثتها سموم الخطيئة، وشفاها، ليس بخمر وزيت، ليس بأي من الأدوية والعقاقير، بل بالدم الثمين الطاهر الذي انسكب من جنبه الإلهي، وبجسده القدّوس الذي به احتمل اللطمات والجلد والأشواك والمسامير. فإن أنت تذكّرت كل هذه، كيف ستنسى المنفعة التي نجنيها نحن أنفسنا من خدمة كهذه، تجعلنا أسياد نفوسنا، فنغلب الشرّير ونصبح أبناء الله؟

٢ ـ ينبغي أن يكون لك إيمان حارّ حيّ بأن الله يتمنى ـ بمراحمه العظيمة ولطفه الحنون ـ أن يهبك كل ما أنت بحاجة إليه، كي تكون خدمتك له أصيلة، فيجود عليك بالبركات التي تحتاجها. ان إيماناً وثقة كهذه، من شأنهما أن يصبحا بالنسبة إليك اناء، الله بمراحمه التي لا تحدّ، يملأه من كنوز بركاته وخيراته. فكلّما كبر الاناء حجماً واتّساعاً، كلّما كانت الخيرات التي تستمطرها صلاتك ـ نحو ما هو الأعمق فيك، ـ أغنى وأوفر. فكيف يستطيع المرء أن يفكر ان الله ـ القدير غير المتبدّل، الذي طالبنا أن نصلّي إليه، ووعدنا بالخيرات التي نسأله إيّاها، ـ يحجبها عنّا، فلا يرسل إلينا روحه، إن كنّا نطلبها منه بجهاد وصبر؟ ألم يقل: «فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيّدة، فكم بالحري الآب الذي من السماء يعطي الروح القدس للذين يسألونه» (لوقا ١١ : ١٣). ألم يعدنا: «فكل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين، تنالونه» (متى ٢١ : ٢٢).

٣ ـ يجب أن تدنو من الصلاة، وأنت لا ترغب بغير الإرادة الإلهية، لا بإرادتك. والأمر نفسه ينطبق على طلب واقتبال سؤلنا. بكلام آخر، ينبغي أن تتحرّك نحو الصلاة، لأن الله يرغب في ذلك. وينبغي أن تتمنّى أن تُستَجاب طلبتك، وأيضاً كما يريد الله. بكلمة واحدة، اجعل هذا في ذهنك وقلبك، وأعني، أن تتّحد إرادتك بإرادة الله، وتطيعها في كل شيء، وأن تأبى أن توجّه إرادة الله نحو إرادتك بشكل من الأشكال. ولماذا يكون الأمر هكذا؟ لأن إرادتك ممزوجة على الدوام بحب الذات، ودائماً هي مخطئة، ولا تعرف ماذا ينبغي أن

تطلب. أمّا إرادة الله فصالحة على الدوام، حكيمة وعادلة، محبّة ولا تخطئ البتّة. وطالما ان إرادة الله هي ناموس لا ينكسر من جهة ما هو موجود، وما سوف يوجد، فطاعة أحكامه، ينبغي أن تكون إرادة كل المخلوقات العاقلة وسيّدة رغباتهم، وما عليهم إلاّ أن يخضعوا لها في كل شيء.

وهكذا يجب عليك أن تتمنّى وتطلب وتسعى إلى ما هو مرضي لله. وإن حدث أن كنت في ريبة في ان هذا أو ذاك من الأمور مرضي له، فبادر إلى السعي إليه وطلبه وأنت تفكر بأنك تتمنّى هذا لتمتلكه، إن كانت ارادة الله هي هكذا. أمّا من جهة الأمور التي ترى انها مرضيّة لله، كالفضائل مثلاً، فينبغي أن تسعى إليها وتطلبها، فقط، كي ترضي الله أكثر، وتخدمه على نحو أفضل، لا لغرض آخر، حتى ولو كان روحيًّا.

٤ - وأكثر من هذا، ينبغي أن تأتي إلى الصلاة وأنت تحمل في جعبتك أعمالاً تليق بتضرّعاتك. وبعد انتهاء الصلاة، اعمل بجدّ أكثر، كي تستأهل أن تقبل الفضيلة والنعمة التي تريد. وعمل الصلاة ينبغي أن يكون مقروناً بغصب الذات، وبذل الجهد، بغية الحصول على مرامنا. وفي الحياة الروحية، فان ابتغاء الشيء، وطلبه، يتبعان الواحد منهما الآخر، بتناوب. لكن إن كان الانسان يصلّي إلى الله من أجل فضيلة ما، إلاّ انه في الوقت نفسه، يسلّم نفسه للإهمال والتواني، فلا يكتسب أيّة وسيلة مهما كانت، للفوز بالفضيلة، ولا يبذل أي جهد في سبيلها، فمثله انما يجرّب الله ولا يصلّي. وهكذا فيعقوب الإلهي يقول: «... لأن طلبة البارّ تقتدر في فعلها..» (يعقوب ٥ : ١٦). ان ما يجعل الصلاة فعّالة، بحسب القديس مكسيموس المعترف، هو، انه إلى جانب استعطاف قديس والصلاة له من أجل أمر ما، أن يصلّي المرء نفسه من أجلها بكل جهاد، ويقوم بكل ما هو ضروري لنيل سؤله.

٥ - وينبغي أن تدمج في صلاتك تلك الأعمال الأربعة التي كتب عنها القديس باسيليوس الكبير: «مجِّدْ الله، واشكره على مراحمه التي

أعلنها لك، بعد ذلك اعترف له بخطاياك وبانتهاك وصاياه. وأخيراً اسأله أن يمنحك ما أنت بحاجة إليه، لا سيّما من جهة الأمور المرتبطة بخلاصك. وبمقتضى هذا، يمكنك، على سبيل المثال، أن تصلّي هكذا: «أيّها الرب إلهي إنّي أرتّل وأسبّح مجدك الذي لا يحد، وعظمتك التي لا تُدرَك. إنّي أشكرك، لأنك بخيريتك فقط، منحتني الوجود والاشتراك بخيراتك المعطية الحياة التي بتجسّدك، فقد خلّصتني دون علمي، من الضيقات التي أحاطت بي وتهدّدتني، ومن أيدي أعدائي الذين لا يُرَون. فأنا أعترف لك انّني مرّات كثيرة أطفأت الضمير، وتعدّيتُ وصاياك القدّوسة، فبيّنتُ نفسي غير شكور أمام خيراتك الكثيرة التي لا تُحصَى. أيّها الرب إلهي الكلّي الرحمة، لا تجعل عدم شكري، أمام مراحمك، بل تغاضَ عن ذنوبي وعيوبي. أنظر بإشفاق وحنوّ إلى دموع انسحاقي وتوبتي، وأعنّي بكثرة مراحمك، وهبني ما أنا بحاجة إليه لخلاصي. أرشدْ حياتي إلى إرضائك أنا غير المستحق، فأمجّد اسمك القدّوس».

في نهاية هذه الصلاة، يمكنك أن تعدّد كل احتياجاتك الحاضرة، الروحيّة والنفسيّة والجسديّة أيضاً. وإن كنت في ذلك الحين، تروّض نفسك على فضيلة ما، فاذكرها، وصلّ طلباً للعون الإلهي الذي يدفعك إلى الأمام نحو الكمال فيها. وإن كنت منزعجاً من ضغوطات هوى من الأهواء، فصلّ طلباً للعون، كي تقاوم الهوى وتسحقه. وإن كنت تقاسي ظلماً أو أذيّة، أو خسارة أو ضيقاً، فلا تنسى أن تقدّم لله الشكر عنها، فقد أرسلها حسب مشيئة كليّة الخير. واعلم انها نزلت بك، لمنفعتك أنت بالذات.

٦ ـ ولكي تكون صلاتك فعّالة أمام الله، وتستمطر حبّه، فبادر إلى تزيينها مزوّداً إيّاها بأجنحة الإيمان المتين والثابت، ليس فقط برأفات الله التي لا تُحَدّ، ووعوده الثابتة، بأنه يستمع إلينا، عندما ندعوه قبل انتهاء صلاتنا، (اشعيا ٥٨ : ٩)، بل أكثر من كل هذا، بالإيمان بربّنا يسوع المسيح الذي تجسّد من أجلنا، واحتمل الصليب والموت، ومات وقام، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الآب، وهو يشفع فينا أبداً.

«فالله الذي لم يشفق على ابنه، بل بذله من أجلنا. . .» (رومية ٨ : ٣٢).

وإن أردت أن تُستَجاب، بادر إلى طلب شفاعة والدة الإله مريم العذراء التي تصلّي من أجلنا في الليل والنهار، وإلى طلب شفاعة جميع القدّيسين، ورؤساء الملائكة، والملائكة، والرسل، والأنبياء، والرعاة، والمعلّمين، والشهداء، وآبائنا القدّيسين، وأمّهاتنا القدّيسات، وشفاعة ملاكك الحارس، والقدّيس الذي تحمل اسمه، والقدّيس الذي تكرّست الكنيسة تلك التي اعتمدت فيها، على اسمه. صلِّ دائماً. وإذ تقرن صلاتك بهذه الشفاعات كلّها، فان ذلك علامة على اتّضاعك، وهذا يبهج الله جدًّا وأكثر من أي أمر آخر. فهو ينظر إلى الجميع بعين الرأفة، فكم بالحري إلى الوديع والمتواضع: «القلب المتخشّع والمتواضع لا يرذله الله» (مزمور ٥١ : ١٧).

٧ - ينبغي أن تكون صلاتك بجهاد لا يكلّ، حسب قول الرسول: «واظبوا على الصلاة، ساهرين فيها» (كو ٤ : ٢). فالصبر المتواضع، والإلحاح مع المثابرة في الصلاة، من شأنهما أن يغلبا مَن لا يُغلَب، فيميل إلى الرحمة. وبحسب مثل الرب الذي أطلقه عن إلحاح الأرملة التي استمالت قاضي الظلم كي يعطيها سؤلها، فالرب جعل المثل هذا، لغاية ما، وهي كي يعلمنا أن لا نيأس ونملّ في الصلاة، بل نصبر كما جاء في الانجيل (لوقا ١٨ : ١). فإن كانت لجاجة الأرملة قد دفعت قاضي الظلم إلى منحها ما تريد، فهل يسأم الله من سماع ابتهالاتنا، إن كنّا مواظبين على التضرّع أمام الرأفة والحنان؟ لذا فعندما تسأل الله شيئاً، وشعرت انه قد تباطأ في الاستجابة، ثابر على الصلاة بإيمان راسخ في القلب، فالله يعين ويحب. والصلاة مع الجهاد، لا ينساها الله، وهو دائم الاستعداد كي يسكب نعمه الوفيرة التي تفوق ما يتوقّعه المصلّي، إن لم يكن عنده ما يعيق، وليس في حالة تجعل عدم استجابة صلواته خيراً من تحقيقها. في مثل هذه الحالة، فبدل ما يطلبه، يرسل الله أموراً صالحة أخرى، أكثر نفعاً وفائدة بالنسبة إليه، سواء أدرك ذلك، أم لم

يدركه. في مثل هذه الحالة، فالاعتقاد بأن الصلاة دائماً مُستجابة، هو أمر مُبرَّر. وكثيراً ما نطلب أمراً دون أن ندرك ان ما نطلبه لا يصلح لنا، فالله لا يستجيب لطلبنا، وما يرسله لنا يبقى محجوباً، لأن رؤية ما يرسله الله، ليست بالأمر الذي يخلو من الخطر عند مَن سيُستَجاب. لهذا ثابر على الصبر في الصلاة، وكن مقتنعاً انها ليست بدون ثمر. وإن لم تتلقّ ما طلبتَ، فاعلم انك تتلقّى، أو ستتلقّى أمراً نافعاً لك، مكانه. وإن كنت لا تراه ولا تحسّ به، لا تحاول أن تتقصّى السبب، بل عد إلى عدم استحقاقك واجعل في نفسك فكراً متواضعاً مع أحاسيس حسنة. فإن رسخت هذه الأفكار فيك نتيجة لصلاتك، فانك حتى ولو لم تتلقّ شيئاً، حسيًّا كان أم غير منظور، فاقبل بهذه على انها من ثمار الصلاة، فهي نافعة لك ومرضية لله جدًّا.

اسمع ما يقوله الذهبي الفم: «الصلاة بركة عظيمة إن مورست بحالة داخلية سليمة. وإذا علّمنا ذواتنا أن نرفع الشكر لله، سواء أخذنا سؤلنا أم لم نأخذه، فهذا أيضاً سيعود علينا بالنفع والبركة. فعندما تُعطَى، فهذا خير لك، وعندما لا تُعطَى، فهذا أيضاً خير لك. عندما تأخذ سؤلك، فمن الأكيد انك نلته. وعندما لا تناله، فأنت تنال أمراً، ولم تأخذ ما كان مضرًّا لك. ان عدم منحك ما يؤذيك، هو عطيّة في ذاتها. لهذا، فسواء أخذت أم لم تأخذ، بادر إلى شكر الله على الدوام، وكن على يقين ان الله لا يعطينا إلاّ ما هو حسن لنا».

لذا صلّ إلى الله بصبر، شاكراً إيّاه على كل شيء، وكن على يقين ان ذلك هو الأنسب لك، وان الله هو المحسن إليك، سواء أعطاك، أو حجب عنك. فاثبت على هذا الايمان، وابق مطيعاً بتواضع أمر العناية الإلهية، سواء كانت الأمور مبهجة، أو غير سارّة.

الفصل السابع والأربعون

ما هي الصلاة الذهنية أو الداخلية، وما هي أنواعها؟

تكون الصلاة الذهنية أو الداخلية، عندما يجمع الانسان ذهنه، (النوس) في القلب، ومنه يرسل كل الصلوات إلى الله، ليس بصوت عال، انما بتعابير صامتة، مسبّحاً الله وشاكراً عظمته، ومعترفاً بخطاياه بندامة وانسحاق، وسائلاً بركات الله في احتياجاته الروحيّة والجسديّة. على المرء أن لا يصلّي بالكلمات فقط، بل لتكن صلاته بالذهن أيضاً. وليس بالذهن فقط، بل بالقلب أيضاً. وذلك، لكي يبصر الذهن ويفهم، ما يمكن قوله بالكلمات، فيشعر القلب بما يفكر به الذهن. وعندما تلتحم هذه العوامل، فهناك الصلاة الحقيقية. أمّا إن نقص في هذه الصلاة شيء، فإمّا انها تكون ناقصة ومبتورة، أو لا تكون صلاة على الاطلاق.

ولا بدّ انك سمعت هذه الكلمات: صلاة الكلام، صلاة الذهن، وصلاة القلب. وربما سمعت شروحات عن كل منها على حدة. ما الداعي إلى مثل هذا التقسيم بين مكوّنات الصلاة؟ السبب، هو اننا كثيراً ما يحدث بداعي تكاسلنا وخمولنا، أن يردّد اللسان كلمات الصلاة المقدّسة، بينما يكون الذهن منشغلاً بأمر آخر. أو أن يكون الذهن في تمثّل وفهم لكلمات الصلاة، بينما القلب بعيد عن كل استجابة من هذا القبيل. ففي الحالة الأولى تكون الصلاة مجرّد كلمات وتمتمة، وليست

صلاة على الإطلاق. أمّا في الثانية، فتكون الكلمات قد ارتبطت بالمعاني الذهنية، وهي ناقصة وغير كاملة. أما الصلاة الأصيلة فهي التي يتضافر فيها عمل اللسان والذهن والقلب معاً.

ثمّة صلاة أخرى تُدعَى المثول في الحضرة الإلهية، وذلك عندما ينجمع الانسان كله في القلب، فيشرع في التأمّل بالله داخليًّا، كأنه منتصب أمامه في داخله، فتنساب في المرء أحاسيس خاصّة، كمخافة الله، الدهش (الذهول)، أو الرضوخ لعظمة الله، أو إيمان بمحبته، أو رغبة في تسليم له، أو انسحاق مع تأهّب لكل بذل وتضحية. مثل هذه تنجم عن كون الانسان في أعماق الصلاة، وان صلاته هي بالقلب والذهن واللسان. فإن كان أحد يصلّي بالطريقة الصحيحة، ولفترة طويلة الأمد، فان مثل هذه الحالات، تتكرّر في داخله، وما تلبث أن تدوم فيه فيكون في حضرة الله دائماً. هذه كانت حالة داوود الذي قال عن نفسه: «جعلت الرب أمامي كل حين لأنه عن يميني فلا أتزعزع» (مزمور ١٦ : ٨).

لذا فإن أردت يا أخي أن تكون صلاتك محمّلة بالثمر الكثير، لا تكتفِ بالكلامية منها وحسب، بل بادر كي تكون صلاتك بالقلب والذهن أيضاً. اجعل ذهنك يفهم وينتبه لما يُقال. درّب قلبك على التحسّس لما يسمع. والأهم، أن تكون صلاتك من القلب. والتي هي هكذا، تكونُ كالبرق الذي يتحرّك بسرعة نحو السموات. وهكذا تقف صلاتك أمام عرش الله الرحوم، فيستمع إليها الله ويستجيب لها أكثر من سواها. هذه كانت صلاة موسى أيضاً عندما وقف أمام البحر الأحمر ونادى الله فسمع له (خروج ١٤ : ١٥)، ومدّه بالقوّة كي يعتق شعبه من الأخطار التي كانت تتهدّدهم.

الفصل الثامن والأربعون

كيف تتعلّم الصلاة على هذا النحو؟

افترض انك بعد أن طالعت ما ورد سابقاً، ستسأل: كيف تكون ممارسة هذه الصلاة؟ فإليك الجواب: روّض نفسك على الصلاة كما بيّنت تماماً، ليس فقط بالكلام، بل بالقلب والذهن أيضاً. بعد ذلك ستتعلم كيف تمارسها. ترى كيف سبق أن تعلمت القراءة؟ لقد شرعت تتعب من أجلها، وبعد ذلك أخذت تقرأ. كيف تعلمت الكتابة؟ لقد شرعت تكتب، وبعد ذلك تعلمت الكتابة. بالأسلوب نفسه، ستعرف كيف تكون صلاتك بالذهن والقلب واللسان، إن أنت شرعت في ذلك وعملت فيه بدقّة.

أنت تعرف طبعاً كلمات الصلاة، فقد تعلّمتها منذ صباك، ويمكنك أن تجدها مدوّنة في كتاب الصلوات، والكتب الطقسيّة الأخرى. انها الصلاة النابعة من قلوب القدّيسين، والقدّيسات، الذين حرّكهم الروح القدس، فعبّروا أمام الله عن شوق قلوبهم، وذلك من خلال هذه الصلوات التي تحوي روح الصلاة وكنهها. لذا فان طالعتها كما يليق، ستمتلئ من الروح نفسه، كما يتّحد القارئ بروح الكاتب الذي يطالع أعماله. لكل إنسان هذه الخبرة، وأنا على يقين انك وجدت الخبرة ذاتها.

وكلمات الصلاة مجموعة ومبوّبة في كتب الصلوات. لذا فأنت بغنى عن جمعها وتبويبها. فاقتنِ لنفسك كتاب صلوات، وافرز وقتاً محدّداً لها لمطالعة الصلوات المدوّنة بانتباه ويقظة على كل كلمة من كلماتها. فكّر في

الأمور التي تعبّر عنها، وحاول أن تجدّد في قلبك المشاعر التي تثيرها الصلاة في مَن يمارسها ويطالعها.

وقد تقول: حقًّا، كل الناس يفعلون هذا. إن كان الأمر هكذا، فلماذا لا يصل الجميع إلى الصلاة الحقيقيّة؟ السبب يرقى إلى انهم رغم إتمامهم قراءة الصلوات المدوّنة، والوقوف أمام الأيقونة، وترداد الصلوات، لا يجمعون ذهنهم وقلبهم في كلمات الصلاة. فأذهانهم تزيغ وتشرد، وقلوبهم تجري وراء أهوائهم الخاصة، لا وراء الصلاة. أمّا أنت فمتى صلّيت، فاجعل ذهنك على كلمات الصلاة، وبادر إلى قلبك تروّضه على تمثّل وهضم ما يُقال، بعد ذلك ستأتي إلى مذاقة ثمار الصلاة.

وما دامت أمامك كلمات الصلاة، وتعرف معانيها، وتفهمها وتتحسّس حلاوتها، فالأمور الأخرى باتت مرهونة بك. الصلاة، والنمو فيها، أمران منوطان بك، وفي متناولك. إن كان شوقك إلى الصلاة، بلهفة وحرارة، فلا بدّ أن تنجح. وها أنا الآن أضيف إليك بعض النصائح، تسهّل لك السبيل إلى النجاح في الصلاة:

حاول مجاهداً كي تتأمّل وتتحسّس الصلوات التي تتلوها. وليكن هذا لا لساعة وحسب، بل في كل حين أيضاً. وإن فعلت ذلك، سيسهل عليك تمثّل وهضم كل ما في الصلاة، عندما تصلّي. ما أن تشرع ببعض الصلوات، ستتزاحم في ذهنك كل الأفكار والأحاسيس التي فيها. ستكون الكلمات كما لو انها تنبع منك، وتفيض من قلبك، بدل أن تدخل إليه.

بعد أن تبلغ إلى مذاقة الصلوات، بالأفكار والأحاسيس، بادر إلى حفظها غيباً، فأنت بذلك ستحمل الصلوات فيك، فتستغني عن الكتاب. الصلوات التي كانت في الكتاب، كانت خارجة عنك، وبعيدة منك. لكن عندما تبادر إلى حفظها غيباً، تتحوّل إليك وتقوم فيك في كل الظروف والأحوال. أضف إلى ذلك انك عندما تتلو صلاتك من الذاكرة، فأنت تعمّق أفكارها وأحاسيسها فيك، على نحو

يفوق مجرّد تلاوتها أو النظر فيها، وتحسّس معانيها . وحينما تتقن هذه الصلوات، ليس غيباً فقط، بل بالاحتفاظ بالأفكار والأحاسيس التي تحوّلها إلى داخلك، سيبنى فيك صرح الصلاة. ان هذه هي أفضل السبل لتكوين الصلاة اللائقة.

عندما يحين وقت الصلاة، لا تبادر إليها توًّا، بمجرّد توقّفك عن نشاطاتك اليوميّة. انما اعددْ نفسك من أجلها. اصمت بعض الشيء، ريثما تتحرّك فيك مشاعر الصلاة. وهذا نتعلّمه من كتاب الصلوات. تذكّر ما تريد. مَن أنت. تذكّر مَن سيصلّي. تذكّر مَن هو الذي ترفع الصلاة إليه. لا تنسى ما ينبغي قوله في الصلاة. انتبه إلى كيف تصلّي. ان هذا الاستعداد واجب، ولا بدّ منه، في الصباح، بعد أن تكون النفس قد أفاقت من نوم كثيف، وشرعت الاهتمامات الجديدة تثب إلى الذهن بعد اليقظة. أمّا في المساء، فتكون النفس مثقلة بالصور العديدة التي انطبعت فيها عبر النهار، لا سيّما تلك المؤثرة جدًّا جدًّا، المفرحة والمحزنة على السواء. حاول أن تنظّف ذهنك منها جميعها، كي لا تنشغل بها عندما تتكرّس للصلاة. وإن كان ثمّة ما يثيرك، بعد كل هذا، ولم تفلح في طرده والتخلّص منه، فبادر إلى تحويلها إلى موضوع للصلاة، للشكر، أو طلباً للعون الإلهي، أو للانعتاق من الآثام، أو لتسليم الذات، بكل ما فيك، رافعاً كل ما فيك، نحو الإرادة الإلهية.

وقبل الشروع في الصلاة، تذكّر انك في حضرة الله. املأ نفسك من أحاسيس التخشّع والمهابة، مجدّداً في أحشائك، اليقين، بأن الله يراك ويسمعك، وانه لا يشيح وجهه عمّن يطلبونه، بل ينظر إليهم بحنان كبير. اقرن صلاتك بالرجاء في ان الله متأهّب كي يعطي، وانه على الدوام يجود عليك بسؤلك، إن كان في ذلك من فائدة لك.

وعندما تبلغ نفسك هذه الحالة، بادر إلى تلاوة الصلاة بيقظة وعمق، وابذل قصارى جهدك لتجعلها تفيض من القلب، كما لو أنها منك. وبالرغم من معرفتك لها، عن ظهر قلب، لا تسمح لنفسك بالشرود، ولا تدع أفكارك تبارحك. وما أن تشعر بذلك، بادر إلى جمع

أفكارك في قلبك، وبادر إلى الصلاة من حيث بدأ الشرود. تذكّر ان اليقظة غريبة عن الشرود عندما يكون القلب طافحاً بأحاسيس الصلاة. ليكن اهتمامك منصبًّا على هذه الأحاسيس. لا تتسرّعْ في تلاوة صلاتك، بل واظب عليها حتى المنتهى، بتخشّع وجلد يليقان بهذا العمل المقدّس. وإن كنت تشتاق إلى الصلاة على هذا النحو، فانك ستقتني روح الصلاة بيسر وسهولة. ومن الواجب الاحتفاظ بها حيّة وقويّة، قدر المستطاع. وإن أردت هذا لنفسك، فبادر بعد انتهاء الصلاة، إلى عدم الارتماء في الهموم اليوميّة، ظانًّا انك قد قمت بكل ما يترتّب عليك أمام الله. لا تطلق لأفكارك ومشاعرك العنان. جاهد أن تكون طيلة يومك، كما لو أنك تصلّي. وكي تفلح في مسعاك، تذكّر انك في حضرة الله، وان يده تحميك من الوقوع في الهلاك. وإذ تجعل هذه الأمور في ذهنك، قم إلى أعمالك، تمّمها كلها، الصغيرة منها والكبيرة، على نحو يليق بإرادة الله. واطلب بركته كي تتمكّن من تحويل كل شيء لمجد اسمه.

وإن فعلت هكذا، تكون في صلاة حقيقية، إلى أن تأتي ساعة الصلاة في المساء، فتتلو الصلاة على النحو نفسه، تخلد بعدها إلى نوم هادئ طيلة الليل. وهكذا تكون قد قضيت الليل والنهار في صلاة جيّدة. وعندما تنقضي الأيام وأنت تصلّي هكذا، فانك ستبلغ كمال الصلاة في شهور قليلة وربما في أسابيع. وستكون الصلاة مصباحاً دائم النور، يضرم قلبك على الدوام.

سأضيف أمراً آخر هو ضرورة استمرار فعل الصلاة منذ بدايتها، بدون انقطاع، حتى لحظة بدء النجاح وبلوغه. فإن صلّيت اليوم جيداً، واحتفظت في داخلك بحالة الصلاة هذه، لكنك توانيت في الغد، وقضيت يومك في التراخي، فانك لا تبلغ أي فلاح في عمل الصلاة، لأنك ستكون كمَن يبني اليوم، ليهدم غداً. في النهاية تخبو صلاتك وتجفّ، وتصبح النفس عاجزة عن القيام بها. وهكذا فإذ شرعت مرّة على نحو جيّد، بادر إلى الاستمرار عليه بجلد، وبدون وجل أو ضعف أو تكاسل.

فصل (٤٩)

في الصلاة المرتجلة

كل ما قيل آنفاً، هو عن الصلاة المدوّنة، اي تلاوة كلمات ليست من الشخص نفسه الذي يصلي، رغم ان هذه التلاوة تقوم على جمع الذهن، وعلى عاطفة جياشة قوية. فهل ينحصر المصلّي بمثل هذه الصلاة دائماً؟ الصلاة نفسها هي التي ستجيبه على سؤاله. وانت، فبادر الى البدء بالصلوات المحفوظة غيباً. تمّمها على اكمل وجه، ومنها ستنغرس الصلاة فيك. وبقدر ثباتها، وتجذرها فيك، تحثّك على صلوات اخرى ارتجالية، منك، كما يصوّرها القلب حسب حاجته. فعبر الصلوات المرتّبة، يرسل الله صلوات خاصة. الصلاة الارتجالية لها وقعها ومكانتها، وهي جزء من عمل الصلاة كله.

لقد ذكرت في الفصل السابق، انه لو حدث اثناء تلاوة الصلوات المدوّنة، ان مسّت نفسك بعض كلماتها، وملأتها، فلا تعبر عن ذلك، بل بادر الى التوقف، وصلّ بكلماتك انت معبّراً عما امتلأ قلبك به. واذا كنت تطالع كلمة الله، وصادف لقاء احد المقاطع، مع حاجة فيك، او اذا راقك قول احد الآباء القديسين اثناء قراءة اعماله، او عندما تعكس بعض الخلائق مشاعر الهية في اعماقك، كأن تكون حول عظمة الله وكمالاته، وخليقته البديعة، وقدرته على كل شيء، عنايته، واعماله المذهلة، وافتقاده لنا بالتجسد من اجل خلاصنا، او عندما تلفتك بعض احداث الحياة اليومية، ويكون لها وقع فيك، وتأخذ مجامع قلبك، وتدفعك نحو الصلاة الى الله في الاعالي، فبادر الى الاستجابة لتأثيراتها،

واوقف عملك، مهما كان، ولو الى حين، لتصلي الى الله.

فهذه الدوافع كلها تعني، ان الصلاة تأصّلت فيك، وتجذّرت. ومثل هذه الانطباعات، لا تأتي في العادة من مجرّد التمرّس على الصلاة، بل من الثبات فيها لوقت طويل. وتكون الدوافع هذه بمثابة علامة على نموّك المطّرد في الصلاة. وهذه، بقدر انتشارها وفعلها في حياتك، يكون قلبك مفعماً بها. ان كل صنوف الصلوات تؤول الى كمالها عبر الصلاة الارتجالية، رغم ان هذه الاخيرة لا تلغي، في اي حال، انواع الصلوات الاخرى، بل تدخل فيها لأنها من الطينة نفسها، ومن نفس درجة فضيلتها. لا يمكن الاستغناء عن الصلوات المرتجلة، ولا تستبدل، الاّ بالوقفة في حضرة الله بصمت متأمل لا كلام فيه.

واعلم ان دافع الصلاة في القلب، كثيراً ما يتولّد من ذاته. واحياناً تتولّد الصلاة في القلب بمصاحبة انطباع لا يكون للمصلي دور فيه. وهكذا، فعليك ان ترتّب صلاة تليق بالدافع الذي فيك. كذلك عليك في الحالة الثانية ان تصيغ السمع، فلا تتدخّل في الصلاة المتدفقة من القلب. بالاضافة الى ذلك، اذكّرك بأنك لا تصنع صلاة دون ان يكون عندك الدافع او الحاجة الداخلية الى ذلك، فأنت تستطيع ان تصنع حديثاً بديعاً جميلاً مع الله، دون ان يكون هذا صلاة، بل مجرد الفاظ منمّقة وتنسيق للافكار، فتكون كلماتك خالية من روح الصلاة. حذار من ذلك، لأنك ان فعلت هكذا، لا تعود قادراً على تجنّب المجد الفارغ، وتقدير الذات بتفريط، فمن شأن كل هذه ان تخنق الصلاة الحقيقية فيك، وتجعلها قالباً بدون قلب.

اما في ما يختص بالصلوات التي تتشكّل في القلب من تلقاء ذاتها، فيكون الدافع نحوها امر لا يؤثر فيك، وتكون بمسيس الحاجة اليه، اعني الصلوات التي من القلب، والتي هي من صنعك، والتي اما انها من عناصر الصلاة المتجمّعة في القلب، نتيجة لكثرة التمرس عليها، وتمثّلها، وإما ان تكون ناجمة عن عمل النعمة الالهية. في مثل هذه

الحالات تكون بمثابة بذار للصلاة الروحية، وهي التي ذكرتها في الفصل (٤٧). فعندما يمنحك الرب هذه القامة، اعلم انك قريب من الكمال. فاشكر الله، واسلك في حياتك بتخشع ومخافة ورعدة، لأنه بمقدار ما يكون الكنز قيّماً، تكون بنفس المقدار، نظرات العدو الحسود اليك.

فصل (٥٠)

في الصلوات القصيرة والتنهد الى الله

قيل مرات عدة ان الصلاة الداخلية هي الصلاة الحقيقية التي لا تقوم فقط على كلمات، بل تكون بالذهن والقلب ايضاً. هذا النوع من الصلاة، يستجمع كل الانتباه، ويجعله داخل القلب. لهذا فالبقاء في الداخل علامة على وجود الصلاة الحقيقية، والشرط الاساسي لتحقيقها. ومن ثمار البقاء في الداخل، التفكير بأن الله حاضر ويصغي الينا. لهذا نرفض كل الافكار الاخرى، الامر الذي يعرف باسم يقظة القلب وحراسته. لذا فان كل جهد الانسان المشتاق الى التقدم في الصلاة، هو ان يرتفع الى هذا الهدف، أعني ان لا يبارح الانتباهُ القلبَ مع حراسته ضد كل الافكار، خلا الفكر المرتبط بالله. فيقوم الانسان بما يريد القيام به، دون ان ينسى الله، او يشيح وجهه عنه. ان هذا اسمى امر في عمل الصلاة. اما الطريق لهذا فهو تلاوة الصلوات كما هو مبين اعلاه، فهي التي تجعل الذهن ينجمع في القلب، ليتجه بكل انتباه نحو الله. والذي ادرك قيمة جمع الذهن في القلب، يشتاق ان يكون دائماً في الروح. فالصلاة الدائمة تكون قد حلّت فيه بلهفة، والرغبة هذه تستتبع إرواءها. ان الذين احسوا بهذه الرغبة، تشتعل فيهم، يجدّون الى وسيلة يبلغون بها الصلاة الدائمة. والارشادات التي قدّمها الآباء القديسون في ما يختص بيقظة القلب وحراسته، من شأنها ان تقود الى هذه اللهفة المذكورة، وتعمل بهذا الاتجاه، وليس لها مصدر غير النمو في هذا العمل.

فان احسست بهذه الحاجة، قد يتبادر الى ذهنك السؤال التالي: كيف السبيل الى البقاء داخلياً امام وجه الله؟ كيف السبيل الى بلوغ حراسة متيقظة واعية دائمة للقلب؟ في الحقيقة ان الصلاة المتلوّة هي بداية الطريق، الا انها لا تبلغ الغاية ذاتها، وهي ليست الكمال في عمل الصلاة وقوتها المبتغاة. الصلوات المتلوّة هي مركبة، ومن شأنها ان تحوي اموراً عديدة تقدمها الى الذهن الصاحي الواعي. ورغم قدسية هذه الموضوعات، فهي قد تذكر المرء بموضوعات مماثلة من الحياة اليومية، وقد تؤول الى اخرى عالمية (دنيوية)، غير تخشعية، حسب نواميس توارد الافكار والتصوّرات. ولا يمكن ان تخلو اغلب الصلوات المتلوّة من الجهاد والمتابعة ضد فكر يضل فيتجوّل هنا وثمة. ولما كان هذا قادراً ان يدخل الاضطراب الى الصلاة، فتفقد نقاوتها وبهاءها، فليس من انسان يصلي إلاّ ويرزح تحت هذا الضعف ويرغب في الانعتاق منه. وقد انشغل الاباء بهذا الضعف منذ أمد بعيد، وقاموا بجهود عظيمة في حياتهم من اجل هذا الغرض. ما هي السبيل التي اهتدوا اليها؟ انها ترداد صلوات قصيرة تصون الفكر في الداخل ليمثل امام وجه الله. وهكذا لا تدع فرصة للشرود او التجوال البعيد. ويذكر القديس كاسيان ان هذا التدبير كان ذائع الصيت في مصر في زمانه (مناظرات ١٠ : ١٠). وفي كتابات اباء آخرين، نجد ان الصلوات القصيرة كانت معروفة في سيناء وفلسطين وسوريا وفي كل مكان بلغت اليه المسيحية. فكانت معاني هذه الصلوات القصيرة تدور على النداء: «يا رب ارحمني»، واخرى غيرها قائمة في كتب الطقس، كالافخولوجي والمزامير.

لذا فأنا انصحك ان تختار لنفسك واحدة قصيرة، أو اخرى لتردّدها على الدوام. والترداد كفيل بتعويد اللسان عليها، فتصون فكرك وتجمعه في نقطة واحدة، هي، ذكر الله. وللمرء حرية الاختيار في الصلوات القصيرة التي يستعملها. ففي كتاب المزامير ثمة استغاثات وابتهالات الى الله، فاختر منها ما يلاءم حالتك، واحفظها غيباً، مردّداً اياها على الدوام، واجعلها في صلاتك الخاصة، وعلى لسانك، كل

حين، مهما كنت تفعل، من وقت الى آخر. كما ويمكنك ان تشكّل صلواتك لتعبّر عن احتياجاتك،على غرار صلوات الذهبي الفم القصيرة التي هي (٢٤) في العدد، والتي دونت في كتاب الصلوات.

لا يكن لك العديد من الصلوات القصيرة كي لا يقفز انتباهك بين هذه وتلك، فتصل الى غير النتيجة المرجوّة. بل اعمد الى عدد قليل حيناً، فتتلو هذه تارة، وتلك اخرى، من اجل التجديد الروحي. لكن ليكن انتقالك بينها ببطء، دونما اسراع. تناول الصلاة القريبة من حالتك الروحية، وتضرّع من خلالها الى الله، كي يملأ بها نفسك. بعد ذلك يمكنك ان تستبدل المزامير كلها، او بعضاً منها بهذه الصلوات القصيرة. اجعلها نبراساً لك تردّدها مرات عدة: عشرة، عشرين، خمسين، او مئة مرة، بسجدات ومطانيات. لكن دائماً انتبه لامر واحد هو ان تجمع انتباهك كله موجّهاً اياه نحو الله. واني سأدعو هذا التدريب تنهّد الصلوات القصيرة الى الله، والتي ينبغي ان تدوم في الليل والنهار، عندما لا نكون نياما.

فصل (٥١)

صلاة يسوع

فئة من رجال الصلاة، يفضّلون صلاة قصيرة واحدة يعكفون على تردادها باستمرار. القديس كاسيان يقول بأن الصلاة التي كانت تتردد على لسان كل مصري صادفه، كانت الآية الاولى من المزمور (٧٠). وقد جاء في سيرة القديس جوانكي ان الصلاة التي ألِف تردادها، كانت: الآب رجائي والابن ملجأي والروح القدس وقائي». فكان يضيفها الى كل آية من الثلاثين مزموراً التي حفظها عن ظهر قلب. آخرون ألفوا استخدام الكلمات التالية، كصلاة: «أخطأت كانسان، اما انت فارحمني كاله». إلاّ ان الغالبية منذ القديم، فقد كانت تصلي على النحو التالي: «يا ربي يسوع المسيح، ابن الله ارحمني». ويمكننا ان نجد اشارات الى هذه الصلاة، عند القديسين: افرام السرياني، والقديس يوحنا الذهبي الفم، والقديس اسحاق السرياني، والقديس ايسيخيوس الكاهن، والقديس برصنوفيوس، والقديس يوحنا السلمي.

وفيما بعد شاعت هذه الصلاة وطبّقتْ شهرتها الافاق، وصارت على كل فم وشفة، وادرجت بين صلوات الكنيسة. لذا فهي الآن مستعملة اكثر من اي صلاة اخرى. لذا انصحك ان تمارسها.

سميتْ هذه الصلاة صلاة الرب يسوع، نظراً الى انها موجّهة لربنا يسوع المسيح. انها صلاة صوتية كحال أية صلاة اخرى. إلاّ انها ايضاً ينبغي ان تكون كأية صلاة، ليس فقط بالكلمات، بل بالذهن والقلب ايضاً. كما ويجب ان يتذوقها المرء بوعيه ومشاعره، الى ان تختفي الكلمات

(١) راجع كتاب «اليقظة والصلاة» باب صلاة الرب يسوع

مع طول الممارسة، فتصبح الصلاة حركة روحية داخلية. لكل صلاة قصيرة، القدرة ان ترقى بممارسها الى هذه القامة، الا ان صلاة الرب يسوع، تتميّز عن سواها بأنها تصل النفس بالرب يسوع. الرب يسوع هو الباب الوحيد الذي به نعبر الى الآب، غاية الصلاة. ويسوع قال: «لا احد يستطيع ان يأتي الى الآب إلاّ بي» (يوحنا ١٤ : ٦). في هذه الصلاة ننال بركة الافتقاد الالهي عبر التجسد الذي هو طريق خلاصنا. فالذين اشتاقوا الى الخلاص، لم يهملوا التدرّب على هذه الصلاة كي ينالوا فعلها وقوتها.

واذ تسمع هذا، فانك لن تندهش في ان الذين جاهدوا من اجل الخلاص، بذلوا كل غال ورخيص كي يكتسبوا هذه الصلاة وينالوا قوتها. وعليك انت ان تحذو حذوهم.

واكتساب هذه الصلاة يقوم على امرين: واحد خارجي، والآخر داخلي: اما الخارجي فهو ان تبلغ الى حالة تنسكب فيها الصلاة على لسانك، من تلقاء ذاتها، وعلى الدوام. والداخلي، فهو تركيز انتباه الذهن في القلب، والبقاء هناك في حضرة الله. هذا وللصلاة هذه درجات عدة حسب حرارة مشاعر القلب، وحسب درجة رفض الانسان لسائر الافكار الاخرى. إلاّ ان على الانسان قبل كل شيء ان ينسكب امام قدمي ربنا ومخلصنا في تضرع وانسحاق. والخطوة الاولى لاكتساب ذلك، هي في ترداد صلاة يسوع: «يا ربي يسوع المسيح ارحمني انا الخاطىء»، وذلك مرات عدة قدر المستطاع، مصحوبة بيقظة القلب. بالمثابرة ينجمع الذهن في فكر واحد، ويمثل امام الرب. بعد ذلك تسري في القلب حرارة داخلية الهية تطرد كل الافكار الاخرى، وتحرق كل الافكار، ليس الشهوانية فقط، بل البسيطة ايضاً. عندها تشتعل النار الالهية في القلب، ويغمر الانسانَ سلامٌ كامل وهدوء عجيب، فيشعر وكأنه في سجود امام الرب. بعد هذه المرحلة، فان كل ما نبلغه بالصلاة هو من هبات النعمة الالهية وحسب. والآباء الالهيون ذكروا ذلك، لئلا

يظن المرء انه بلغ قمة الكمال في الصلاة، وان ليس له ما يرجوه ويتمناه بعد بلوغ الكمال في الصلاة والعمل الروحي.

وهكذا فواجبك الاول يقضي ان تمارس صلاة الرب يسوع بتكرار كثير، قدر الامكان، الى حين تكتسب عادة الترداد على الدوام. وليكن عملك على هذا النحو:

١ - خصّص مكاناً لممارسة هذه الصلاة. ردّدها مرات عديدة في مطلع قانون صلواتك. عُدْ الى تردادها لدى الانتهاء من برنامج صلواتك. وان امكن، ردّدها بعد كل مزمور يندرج في قانونك، اسوة بالقديس جوانكي الكبير الذي كان يتلو صلاته القصيرة: «الآب رجائي والابن رجائي والروح القدس وقائي».

٢ - اما من جهة عدد المرات التي تتلوها فيها، فيمكنك ان تتلوها في كل المناسبات، او ان تسأل اباك الروحي في هذا الخصوص. لكن لا تتلوها بأعداد كبيرة في البداية، بل دع الزيادة تدريجية حسب نمو فرحك بها. وان حدث ان راودتك رغبة في مضاعفة العدد، فلا تنكرها على نفسك، انما يجب الاّ تجعلها قانوناً يلزمك. ولا ترفضها مهما كان عدد المرات التي يطلبها قلبك.

٣ - لا تبادر الى الانتقال سريعاً، من صلاة الى اخرى، بل لتكن صلاتك ذات قياس وايقاع مدروس، كما لو انك تطلب امراً من انسان ذي شأن. ليكن انتباهك ليس فقط على الالفاظ، بل على بقاء ذهنك في القلب امام الله، كما لو كان حاضراً، وكن امامه بكل احساس لعظمته ونعمته وحقه.

٤ - وان كان لديك متّسع من الوقت، بين صلاة واخرى، فأعط لنفسك ان تقف، كما لو كنت تقف للصلاة، وارفع الى الله هذه الصلاة، مكرراً اياها مرات ومرات. وان كنت منهمكاً بعمل ما، فاجعل هذه الصلاة داخلية في كل مجالات اعمالك، وحتى في حديثك.

٥ - واثناء اداء هذه الصلاة في قلب برنامج صلاتك، قف وقفة صلاة،

بين محطة واخرى من برنامجك، مبادراً الى السجود حتى الارض، بعد كل تلاوة. ولتكن السجدات عشرة من الوسط، بعدها سجدة كاملة الى الارض، وتابع على هذا المنوال، حتى النهاية. ما من شك انك سمعت او طالعت ان الآباء القديسين في كلامهم عن الصلاة يولون السجدات اهمية كبيرة، وقد قال احدهم: لا تكون الصلاة مقبولة امام الله، الاّ اذا جاهد الانسان بعدد من السجدات (المطانيات). اعمل حسب هذه النصيحة قدر الامكان، فتجني في وقت قصير ثمرة عملك هذا (اكتساب صلاة الرب يسوع).

٦ - اما ان اردت المزيد من التعليمات والوصايا والتنبيهات عن صلاة الرب يسوع، فطالع القديس سمعان اللاهوتي الجديد في الفيلوكاليا، والقديس غريغوريوس السينائي، ونيكيفوروس الناسك، مع كاليستوس واغناطيوس. ويمكنك ايضاً ان تطبّق تعاليم الآباء الآخرين عن الصلاة الداخلية (صلاة الرب يسوع). وانتبه الى انك تستطيع ان تجد تعليمات في كتابات الآباء السابق ذكرهم، حول كيفية الجلوس، وحول وضع الرأس، وكيفية التنفس. وقد قال كاليستوس واغناطيوس: هذه الطرق ليست ضرورة حتمية، انما هي عوامل خارجية مساعدة، وهي لا تناسب كل انسان. اما بالنسبة اليك، فيكفي ان تجمع انتباهك في القلب امام الرب، وترفع اليه الصلاة بتواضع ومهابة، مع سجدات، ان كنت واقفاً للصلاة حسب نظامك، او ان تقوم بالسجود داخلياً وذهنياً، ان كنت تقوم بإحدى نشاطاتك اليومية.

٧ - ولا تنسى ان تجعل انتباهك في القلب، او داخل الصدر، او كما يقول بعض الآباء الى اليسار قليلاً من القلب، وهناك تردّد صلاة الرب يسوع. وعندما يتضايق القلب ويتوتر، اعمل بمقتضى نصيحة القديس نيكيفوروس الناسك، وغادر ذلك المكان وانت تردد هذه الصلاة. وبالتحديد، توجّه الى تفاحة آدم التي تقع في القسم العلوي من الصدر، لتعود بعد ذلك الى منطقة القلب. لا تهمل هذه الملاحظة مهما بدت بسيطة وغير روحية بالنسبة اليك.

٨ - واذ تطالع اعمال الآباء القديسين، فانك ستجد تنبيهات عدة هي ثمرة خبرة في الممارسات الخاطئة. وان اردت تفادي هذه الاخطاء، عليك بمن تستشيره، الاب الروحي، او زميل لك من نفس العقل والقامة، تقدر ان تكلّمه وتتحقق منه عن كل ما يحدث لك اثناء تلاوة هذه الصلاة. أما من جهة نفسك، فاسلك ببساطة كبيرة وتواضع عظيم دون ان تنسب النجاح الى ذاتك. واعلم ان النجاح الحقيقي، يأتي الى الداخل على نحو غير ملحوظ، وبدون ظهور، كما هو الحال في نمو الجسد. وان حدث ووسوس لك صوت في داخلك يقول: ها قد بلغت مبتغاك، فاعلم انه صوت العدو الذي يقدم لك امراً خيالياً وغير حقيقي. هنا يكمن اساس الانخداع الذاتي. اما انت فبادر الى اخماد هذا الصوت، كي لا يستمر فيك كالبوق، ويغذي المجد الفارغ.

٩ - لا تحدد زمناً للقيام بهذه الصلاة، انما بادر الى القرار الوحيد: اعمل، اعمل على الدوام. ايام وشهور وسنين قد تمضي قبل ان تتلمّس ظهور علامات النجاح. لقد قال احد الآباء في جبل اثوس عن نفسه: لقد مر عليّ سنتان قبل أن بدأت حرارة القلب فيّ. وعند أب آخر، فالحرارة هذه، ظهرت بعد ثمان شهور. وهي تأتي عند كل انسان حسب استعداداته وجهاده في العمل.

فصل (٥٢)

امور تساعد على النجاح في اكتساب عادة الصلاة

ان كنت ترغب في النجاح في عمل الصلاة، عليك التوفيق بينها وبين الامور الاخرى، موجّهاً كل شيء الى الصلاة، والاّ فأنت تهدم بيد، ما تبنيه بالاخرى.

١ - تشدّد في التعامل مع جسمك، في طعامه ونومه وراحته. لا تمنحه اي شيء بسهولة، لمجرد انه يطلبه. والرسول يقول هذا ايضاً: «لا تصنعوا تدبيراً للجسد من اجل الشهوات» (رومية ١٣ : ١٤). لا تساوم مع الجسد.

٢ - قلّل من اتصالاتك الخارجية، عدا الضرورية منها. وهذا يكون لدى قيامك بالصلاة. لكن فيما بعد، عندما تبدأ الصلاة عملها فيك، فانها ستعلّمك من ذاتها ماذا يمكن ان تضيف، دون ان تفسد صلاتك. راقب، لا سيما، حواسك، عيناك واذناك قبل اي شيء آخر. قيّد لسانك. وبدون ذلك، لن تتقدم قيد انملة في عمل الصلاة. وكما انه لا يمكن لشمعة ان تضيء امام الريح والمطر، هكذا فنار الصلاة يستحيل ان تشتعل في غمرة الانطباعات والصور الآتية من خارج.

٣ - استعمل كل الوقت المتبقي من الصلاة، في المطالعة والتأمّل. واختر لمطالعتك كتباً تتناول شأن الصلاة، وشأن الحياة الروحية الداخلية عموماً. تأمّل في الله وفي اموره الالهية. وفوق كل شيء، ليكن تأملك في التجسد الذي كان من اجل خلاصنا، وفي الأم ربنا

ومخلصنا، وموته. فان عملت هكذا، تكون على الدوام غائصاً في بحر النور الالهي. واظب على الذهاب الى الكنيسة، كلما امكنك ذلك. فمجرد حضورك في الكنيسة من شأنه ان يحيطك بسحابة من الصلاة. فكم تنال ان كنت اثناء الصلوات، في حالة صلاة حقيقية؟!

٤ - اعلم انه يتعذر عليك التقدم في الصلاة بدون تقدم عام في السيرة المسيحية. ومن الضروري جداً ان تكون النفس غير مثقلة بأية خطيئة ما لم تتنق منها بالتوبة. فان كنت قمت بشيء ازعج ضميرك ابّان الصلاة، فبادر الى تطهير نفسك بالتوبة حتى تستطيع النظر الى الله بشجاعة. لتكن مشاعر التوبة في قلبك على الدوام. لا تهمل اية فرصة لعمل صالح، لاظهار مشاعر حسنة، لا سيما التواضع والطاعة وقطع الارادة الذاتية. ولتكن الرغبة والغيرة في خلاص نفسك، مضطرمة وتملأ كل نفسك وكل الاشياء الكبيرة والصغيرة، بكل قوة، وبمخافة لله مع ثقة به لا تتزعزع.

٥ - واذا وطّدت نفسك على هذا، بادر الى الصلاة، ومارسها، عاكفاً على الصلوات المقروءة حيناً، وعلى الارتجالية حيناً آخر، وعلى الصلاة بابتهالات لله، آخر. واخيراً، اعكف على صلاة الرب يسوع دون ان تهمل اي امر يعينك على ذلك. بهذا ستنال ما تبتغي. واذكرك بكلمات القديس مكاريوس المصري: الله يرى اعمال صلاتك واخلاصك ورغبتك في النجاح فيها. هو نفسه سيعطيك صلاة. واعلم انه رغم ان الصلوات التي تقام بجهادات الانسان، تفرح الله، الاّ ان الصلاة الحقيقية التي تسكن في القلب وتدوم فيه، هي هبة منه، وانها عمل النعمة الالهية. لذا ففي صلواتك التي تطلب فيها اموراً كثيرة، لا تنسى ايضاً ان تصلي طلباً للصلاة.

٦ - سأعيد على مسامعك ما سبق ان سمعته انا من انسان محب لله، قال: لم تكن حياتي حسنة، لكن الله رأف بي ورحمني، وارسل اليّ روح توبة. كان هذا اثناء الاستعداد للمناولة. كنت احاول جاهداً ان اغرس في نفسي عزماً ثابتاً على اصلاح طرقي، لا سيما قبل

الاعتراف. صليت طويلاً امام ايقونة والدة الاله طالباً منها ان تزوّدني بهذا العزم. واثناء الاعتراف، بادرت الى البوح بكل شيء صراحة. اما ابي الروحي فلم يتكلّم، ولكن اثناء صلاة الحل فوق رأسي، اضاء في قلبي نور بهي، وكان احساسي به شبيهاً بابتلاع طعام لذيذ. واستمر هذا النور في قلبي، واحسست وكأن هناك من يمسك به. ومنذ ذلك الحين وانا اصلي على الدوام وقد حفظت انتباهي في القلب، جاعلاً اياه هناك حيث كان شعوري الاول البهي، وكان همي الاحتفاظ به. والله اعانني، فلم اكن قد سمعت عن صلاة الرب يسوع. لكن لما سمعت عنها، ادركت ان ما بداخلي هو تماماً ما يطلبه المرء بهذه الصلاة. لقد اطلعتك على هذه القصة لتفهم ما المقصود بعمل الصلاة، وما العلامات ان هذه الصلاة قد حققت هدفها.

٧ ـ سأضيف ايضاً بضعة كلمات للقديس غريغوريوس السينائي (الفيلوكاليا، الجزء الاول، ص ١١٢): «تستقر النعمة الالهية فينا منذ ان ننال المعمودية المقدسة، الا انه عبر غفلتنا، تنسل الاباطيل والشرور والسيرة السيئة، فتخمد النعمة وتدفن. لكن عندما يوطّد المرء العزم على ان يعيش سيرة صالحة، ويشتاق الى الخلاص، فان ثمرة اتعابه تكون استرجاع عمل النعمة بكاملها. وهذا يحدث تحت وجهين:

١ ـ تنكشف هذه الهبة عبر الانشغال الكثير بحفظ الوصايا. ومتى نجح الانسان في الوصايا، تصبح الهبة هذه اكثر لمعاناً وضياء.

٢ ـ انها تنضج وتنكشف بالدعاء الدائم لربنا يسوع في الصلاة. الامر الاول قوي، اما الثاني فأقوى. فان كنا نتقوّى بالاول، فلنبادر الى تدريب النفس على الصلاة من عمق القلب، كي يكون هذا العمل في الصلاة وحسب، ويكون خالياً من الاشكال والخيالات، فيصبح القلب حاراً ومشتعلاً بمحبة الرب المتعذر النطق بها. ان هذا النص يحتوي على كل ما ذكرته في الفقرة الرابعة.

الفصل الثالث والخمسون

دور الصلاة في الحرب غير المنظورة

في حديثي عن الصلاة، عالجت أمر الوسائل التي ترقى بصلاتك إلى المستوى المرجو، وقد تؤخذ بهذا الكلام فتقول: ما العلاقة بين رفع الصلاة إلى القامة المرجوة، وبين الجهادات الروحية؟ لا تستغرب في كلامي في مسألة الجهادات الروحية، المتعلّقة بالصلاة الحقة، والتي يستحيل أن تكون سلاحاً قوياً في الجهادات الروحية، إلا إذا كانت حقيقية، أعني عندما تتجذر في القلب، ومنه تعمل بلا انقطاع، فتكون سداً منيعاً لا يُدك، تتقي به النفس نبال العدو وضربات الأهواء، وغوايات الدنيا وخداعاتها. ان قيام صلاة حقيقية في القلب، يقطع الحرب اللامنظورة ويبعدها. لهذا نصحتك أن تبادر إلى غرس عمل الصلاة في قلبك، وأن ترى أنه ينبغي أن تكون في حركة دائمة هناك. ان هذا يشبه القول: افعل هكذا، تغلب وتنتصر حتى بدون جهاد.

وفي العادة تكون الأمور هكذا، ولكن قبل وصول الصلاة إلى مثل هذه القامة، لا بد من التعب، فالأعداء لا تعطي فرصة للراحة، ولا تهادن ولو لبرهة واحدة في الحرب. ترى هل تستطيع الصلاة أن تساعد في هذا الميدان؟ نعم تستطيع. لا بل انها تقدر على ذلك أكثر من أي سلاح آخر في الحرب الروحية، فهي تجتذب العون الإلهي إلينا دائماً. وهكذا تهرب الأعداء وتتبدد بقوة الله، طالما أن صلاتك بحرارة، مع تسليم الارادة الله. ومكان الصلاة في الحرب اللامنظورة هو الجبهة الأمامية، وذلك لمقاومة الشرير، الأمر الذي يحدث عندما يحس الانتباه بأصوات

غريبة تشير إلى اقتراب العدو، فيلمس سهام الأفكار الشهوانية، أو أية اثارة بدأت تتحرك في الداخل. وهذا تميّزه الروح الملتهبة بالشوق الإلهي. فهي تعلم أن هذا من صنع الشرير، فتستجمع قواها، وتكون على درجة قصوى من التأهب، وذلك لتطرد الأفكار بلا شفقة، فلا تسمح لها بالنفاذ إلى القلب. وأثناء ذلك تقوم بعملها الداخلي، فترتقي إلى الله في صلاة ابتهالية، فتنال المعونة وتبدد الأعداء فتتوقف المعركة.

ويصف لنا القديس يوحنا القصير (كولوفوس) ذلك، بجلاء، فيقول عن نفسه: «أنا أشبه انساناً جالساً تحت شجرة كبيرة يرى وحوشاً وأفاعي عديدة مقبلة إليه، وإذ ليس له القدرة على صدها، يسرع إلى الشجرة يتسلقها كي يكون بأمان. هذا ما يحدث لي عندما أجلس في قلايتي وأرى الأفكار الرديئة وهي تتوثب ضدي. فإذ أنا ضعيف عن صدها، أقوم وأجري إلى الله بالصلاة، فأنجو من العدو» (الأقوال الحقيقية، الجزء الثاني). ويقول القديس ايسيخيوس بهذا الصدد، في فصوله عن اليقظة والصلاة: «عليك أن تحمل في داخلك نظرة ذهن يتوق إلى الفضيلة، ان أردتَ أن تشعر بكل ما يجول في داخلك. فإن وجدت الحية تسعى إلى النفاذ إليك، بادر إلى سحق رأسها وأصرخ إلى الرب بالأنين، فتختبر العون الإلهي غير المنظور». وعندما تتفاقم أفكار الشر فيك، بادر إلى صدها بصلاة الرب يسوع المسيح، فترى كيف تضمحل كالدخان في الهواء. هذا عرفناه بالخبرة. وأيضاً: دعنا نقوم بالحرب الداخلية على الشكل التالي: علينا بالانتباه. فعندما نلاحظ دنو فكر شرير، فلنبادر إلى لعنته بقلب غاضب وواع. بعد ذلك فلنرفع القلب إلى الرب يسوع متضرعين أن يبدد خيالات الشياطين، كي لا يضيع الذهن بها، كما يضيع الطفل الذي يتابع ساحراً بارعاً. وفي العادة، من شأن المقاومة والصد، أن تبتر توارد الأفكار الرديئة. والدعاء لاسم الرب يسوع، من شأنه أن يبددها تواً بمجرد أن يتشكّل همس شرير في النفس بفعل تصوّر المحسوسات في الذهن: على سبيل المثال: اساءة أتتنا من انسان، أو صورة امرأة جميلة، ذهب أو فضة. ومن الأكيد أن

هذه الخيالات داهمتنا بفعل الأرواح الشريرة، والشهوة، وحب الفضة (المال). فما على الذهن إلا أن يمجّها ويأباها، ان كان مدرّباً وخبيراً وقد ألف درء الأخطار عن ذاته أمام كل هذه الايحاءات. فهو يراها بوضوح كما يرى في وضح النهار. وهكذا، وبفعل المقاومة والصد والاحتكام إلى صلاة الرب يسوع، يرغم العدو على التراجع، فلا يسمح له بتمرير خيالاته الخبيثة. وصلاة الرب يسوع تعين في ترسيخ الذهن كي لا ينزع نحو الايحاءات الشريرة. كذلك تحول دون تعلّق القلب بها أو مهادنتها ومحاورتها. فالأفكار الشريرة تجد سبيلها إلى قلوبنا بفعل هذه الطرق غير المحسوسة. الأفكار الشريرة تتوالى، كما يتوالى الليل والنهار.

وإنك ستجد في كتابات القديس ايسيخيوس فقرات ومقاطع كثيرة مشابهة، وسوف ترى أنه يرسم الخطوط العريضة لكل حربنا اللامنظورة. لذا أنصحك أن تطالع ما كتب في اليقظة والصلاة، كلما سنح لك الوقت.

القسم الثاني

الفصل الأول

في سر الشكر الكلي القداسة

أيها القارئ العزيز، لقد حدثتك حتى الآن عن الأسلحة الأربعة الواجبة من أجل النصرة على الأعداء في الحرب اللامنظورة، وهي: عدم الثقة بالنفس. رسوخ الرجاء بالله. مقاومة الخطيئة والجهاد ضدها. وأخيراً، الصلاة. والآن أريد أن أشير إلى سلاح قوي آخر في الحرب اللامنظورة، انه سر الشكر الكلي القداسة. ان هذا السر هو الأقوى تأثيراً من كل الأسلحة الروحية. فالأربعة السالفة، تستمد طاقتها وقوتها من هبات النعمة الإلهية ومعونتها الممنوحة لنا بدم المسيح. إلا أن هذا السر هو دم المسيح نفسه، كاله. عندما نستخدم هذه الأسلحة الأربعة، فنحن نحارب العدو بقوة المسيح. في الحالة الأخيرة، ربنا نفسه يضرب أعداءنا فينا، بالتعاون معنا. لأن من يأكل جسد المسيح ويشرب دمه، يقيم في المسيح، والمسيح يقيم فيه كما قال: «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه» (يوحنا ٦: ٥٦). لذا فعندما نغلب الأعداء، فدم المسيح هو الذي يغلبهم كما جاء في الرؤيا: «وهم غلبوه بدم الحمل» (رؤ ١٢: ١١).

وسر الشكر الكلي القداسة، هو السلاح الغالب، أو بالحري هو المسيح، حاضر في هذا السر. ويمكن نيله تحت شكلين:

١ - الأول سرّياً (sacramentally)، في سر جسد المسيح ودمه، مع الاستعداد الواجب، وأعني الانسحاق والاعتراف والتطهر بالتوبة والصوم المطلوب.

٢ ـ ثانياً: داخلياً وخارجياً، في الذهن والقلب. فالأول يمكن الركون إليه واستخدامه كلما سنحت الظروف الخارجية والحالة الداخلية وتقديرات الأب الروحي وما يسمح به. أما الثاني فيمكنه أن يكون في كل وقت. لذا عليك أن تجعل هذا السلاح في يدك، وتشهره على الدوام ضد أعدائك. لذا اصغ لهذا وأشترك في أسرار ربنا قدر الإمكان، ما دام أبوك الروحي قد أذن لك. لكن جاهد أيضاً كي تشترك في المسيح ربنا، داخلياً وروحياً، بدون توقّف. لقد قدمتُ لك الدليل إلى هذا في الفصول السابقة عن الصلاة.

الفصل الثاني

في كيف ينبغي للمرء أن يشترك في سر الشكر المقدس أو كيف يشترك بالمسيح ربنا عبر الأسرار، وعلى نحو سرّي ؟

كي نبلغ الهدف الذي به ندنو من هذا السر الإلهي، ينبغي أن تكون لنا بعض الاستعدادات الخاصة، فنتم ممارسات خاصة، ونتمرس على أمور معينة، قبل المناولة، أثناءها، وبعدها. قبل المناولة، علينا أن نطهر أنفسنا من كل قذارة الخطايا المميتة وغير المميتة، وذلك بالتوبة والاعتراف، فنعمل بما يطلبه الأب الروحي منا أثناء الاعتراف، وندمج ذلك بعزم ثابت على خدمة ربنا يسوع المسيح، من كل القلب، والنفس والقوة والذهن، فنعمل فقط ما هو مرضي له. وفي هذا السر يهبنا جسده ودمه، ومعهما نفسه والوهيته، وملء قوة تجسده. وعندما نفكر بصغر وقلة أهمية ما نعطيه نحن، بالنظر إلى عطيّته، دعونا على الأقل نعقد العزم في قلوبنا على أن نكون مجاهدين ومجتهدين في القيام بما نستطيع من أجل مجده. لنقدم له كل شيء بجهوزية وتأهب لعظمته الإلهية.

وان رغبت الاشتراك في هذا السر، وذلك كي تغلب أعداء الرب بقواه، وتسحقها، وأعداءنا أيضاً، فبادر إلى التأمل في الليلة السابقة، أو التي قبلها، بمقدار رغبة مخلصنا ابن الله والله، بذلك. ونحن باشتراكنا في هذا السر، إنما نعطيه مكاناً في قلوبنا، فيتّحد بنا، ويعيننا على طرد وغلبة كل الأهواء والانتصار على عدوّنا.

ورغبة الرب عظيمة وحارة، حتى ان ذهنا مخلوقاً، مهما كان، يعجز عن احتوائها بكل كمالاتها. ولكي تتحرك قليلاً إلى الأمام في فهم ذلك، عليك أن تطبع بعمق، في ذهنك، هاتين الفكرتين:

١ - فرحة الله الكلي الرحمة، والتي لا توصف في أن يتّحد فينا باخلاص كما تؤكد الحكمة المقدسة ذاتها: «وبهجتي كانت مع أبناء الناس» (أمثال ٨: ٣١).

٢ - مقدار مقت الله الشديد للخطيئة. فهي تحول دون اتحاده بنا، الأمر الذي يرغب به. فالخطيئة تتعارض مباشرة مع كمالاته الإلهية. ولما كانت طبيعته مقدسة ومباركة بما لا يوصف، نوراً نقياً وجمالاً لا يلفظ به، فهو يمقت الخطيئة بالكلية، لأنها ليست سوى ملء الشر، والظلمة والفساد والعار والخزي، في نفوسنا. ان مقت الله للخطيئة، عظيم جداً، فكل أعمال العناية الإلهية، وكل أحكام العهدين القديم والجديد، موجهة منذ البدء، نحو ابادة الخطيئة، وازالة كل آثارها. هكذا كانت الآم المسيح مخلصنا العجيبة، ابن الله، والله. ويقول بعض اللاهوتيين والمعلمين بأن لو كانت الضرورة تدعو أن يتخذ ربنا على عاتقه ميتات عديدة لا تحصى، لسحق قوة الخطيئة، لفعل. (راجع القديس ديونيسيوس الاريوباغي - رؤية تيطس). هكذا هو غضب الله ضد الخطيئة.

وإذ أدركت من هاتين الفكرتين مقدار رغبة الله في الدخول إلى قلبك، ليحقق هناك نصرة نهائية على أعدائك الذين هم أعداؤه أيضاً، سوف لا يكون لك إلا رغبة واحدة حارة، هي أن تتقبّله، كي ينجز فيك هذا العمل فعلاً. وهكذا تمتلئ بالشجاعة والجرأة والرجاء الأكيد بأن الملك السماوي، مخلصك، يستطيع أن يدخل إلى قلبك ويقاتل الهوى الأكثر مضايقة لك، والذي ترغب أنت أن تسحقه بالكراهية والاحتقار والاشمئزاز. وفي نفس الوقت، يثير فيك الشوق إلى اكتساب الفضيلة المضادة، والجهوزية، للقيام بأعمال مماثلة الخ.. وهذا ما يجب أن تفعله عشية المناولة: افحص نفسك صباح يوم المناولة عن عدد

المرات التي انجرفت فيها وأخطأت، من وقت مناولتك الأخيرة وحتى الآن. تذكّر أيضاً العمى والغباوة اللذين بهما عملت كل هذا، كما لو كان الله بالنسبة إليك غير موجود وليس من يدين أو يجازي. تذكّر انه يرى كل شيء، وأنه احتمل العذابات المريرة والموت المعيب على الصليب، كي ينقذك من مثل هذه الأشياء. تذكر أنك احتقرت هذا كله بعملك، عندما انحرفت إلى الخطيئة، وجعلت شهواتك فوق ارادة الهك ومخلصك. ليغطّ الخجل وجهك عندما تدرك مقدار حماقتك ونكرانك للجميل. لكن مع هذا، لا تدع نفسك ترزح تحت كل هذه الاضطرابات، واليأس. فالرب بطول اناته يرى توبتك واستعدادك لخدمته هو فقط، من الآن فصاعداً، فيسرع إليك، ويسكب عليك محبته ورحمته، وذلك كي يُغرق فيها نكرانك للجميل، وغباوتك وقلة ايمانك. لذا ما عليك إلاّ أن تدنو منه بشعور ملؤه عدم الاستحقاق، يحدوه رجاء كامل ومحبة وتكريس، جاعلاً قلبك هيكلاً له. وأسمح له أن يدخل إليه. كيف يكون ذلك وبأية طريقة؟ انه باقصاء كل القيود الشهوانية من القلب، وعدم التعلق بأي مخلوق، وسد أبواب الذهن أمام أمور الدنيا، للحيلولة دون دخولها، فلا يدخل غير الله.

بعد تناول الأسرار المقدسة، بادر إلى الدخول تواً إلى الأعماق السرية من قلبك، واعبد الرب هناك بتواضع وتكريس قلبي قائلاً: «يا إله المراحم، يا من يرى سرعة سقوطي في الخطيئة، ويعلم قوة شهواتي التي تهاجمني، ومقدار سيطرتها علي، وعجزي عن الانعتاق منها من ذاتي، أعنّي، وقوّ جهادي، وخذ أسلحتي لتحارب عني، فتهزم عدوي الصلب والقاسي إلى النهاية».

بعد ذلك، التفت وارفع الشكر للآب السماوي أبي ربنا يسوع المسيح، وأبينا، الذي بداعي محبته نزل إليك مع ابنه عبر هذه الأسرار، مع الروح القدس الذي ألهمك وأهّلك أن تتناول جسد ودم يسوع المسيح. وها هو يسكب عليك خيراته الوفيرة بعد المناولة. قدّم الحب لله المعبود في ثالوث أقدس، الذي أسبغ عليك احساناته. أشكره بحرارة،

مظهراً له عزمك الأكيد، واستعدادك في أن تقاتل خطيئتك على أمـل غلبتها بقوة الله الثالوثي الأقانيم. وينبغي أن تعلم أنك لن تأخذ أي عـون من الله، ان كنت تعتمد عـلى قواك، رغم كـل جهادك بغـيرة واجتهاد. وستكون النتيجة فشلاً واخفـاقاً. جـاهد بكـل غيرة، ولكن تـرقّب النجاح من الله. ومعـونة الله آتيـة إليك بكـل تأكيد، لتقوّي ضعفك، وتمنحك النصرة على الذين تجاهد ضدهم.

الفصل (الثالث)

كيف تضرم محبة الله في النفس بالولوج الى عمق سر الشكر؟

كي تضرم محبة الله في نفسك بالولوج الى السر السماوي، سر دم المسيح وجسده، حوّل افكارك الى التأمل بالمحبة التي اعلنها لك انت، في هذا السر. فالله العظيم والممجد، لم يكتف بأن جعلك على صورته ومثاله، ولم يكتف بارسال ابنه الوحيد ليحيا ثلاثاً وثلاثين سنة في العالم، كي ما يفديك، عندما سقطت وأهنته. كذلك لم يقنع بان يعتقك بآلامه الرهيبة، وموته الاليم على خشبة الصليب، وذلك لكي يحررك من الشيطان الذي اخضعك بالخطيئة، فيعود بك الى الرتبة الاولى التي كانت لك. كلا، انما علاوة على كل هذا، أسّس سر جسده ودمه غذاء لك، وذلك كي تسري في طبيعتك كل قوى تجسده. اجل كل هذه موضوع تأمل عميق عندك لكي ترى ملء وغنى هذا السر. وعليك ان تغذي وتضرم قلبك بمحبة لا تتجزأ، وحنين قوي الى الله.

١ ـ فكّر في الوقت الذي بدأ الله يحبك فيه، وسوف تجد ان حبه لك لا حدود له، فهو ازلي بجوهره، لذلك فحبه ايضاً ازلي. وقد شاء قبل كل الدهور، ان يهبك ابنه الوحيد بطريقة عجيبة يتعذر وصفها. فأنت اذ تتحقق من هذا بنفسك، تهلّل وافرح بالروح، واهتف صارخاً: «حتى عندما كان عدمي في هاوية الازل، كان الله يرعاني بحبه غير المحدود. وقد عزم ان يهبني ابنه الوحيد غذاء. فهل

اسمح بعد هذا لنفسي بأن لا اتّحد به من كل الذهن والقلب والشوق؟

٢ ـ فكّر ايضاً انه مهما عظُم التجاذب والمحبة بين المخلوقات، تبقى اموراً محدودة وذات قياس. اما حب الله لنا، فهو وحده بدون حدود. وعندما لزم الامر، دفع ابنه المساوي له في العظمة واللامحدودية، لأن طبيعتهما واحدة. حبه عظيم كعطيته، وعطيته عظيمة كحبه. الاثنان عظيمان، حتى انه يستحيل على المخلوق ان يدرك ما هو اعظم منهما. لذا بادر الى اقتبال هذا الحب غير المحدود، بما فيك من قدرة على الحب.

٣ ـ تأمّل ايضاً ان الله بادر الى حبنا، ليس عن ضرورة او احتياج، بل مدفوعاً الى ذلك من حبه الطبيعي. فقد احبّنا تلقائياً بمحبة تفوق القياس والادراك.

٤ ـ تأمّل ايضاً في هذا الحب الالهي، الذي لا نقدر ان نقابله بأي عمل يستحق المدح والثناء. فالله قابل فقرنا المطلق، بغنى حبه. أحبّنا فقط، لأنه اراد ذلك بدافع محبته. لم يكن موقفه مجرد محبة، بل ايضاً اعطانا نفسه نحن غير المستحقين.

٥ ـ تأمّل في نقاوة حبه، وكم هو مباين لحب المخلوقات. حبه لنا لا يشوبه اي نفع او مصلحة. فالله لا حاجة له الى ربح يأتيه من خارج، فهو مكتف وكلي البركة في ذاته. وهكذا فعندما يرغب في ان يسكب حبه اللامحدود علينا وفينا، لم يكن ذلك على قاعدة النفع والفائدة، انما كان من اجل خيرنا نحن.

واذ تفكر بهذا، فلن يسعك الا الصراخ قائلاً: «يا للعجب، لقد جعل القدير قلبه عليّ انا العدم والاحقر من جميع الخلائق. ماذا ترجو مني يا ملك المجد، ماذا ترجو من التراب والرماد؟ فأنا ارى بوضوح يا سيدي والهي، في نور حبك غير المحدود، إن لعظمتك رغبة واحدة هي ان تكشف لي حبك اكثر، وأنك تشاء ان تهبني ذاتك طعاماً وشراباً، ليس لغرض آخر، غير تحويل كياني الى كيانك. وهذا ليس لأنك بحاجة الي،

انما لأنني انا المحتاج اليك. بهذه الطريقة تكون انت فيّ وانا فيك. ومن خلال اتحاد الحب هذا، اصير انا كما انت. وبالتعبير البشري: باتحاد قلبي الارضي، بقلبك السماوي، يولد فيّ قلب الهي.

ان تفكيراً كهذا يملأ قلبك بالذهول والبهجة عندما ترى نفسك على هذا القدر من القيمة امام الله، وتراه يحبّك بهذا المقدار، وتدرك انه بحبه اللامتناهي لك، لا يرتجي لنفسه شيئاً سوى ان يجتذب حبك اليه، فيهبك السرور بتحريرك من كل ارتباط شهواني بالمخلوقات وبنفسك. وتستطيع بعد ذلك، ان تقدم ذاتك ذبيحة ملتهبة اليه فهو الهك. ومنذ ذلك الحين، وحتى نهاية حياتك، ستحبه وحده وترضيه بلهفة حارة تغمر ارادتك وذهنك وارادتك وذاكرتك وكل حواسك. ان كل احسان يأتيك من حب الله لك، يمكنه ان يولّد التأثير ذاته على نفسك. ويكون طبيعياً جداً، اذا كنت تنظر بتعقل ووعي الى سر الشكر الالهي والمبارك. فاذ تنظر اليه بذهنك، بادر الى فتح قلبك امامه، واسكب صلواتك الحارة وتنهداتك المفعمة بالحب قائلاً: «ايها الغذاء السماوي، متى تأتي الساعة فألتصق بك وتبتلعني ليس بنار غريبة، بل بنار حبك لي؟ ايها الحب غير المخلوق، يا خبز الحياة، متى سأحيا بك فقط؟ متى سأحيا فيك ولك فقط؟ متى يا حياتي وجمالي وعذوبتي وديمومتي؟ ايها المن النازل من السماء، متى اتحوّل عن الطعام الارضي؟ متى لا أشتهي الاّك فقط؟ يا عذوبتي المطلقة وخيري الاسمى يا سيدي المشتهى الاوحد والكلي الصلاح. متى تنزع من قلبي البائس كل ارتباط او ميل خاطئ؟ زيّني بفضائلك الالهية، واملأ حياتي من كل ميل صالح يجعلني اعمل ما يرضيك. وفي النهاية سأبادر الى فتح ابواب قلبي لك، رغم عدم استحقاقي. واضرع اليك بحب قائلاً: ادخل الي يا الله، كي تزيل كل العراقيل، وتتم فيّ الاعمال التي تريدها في نفسي، وفي النفوس المكرسة لك.

بمثل هذه الافكار المحبة، والمشاعر الطيبة، بادر الى قضاء مسائك وصباحك استعداداً للمناولة. وعندما تدنو الساعة، تمثّل في ذهنك بأجلى

بيان، مع تواضع ودفء في القلب، ذاك الذي ستتناوله، ومن انت الذي سيتناول ذاك.

انه ابن الله المتسربل بالمجد الذي لا يدرك، الذي ترتعد في حضرته السموات وقواتها. انه الاقدس من القديسين، والاشد بهاء من الشمس، النقاوة التي تفوق الادراك، والذي نقاوة المخلوقات بأسرها، هي كالقذارة امامه. في حبه لك، اتخذ صورة عبد، واختار ان يُرذل ويُهان من عالم لا ناموس له. إلاّ انه مع ذلك بقي الهاً، بيده الحياة والموت. من انت؟ انت عدم. وبفسادك وخبثك وشرّك، صرت دون العدم، واحقر من اصغر الصغائر، واكثر دنساً من كل الخلائق الفاسدة. انت مهزلة شياطين جهنم. انت المحمول على خيالاتك وشهواتك واهوائك. انت من ازدرى سيدك العظيم والمحسن اليك. فبدل شكره على احساناته الكثيرة، دست دمه الطاهر الثمين الذي اهرق من اجلك. لكن رغم كل هذا، فهو يدعوك الى وليمته الالهية، بمحبة لا تتوقف ولا تتغير. وكثيراً ما يتوعّدك كي تأتي اليها (وليمته) ويذكّرك بما قاله للجميع: «ان لم تأكلوا جسد ابن الانسان، وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم» (يو ٦ : ٥٣). وما برح حتى الساعة يشرّع ابواب مراحمه امامك، ولم يصرف وجهه عنك وانت في خطاياك. انت الشقي الضعيف والابرص والاعمى والفقير المستعبد للاهواء والرذائل. ان كل ما يطلبه منك هو:

١ ـ ان تحزن في قلبك لأنك اسأت اليه

٢ ـ ان تمج الخطيئة اكثر من اي شيء، وفوق كل شيء، الصغيرة منها والكبيرة

٣ ـ ان تسلّمه ذاتك بالكلية، ولا تنشغل الاّ بأمر واحد هو ان تخضع له بارادتك خضوعاً كاملاً ملؤه الحب والشوق له.

٤ ـ ان يكون لك به، ايمان ثابت، وثقة لا تتزعزع، وانه سيرحمك ويطهّرك من كل خطاياك ويحميك من كل اعدائك المنظورين وغير المنظورين.

وعندما تتحصّن بهذا الحب الالهي الذي لا يوصف، اقترب من المناولة بخوف ومحبة قائلاً: «يا رب لست مستحقاً ان اتقبّلك. لقد اغضبتك مرّات ومرّات بسبب خطاياي ولم أنُحْ بعد على كل افعالي الرديئة. انا لست مستحقاً يا رب ان اتقبّلك لأنني لم أنقّ نفسي بعد من الميول الرديئة ومن كل ارتباط آخر لا يرضيك. انا لست مستحقاً يا رب لأنني لم اذعن بعد لحبك باخلاص، ولم اعرف الطاعة لك. يا الهي الكلي القدرة والصلاح، اجعلني بمحبتك وعطفك اهلاً لاقتبالك، فانا اسرع نحوك بايمان.»

وبعد ان تكون قد تناولت، اغلق على ذاتك في اعماق قلبك، ناسياً كل ما هو حولك من خلائق، وارفع الى الله تسبيحاً على هذا المنوال قائلاً: «ايها الملك العظيم، ملك السماء والارض، من جعلك تدخل قلبي انا غير المستحق، فانا شقي وبائس، اعمى وعريان. لا احد الاّك انت ايها المحبة التي لا تُقاس. ايها المحبة غير المخلوقة. ايها الحب الكلي العذوبة، ماذا ترجو مني انا الفقير؟ لا شيء كما ارى وافهم. لا ترجو مني الا حبي لك. انت لا ترجو الاّ ان يضطرم قلبي بنار واحدة، هي نار محبتي لك على مذبح قلبي، المحبة التي تلتهم كل هوى وكل محبة غير التي عندك والقادرة ان تجعل مني ذبيحة محرقة لعظمتك، ورائحة بخور زكي. انت لم تطالبني بغير هذا، ولا تطلب مني الآن غير هذا. لذلك استمع يا رب الى نذور قلبي. ها انا الآن ادمج بين رغبتي ورغبتك. وكما انك اعطيتني ذاتك بكليتها، ها انا اعطيك ذاتي بكليتها، كي تكون بكليتها فيك. انا اعلم يا رب ان هذا مستحيل، إلاّ اذا تخلّيت عن ذاتي بالكلية. هذا مستحيل ان بقي فيّ اثر لحب الذات. او اذا كنت احمل في نفسي شفقة وميلاً نحو ارادتي الخاصة وافكاري، او واحدة من عاداتي السيئة. لذا فانا مشتاق من الآن، ان اعارض نفسي في كل ما لا يرضيك، وارغم نفسي على ما هو مرضي لك، حتى ولو كان ذلك يتعارض مع ما هو بداخلي وخارجي. إلاّ اني لست امتلك القوة للنجاح في مسعاي. لكن حيث انك من الآن معي،

فانا اثق انك ستعمل فيّ كل ما انا بحاجة اليه. واني لمشتاق ان يكون قلبي وقلبك واحداً. واثق ان نعمتك ستهبني هذا. اني اريد واشتاق ان لا ارى شيئاً ولا اسمع شيئاً ولا افكر في شيء، ولا استلطف شيئاً، إلاّ الذي تريده انت، واراه في وصاياك. واثق ان قوتك الفاعلة في داخلي، ستغدق عليّ ذلك. اني اريد واشتاق ان لا يضل قلبي، ويزيغ انتباهي، فانت تسكن فيّ واراك دائماً، واستدفئ بشعاعات النور المنبعث منك. انا على ثقة تامة ان يدك ستهبني هذا. انني مشتاق من الآن ان تكون انت نوري وسعادتي وقوتي. واثق انني سأحظى بذلك بعملك الخلاصي فيّ. من اجل هذا، اصلّي، وسوف اظل أصلّي. ايها الاله الرحوم هبني هذا، هبني هذا.»

بعد ذلك حاول ان تزيد من جهادك يوماً بعد يوم، بفعل المناولة الكلية القداسة. ولا تكف عن التأمّل في سرها العجيب، متأمّلاً في كيف يعتلن الله لك تحت شكل خبز وخمر، وان يكون حاضراً فيك كي يزيدك براً وبركة وقداسة، لأنه «طوبى للذين لم يروا وآمنوا» حسب كلمات المخلّص (يوحنا ٢٠ : ٢٩).

لا ترغب في ان يعلن لك الله ذاته في هذه الحياة بغير المناولة. حاول ان توطّد النفس الى هذه القداسات، فتتقدم كل يوم في استعدادك الى القيام بما ينسجم مع ارادة الله، وفي الحكمة الروحية، جاعلاً اياها ملكة وحاكمة على كل اعمال الروح فيك. مع النفس والجسد ايضاً. وفي كل مرة تتناول جسد الرب ودمه، اجعل نفسك ذبيحة للرب لدى اشتراكك في هذه الذبيحة غير الدموية، وصرّح عن جهوزيتك وحسن استعدادك لاحتمال كل الضيقات والاحزان، وكل خطأ تصادفه في مجرى حياتك، وذلك من اجل الذي احبك وبذل نفسه عنك.

ويصف القديس باسيليوس الكبير ما يترتّب على المتناول، على اساس كلمات الرسول بولس: «ان الذين يأكلون جسد الرب ويشربون دمه، يخبرون بموته» (١ كور ١١ : ٢٦). فالموت هذا سبق الرب واحتمله من اجل كل الناس، وكل المتناولين. لماذا؟ «كي يعيش الاحياء لا

لأنفسهم فيما بعد، بل للذي مات عنهم» (٢ كور ٥ : ١٥). لذا فالذين يدنون من المناولة الالهية بايمان ومحبة واستعداد، كي يكونوا امناء في وصايا الرب، وامام مشيئته، وان يستعدوا لبذل حياتهم من اجَل ذلك فلا يعيشون بعد الآن لذواتهم او للعالم او الخطيئة، بل للرب الاله الذي يتناولونه في سر الشكر، لأنه مات وقام من اجلهم. واخيراً واذ تكون قد تناولت الرب من خلال هذا السر، الرب الذي بذل نفسه عنك، وقد اشتركت انت نفسك في قوة هذه الذبيحة، فبعد تمجيده ورفع الشكر له، ارفعْ باسم هذه الذبيحة، صلوات وابتهالات نحو ابيك السماوي، عن كل احتياجاتك الروحية والنفسية والجسدية، وعن كنيسة الله المقدسة، وعائلتك، والمحسنين اليك، وارواح الذين رقدوا بايمان. واذ تكون اشتركت في الذبيحة التي جعلها ابن الله رحمة لنا من الله الآب، فان صلواتك ستُسمع، ولن تكون بدون ثمر البتة.

الفصل (الرابع)

الشركة في الروح

الشركة مع الرب في سر الجسد والدم ممكنة في بعض الاوقات فقط، حسب امكانات الشخص وغيرته. ولكن لا تكون اكثر من مرة في اليوم. الاّ ان الشركة الداخلية مع الرب، في الروح القدس، هي ممكنة في كل ساعة ودقيقة. اي انه يمكن للمرء ان يكون بنعمة الله في شركة دائمة مع الرب، وان يكون متيقظاً ان اراد الاتحاد في القلب حسب وعد الرب، فنحن نتقبّله بالاشتراك في جسده ودمه، فيدخل ويسكن فينا بكل خيراته وبركاته، ويسمح للقلب المستعد ان يعي ذلك. المتناولون الحقيقيون يكونون في حالة مقدسة بعد المناولة. في مثل هذه الحالة، يشترك القلب بالرب في الروح القدس.

وما دمنا مقيّدين باجسادنا، ومحاطين بعلاقات ونشاطات خارجية، يحثّنا الواجب على الانغماس فيها، فان ذهننا يتشتّت، مع احاسيسنا، يوماً بعد يوم. والاشتراك الروحي مع الرب يضعف ويحتجب، الاّ انه لا ينكسر، الاّ اذا دخلت (لسوء الحظ) خطيئة من الخطايا، واتلفت حالة النعمة. لا شيء يمكنه ان يقارَن ببهجة الاشتراك مع الرب. فالمجاهدون عندما يشعرون انها تضعف، يسارعون الى استرجاع ملء قوتها. بعدها يدركون من جديد، أن شركتهم مع الرب عادت لهم، وهذه هي الشركة الروحية مع الرب. بهذه الطريقة تحصل الشركة والاتحاد به عبر الاسرار المقدسة. ويمكن لهذه الشركة ان تكون دائمة في من يحتفظ بقلبه نقياً، ويكون انتباهه واحاسيسه موجهة على الدوام نحو الرب. وكل هذه هي من عطايا النعمة تُمنح للانسان المجاهد في طريق الرب، ان كان جاداً ومجاهداً ولا يشفق على نفسه.

حتى ولو كان المرء في شركة مع الرب في الروح، من وقت الى آخر، فهذه الشركة هي من عطايا الروح. كل ما يمكننا ان نأتي به، هو العطش والجوع الى هذه العطية، والجهاد القوي من اجل الفوز بها. وهناك سبل، على كل حال، تقود الى الاتحاد بالروح، وتساعد على نيله، رغم انه يبدو ان حلول الاتحاد هذا، هو امر غير متوقع. وهذه السبل هي: الصلاة النقية بصرخات قلب كالطفل. واعمال عدة قوامها نكران الذات في التمرّس على الفضائل. وعندما لا يكون ثمة خطيئة تلوّث النفس، ولا يكون هناك افكار واحاسيس تداهم النفس، عندما تكون النفس نقية وتصرخ الى الله، فماذا يمنع الرب الموجود والحاضر، من ان يجعل النفس تتذوقه، وان تعي هذه المذاقة؟ إلاّ ان هذا ما يحصل غالباً، ما عدا اذا كان الرب يؤثر، من اجل منفعة النفس، ان يطيل جوعها وعطشها قبل ان يرويها. ومن بين اعمال نكران الذات، فان الطاعة المتواضعة، هي الاقوى من الكل، في هذا الصدد، ومن شأنها ان تجعل المرء تحت اقدام الناس، وتعدّه من اجل كسب الفضائل، لا سيما احتمال الظلم، بقلب صالح. وكل هذا يكون في روح التسليم لله ومشيئته. ومثل هذه الاعمال تجعل الانسان شبيهاً بالرب اكثر من الآخرين، فيصبح الرب حاضراً فيه ويسمح لنفسه ان تتذوّقه. كذلك فان حفظ وصايا الرب باجتهاد، يُثمر بجعل الرب يقيم في القلب مع ابيه وروحه القدوس (يوحنا ١٤ :٢٣).

والشركة الروحية مع الرب، لا ينبغي لها ان تُخلَط بالتذكر الذهني للشركة معه عبر سر الجسد والدم، حتى ولو اقترن هذا التذكر بأحاسيس روحية، وحنين متوثب الى الشركة الحقيقية مع الرب عبر الاسرار المقدسة. كذلك لا يختلط الامر بما يقدمه المتعبدون في الكنيسة ويتناولونه بالمناولة. فهم يأخذون تقديساً الهياً، واحساساً، كونهم شركاء في الذبيحة غير الدموية بالايمان، والانسحاق، والاستعداد لبذل ذواتهم لمجد الله. ويأخذون على قياس هذه الاستعدادات. إلاّ انها ليست كالاتحاد به، رغم ان الاتحاد يمكن ان يحصل هنا ايضاً.

الفصل (الخامس)

في رفع الشكر لله

ان كل بركة نمتلكها، وكل عمل حسن نعمله، هو من الله، ومن عنده يأتي. لذا فالواجب يقضي ان نرفع الشكر عن كل شيء، ومن اجل كل بركة نأخذها من يديه الطاهرتين، سواء البركات المنظورة، ام غير المنظورة، من اجل كل عمل حسن، ومن اجل كل جهاد حسن، ومن اجل كل نصرة تصير لنا ضد اعداء خلاصنا كما اوصانا الرسول: «اشكروا في كل شيء، لأن هذه هي مشيئة الله في المسيح يسوع من جهتكم» (١ تسا ٥: ١٨). لذا اجتهد في أن تصون مشاعر الاعتراف بالجميل حارة وملتهبة فيك منذ ان تستيقظ. وعندما تخلد الى النوم، فلتكن كلمات الشكر على شفتيك، فأنت مغمور بالبركات الالهية. الله لا يحتاج الى شكرك، الاّ انك في عوز كبير الى البركات الالهية. ان مجال اقتبال هذه البركات هو في القلب المعترف بالجميل. ويقول القديس يوحنا الذهبي الفم: «ان خير السبل للمحافظة على احسانات الله، هو، أن تتذكر احساناته، وتشكره من اجلها على الدوام». وقد كتب القديس اسحاق السرياني يقول: «ان الاعتراف بالجميل يحث المعطي على تقديم عطايا اكبر من الاولى. لأن من لا يشكر على القليل، سييأس عندما يطلب الكثير. ليس هناك عطية تخلو من الزيادة والوفرة، الاّ التي يعوزها الشكر». ويضيف القديس باسيليوس الكبير الى ذلك تنبيهات نافعة، فيقول: «ان لم نرفع لله شكراً عن البركات التي يمنحها، فالواجب يقضي ان ينزعها منا، حتى نعرف ما نحن عليه. فالعين التي لا تقوى على النظر الى امر قريب منها، تحتاج الى مسافة ملائمة. هكذا النفوس غير

الشكورة، فعندما تنزع عنها البركات الالهية، تنتبه متذكرة المراحم السالفة. والذين لا يشكرون الوهّاب عندما ينعمون بهباته، سيشتاقون الى ماضي العز الذي أضاعوه.»

واذ تدرك كلامي وتفهمه، فانك ستسأل: كيف اجعل مشاعر الشكر فيّ على الدوام؟ دقّق في كل احسانات الله للناس، لذريتنا، لك انت، وتأمّل فيها، واحفظها في ذاكرتك. وان كنت صاحب قلب، فلن تتوانى عن الترتيل لله بشكر. وستجد ان اردت، نماذج لمثل هذا التسبيح في صلاتك، وفي اعمال القديسين. انظر كيف يصف القديس باسيليوس الكبير عطايا الله الينا: «لقد جاء بنا من العدم الى الوجود. خلقنا على صورته ومثاله، وحبانا عقلاً ونطقاً تحوي كمالات طبيعتنا. زوّدنا بامكانية معرفته، وقدّم لنا جمال الخلائق، نحن المجاهدين من اجل معرفته. بيّن لنا عظمته وعنايته بكل شيء، بمنتهى الحكمة. الطبيعة ايضاً تعلّمنا ان نختار المفيد، ونحجم عمّا هو مؤذٍ. ولما ابتعدنا عن الله بالخطيئة، دعانا للاشتراك في حياته، وأعتقنا من العبودية المرة بدم ابنه الوحيد. ماذا عن رجاء الخلاص وافراح النعيم وملكوت السموات والخيرات الموعود بها التي تفوق الوصف والادراك؟

طالع امور احسانات الله الينا، واختر اخرى من اعمال القديسين. او بادر انت نفسك الى صياغة قول يحوي بركات الله التي سكبها عليك. ردّدها على الدوام بالقول والفكر، ليس لمرة في اليوم، بل لمرات، وسوف تبلغ مشاعر الشكر الواجبة لله. وعندما يبرز هذا الشعور، فانه لا يرغب ان يبقى مكتوماً، فهو يبحث عن تعبير. فكيف ستعبر لله عن شكرك له؟ انه يريدك ان تعمل ما يرضيه عندما يحيطك ببركاته. ماذا يريد الله؟ عندما يسكب عليك بركاته، يريدك ان تتذكّره. انه يريدك ان تلتصق به وتحبه. انه يفرح بطاعتك لوصاياه، فتجاهد كي ترضيه في كل سبيل. هو يريدك ان تعتمد عليه في كل شيء. لذا افعل ذلك. انه يريدك ان تتذكّر المناسبات العديدة التي فيها اسأت الى المحسن اليك، بأعمالك الشريرة، فتمتلئ انسحاقاً وتتوب وتبكي، حتى

تأتي الى سلام مع ضميرك، وتتلقّى الضمانة بأن الله قد غفر لك. لذا افعل هذا. اما ترى اتساع مجال الشكر، وكثرة الوسائل لاتمام هذا الواجب؟ اعلم ان خطيئة المتهاونين عظيمة، وانتبه ان لا تلطّخ نفسك بها. نكران الجميل بين الناس هو ظلام. اية كلمة تستطيع ان تعبّر عن نكران الجميل هذا؟ لذا انتبه، واحتفظ بمشاعر الحمد والشكر حارة فيك على الدوام، لا سيما عندما تكون في الكنيسة اثناء الذبيحة الالهية، وحينما ترفع الذبيحة غير الدموية التي تدعى المناولة، الى الله. المناولة هي الافخارستية وتعني الشكر. ولا تنسى هنا ان الشكر الوحيد واللائق الذي يمكنك ان ترفعه، هو استعدادك الكامل لبذل ذاتك وكل ما تملك، من اجل مجد اسمه القدوس.

الفصل (السادس)

في التسليم لمشيئة الله

عندما يتوب الانسان، فانه يسلّم نفسه لله بالكلية، ويبدأ على الفور بالسلوك في وصاياه وارادته. وهذا العمل يبدأ بعرق الجبين. الوصايا ليست صعبة في حد ذاتها، الاّ ان هناك عقبات كثيرة امام المضي فيها، وممارستها على صعيد الظروف الخارجية عند المجاهد، لا سيما من جهة ميوله وعاداته الداخلية. الاّ ان المجاهد الصبور الذي لا يكل، يستطيع بنعمة الله، أن يغلب كل شيء، فيصل في النهاية الى سلامه الداخلي وتسود فيه حالة من السكينة في كل شيء. ورغم معونة الله، فالمجاهد يعمل بنفسه. والخبرة الناجمة عن الايام الاولى، من شأنها ان تجعله يدرك، انه رغم كل جهوده من اجل الخير، فالفضل في نجاحه، يعود الى قوة من فوق، أعلى منه. فكلما تقدم في الحياة الروحية، كلما ترسّخ فيه هذا اليقين، بعمق اكبر. وعندما يبنى السلام الداخلي، تترسّخ قناعته وتتحوّل الى مبدأ، حتى ينتهي الامر في نهاية المطاف الى التسليم الكلي لله والخضوع الكامل له. ويبدأ فعل الله وعمله في الذين يجاهدون من اجل الخلاص، منذ ان يتحولوا اليه، فيفعل فيهم. ثم ما يلبث ان يبدأ الفعل بالتزايد، عندما يتخلى المرء عن نفسه ويلتصق بالله، عندها سيدرك عجزه، فتصير له ثقة اكبر بقوة الله. وعندما يستسلم في نهاية الامر لله، يكون حضور الله فيه فعّالاً على صعيدين: الاول، بإرشاده الى ما ينبغي ان يقوم به. والثاني، بإتمامه وانجازه. هذه هي ذروة الكمال المسيحي، فالله هو الفاعل فيكم ان تريدوا وان تعملوا (فيليبي ٢ :١٣). وكما قيل في البداية، فبذار الكمال يقوم في عدم

الاعتماد على الذات والرجاء بالله. الاّ انها تظهر هنا في ملء نضوجها. ان ما يؤلّف جوهر الخضوع لارادة الله، يمكن تعلّمه لدى ظهوره بملء قوته. انه يأتي من تلقاء ذاته، وليس ثمة اصول خاصة لاكتسابه والبلوغ اليه. لذا فمستحيل هو القول: اعمل هذا او ذاك، تنله. انه ينمو على نحو لا يدرك، وفي ظل عدم الاعتماد على الذات، مع الرجاء بالله. لقد ذكرت هذا ببساطة، لأنني سبق ان اوردته في موضع آخر. وما قيل في نهاية الفصل السابق، في بذل الانسان لنفسه من اجل الله، قد سمح في المجال لذكره الآن. فالتسليم الكامل لله، هو تقديم الانسان نفسه قرباناً حياً لله.

ان البرهان على هذه الحالة، هو الموت عن النفس، عن الرأي الذاتي، عن الرغبات والمشاعر والمذاقات الغريبة عن الله، في انسجام تام مع ارادة الله، وشركة معه. وقد سبق لمخلصنا ان مارس ذلك، فسلّم ذاته بكليتها لله ونحن فيه: «لأننا اعضاء جسده من لحمه ومن عظامه» (افسس ٥ : ٣٠). لذا فلنسرع للسير على خطاه لأنه قدّم للهِ الآب قداسة من اجلنا (يوحنا ١٧ : ١٩)، على رجاء ان نكون هكذا، ونعمل هكذا.

لماذا قدمت هذه الذبيحة في النهاية وليس في البداية[١]؟ السبب هو ان التقدمة لله، ينبغي ان تكون كاملة وبدون عيب. الكمال يطلب في البداية، اما البلوغ اليه فهو امر لاحق. لكن عندما يتم البلوغ اليه، يكون من الممكن اذ ذاك، تقديم النفس ذبيحة وقرباناً. وفي الواقع يستحيل على الانسان ان يقدم نفسه قرباناً، قبل بلوغ الكمال. ان هناك تقدمات اخرى ممكنة قبل ذلك، كالمصالحة والتطهير والشكر، ولكن ليس التقدمة الحية الملتهبة. يمكن للمرء القيام بالمحاولة والتحدث عنها، ولكن يبقى كل هذا مجرد كلام، وليس فعلاً حقيقياً. فالفعل الحقيقي يتم بدون كلمات.

واعلم انه ما دمت مرتبطاً بأمر دنيوي، وما دمت ترتكز على امر

---

(١) راجع شرح القداس الالهي للقديس نقولا كاباسيلاس.

غير الله، وخارجاً عن نفسك، وما دمت تجد تعزيتك ومتعتك في ما هو مخلوق، فلست بعد صالحاً ان تكون ذبيحة حيّة. في الاول جاهد كي تنبذ كل هذه. دع كل اشكال الحياة تتوقف في داخلك، عدا واحدة فقط. بكلام آخر لا تحيا انت فيها بعد، بل دع يسوع يحيا فيك مع روحه القدوس. بعد ذلك قدّم ذاتك ذبيحة لله. وحتى يكون لك ذلك، قدّم لله روحاً منسحقاً، وقلباً متواضعاً مكسوراً، وكن راضياً بذلك الى حين، لا الى الابد. لأنك في النهاية ستجد نفسك مجبراً على بذل ذاتك لله بالكلية، كذبيحة حية محترقة.

الفصل (السابع)

في دفء القلب وبرودته وجفافه

دفء القلب هو ثمرة الشعور بالله، وبأي شيء الهي. ويَتولّد هذا الدفء، منذ لحظة العودة الى الله بالتوبة، واثناء القيام باعمال الندامة، بغية نيل نقاوة القلب. وينمو الدفء هذا تدريجياً. احاسيس الدفء تأتي متقطعة بين حين وآخر. ومع مرور الوقت، تصبح حالة دائمة في القلب.

جاء في كتابات القديس يوحنا السلمي: «ليكن شوقك دائماً من جهة الشعور بالله، وبكل الامور الالهية». بهذا يعني الدفء. انه كل شيء يحرّك في القلب فرحة تولّد فيه الدفء. ودفء القلب هو على انواع: دفء ينجم عن مؤثّرات روحية على القلب، وهذا ما يصير لنا في حياتنا الروحية. ومن سماته الاقلاع عن الامور المخلوقة، عندما يجتذبنا الله وكل الامور الالهية. ان دفء القلب سمة تختلف عن الحرارة الناجمة عن المشاعر النفسية والجسدية، وهو بعيد عنها بعد السماء عن الارض.

والاحساس بالدفء الروحي في القلب، هو بسيط، الاّ انه في جوهره ثمرة حركات روحانية عديدة مندمجة في ما بينها كشعاع النور المؤلّف من سبعة الوان الطيف المتداخلة في ما بينها. في الدفء خشوع ومخافة، انسحاق قلبي، سجود في الحضرة الالهية ابّان التعبد، وشوق لا حدود له، مع حب لا ينتهي. ولما كان من المستحيل ان تحل كل هذه الاحاسيس في القلب دفعة واحدة، لذا فالدفء القلبي ينمو فينا تدريجياً. ولكي يكون الدفء هذا، حالة دائمة في القلب، تجيء وتروح، فهي اما انها تأتي من تلقاء ذاتها، بفعل افتقاد الهي، او انها

تكون ثمرةً رياضات روحية (مطالعة، تأمل، صلاة، اعمال نكران للذات، واعمالاً اخرى حسنة). الاّ انها تُهدر، بشرود الذهن عن الروحيات، منجذباً الى هوى القلب في الامور غير الروحية التي تجذبه ويتلذذ بها. فأمور كهذه، من شأنها ان تخمد الدفء القلبي، كما تخمد الماء النار.

فهل ترغب بالمحافظة على هذا الدفء الروحي فيك؟ انتبه اذن الى الامور التالية:

١ - ركّز انتباهك في قلبك، وقف فيه للصلاة الى الله، دون ان تسمح لأفكارك بالشرود، لئلا يتشتت ذهنك ايضاً.

٢ - لا تجعل ثمة ما يجذبك من الامور النفسية والجسدية، ولا تسمح لها بالدخول الى قلبك. انما بادر الى قطع كل الاهتمامات الدنيوية، وكل صنوف الازعاج، منذ البداية.

٣ - كن حاراً في ارضاء الله على الدوام، فتخلص نفسك. اما في الامور الخارجية، فراعِ ما يمليه عليك ذهنك، ووجّه كل شيء نحو الهدف الاسمى والاساسي. وعندما تتأمّل في ايٍ من الامور، لا تدع ذهنك ينشغل بسواه. واود ان اقول انه اذا اختبرت هذا الدفء، مرة واحدة، لا يعود من الممكن ان تهمل الشوق اليه، بل سترغب في الاحتفاظ به على الدوام. وهكذا سترغب في استخدام كل الوسائل الناجعة بغية نيل هذا الغرض. وعندما تستخدمها، ستتعلّم من ذاتك، ما هو افضلها وانجعها.

وان قمت بهذا العمل، جيداً، سيكون الدفء الروحي مرشدك الأكيد والمضمون، فتتعلم منه كيف تتحكم بحياتك الروحية، وكيف تسلك في الشؤون العامة، وكيف تضبط مسلكك كي تحتفظ بهذا الدفء.

وكما ان الدفء الروحي في القلب يستتبع عذوبة مطلقة، هكذا فغيابه، يجعل القلب في وجع لا يطاق ولا يحتمل. وقد قيل قديماً بان

الدفء الروحي يغادر القلب، حين يحيد القلب واليقظة عن الامور الروحانية، وينزع الى ضدها، والتي قد تكون اموراً غير خاطئة. فمن سبق ان ذاق الدفء الروحي، لا يعود ينجذب الى الخطيئة، وهنا اعني ما يدخل في نطاق النفس والجسد من امور الدنيا وتفاهاتها. فما ان ينزع القلب الى هذه الامور، حتى تتناقص فيه الحرارة والدفء. الاّ انه عندما ينجذب اليها، فهذا يعمل على تلاشي الدفء القلبي بالكلية، مخلّفاً وراءه برودة تجاه الروحيات، مقرونة بشيء من اللامبالاة تجاه الاعمال والواجبات الروحية التي نمارسها عن قصد، بغية الاحتفاظ بهذا الدفء. فالانسان اذ يستجمع ذاته تواً، ويسارع الى ما ينتج عنها مثل هذا الدفء. فان الدفء يعود، وبسرعة. اما اذا تقاعس، وتشتّت، فان ذهنه يُسلب كونه اعتمد على ذاته. وقد يحصل ان تتراخى النفس لا سيما عندما يقدم المرء على ارضاء الهوى غير الروحي الذي انتصب لدى التصميم على الحياة لله، عندها ستخبو الحماسة الروحية، ان لم نقل ستموت. والحالة الاخيرة هذه، تسبق السقوط في الخطايا القديمة المألوفة. اما اذا استجمع الانسان ذاته، فلا يعود يستصعب العودة الى الحالة الروحية، حتى من هناك.

هذا هو السبب وراء البرودة. انها غلطتنا. فالبرودة تنجم عن قلة الحرص واليقظة على الذات. وهذا يحصل، إما بداعي تأثير البيئة الدنيوية، وما يتصل بها، عندما تأخذ اباطيل العالم لب الانسان فتسلبه ذاته، واما هي بداعي خداع العدو، الذي يبتكر ما يلزم من الوسائل، كي يحمل المرء على مبارحة ذاته. وكثيراً ما ينجح، عندما يستحضر صوره الخداعة، فيستميل بها الجسد على نحو ما. لكن مهما كان السبب، يبقى ان عمل البرودة والفتور، يبدأ بعد تخلي القلب عن اليقظة. ويكون استخدام البرودة هذه، من اجل استمالة القلب الى ما هو باطل، شهواني وخاطئ. وفي كل الاحوال تبقى الخطيئة منوطة بالانسان اذ لا العالم ولا الشيطان، يقدر ان يقتحم الحرية الانسانية. ما هو ممكن فقط، ان تتعرض هذه الحرية للتجربة.

كثيراً ما يكون الفتور من عمل النعمة الالهية. فالدفء الروحي في القلب هو من ثمار حضور النعمة فينا. بمجيء النعمة، يلتهب القلب. وبذهابها، يخبو ويبرد. النعمة كثيراً ما تتخلّى عن الانسان عندما ينجذب الى الخطيئة. في هذه الحالة تسمى (فتوراً قصاصياً). كثيراً ما تنسحب من تلقاء ذاتها لمساعدة رجال الله في تقدمهم الروحي، وفي مثل هذه الحالة يدعى الانسحاب (بنّاء)[1]. لكن في الحالتين تكون النتيجة ذاتها: فتور وبرودة في القلب، فالضيف والزائر قد ادبرا. والفرق بين الامرين، هو ان الفتور عن اثم او خطيئة، من شأنه ان يضعف الحماسة الروحية، أما الفتور الناجم عن انسحاب النعمة، فيلهبها كثيراً، وهذا من دواعي الانسحاب. النعمة الالهية تنسحب من تلقاء ذاتها، بهدف البناء، وذلك للاسباب التالية:

١ - لكي تقوّي الحماسة التي تتعرض للفتور بفعل سكون طويل الامد.
٢ - لكي يدرس الانسان امره بدقة، فيرفض الاهتمامات التي لا تتصل بالسيرة المرضية لله ولا تقود اليها.
٣ - لكي تقوّي فينا الاحساس بأن الخير الذي فينا، هو من ثمار النعمة الالهية.
٤ -لكي تجعلنا اهلاً لتقدير هبات الله المقبلة، فنحتفظ بها بتواضع كثير.
٥ -لكي ترشدنا الى التسليم باخلاص للهبات الالهية، مع انكار تام للنفس واحتقار لها
٦ - لكي تثبتنا في الالتصاق بالافراح الروحية نفسها، فلا ينقسم قلبنا، فالله يريدنا ان نلتصق به فقط.
٧ - لكي تحول دون توقفنا عن الجهاد عندما تباشر النعمة فعلها فينا، فلا نتغافل في درب الله، انما نروّض قوانا الممنوحة لنا من الله كي تكون في الخط المرسوم لها.

ولو ان الفتور هو نتيجة لانسحاب النعمة، تبقى انت السبب في هذا. فانسحاب النعمة تم بارادتها، اما انت فعندما تشعر بالفتور تجاه

---

(١) constructive

الامـور الروحيـة وكل الاشيـاء الالهية، فبـادر الى الدخـول الى اعماق نفسك، مدققاً في سبب ما حصل لك. فان وجدت انها غلطتك، فبادر الى محوها، ليس لأنك مشتاق الى الافراح الروحية، انما لأنك تريد ان تبدّد كل ما هو لابليس فيك، وذلك لأنك راغب في ارضاء الله. وان لم يكن شيء من هذا، فسلّم الامر لارادة الله، وقل في نفسك: هكذا شاء الرب، لتكن ارادتك فيّ يا رب، فانا ضعيف وغير مستحق. اصبر على نفسك مجاهداً، كي لا تحيد عن نواميس الحياة الروحية. فالذي هاجمك يريد ان يحضّك على ممارسة ما لا يرضي الله. الاعـداء ستسعى كي تقنعك بأن جهاداتك عديمة النفع. اشرب هذا الكأس برغبـة، وانت تقول للرب: «انظر الى تواضعي وجهادي ولا تبعد عني رحمتك». لتكن هذه الجهادات ملهمة لك بالايمان، بأن الكأس هذه هي من حب الله، فالله يريدك ان ترنو وتصل الى كمال روحاني اكبر.

اسلك بسرور درب خطوات الرب على ثابـور، وعلى الجلجلة. اي ليس حينما تشعر بالنور الالهي والبهجة الروحية العذبة في داخلك فقط، انما ايضاً عندما تهاجمك الهموم والاحزان والضيقات التي تعرفها النفس ساعة الشدة والتجربة، داخلياً وخـارجياً معـاً. ولو ان البرودة هذه اقترنت بما لا تعرف كيفية العمل فيه، فلا تخف، بل اثبت حيث انت، حاملاً صليبك. اقص عنك كل تعزيات الدنيا التي يختارها الجسد، ويوحي بها العدو. جـاهد كي تخفي تعبـك عن الناس، ولا تحدثهم عنه، انما بادر الى كشفه لأبيك الروحي، ليس بدافع شكواك من الضيق، انما لكي تلتمس منه النصح الى كيفية تحاشي المتاعب لاحقاً، فتحتملهـا برضى وفـرح، الى الوقت الـذي يشـاؤه الله. واظب عـلى الصلوات والمناولة والرياضات الروحيـة الاخرى، كـالعادة، ليس من اجل الافراح المتولدة عنها، ولا من اجل الـرغبة بـانزال الصليب عن ظهرك، انما لكي تنال قوة تبقى بفعلها مصرّاً على حمل الصليب برضى وفرح، من اجل مجد المسيح المصلوب عنا، كي نعيش وفق ما يرضيه. وان كانت حالتك لا تسمح بالصلاة احياناً، وكنت تتعب امـام نقاوة

الافكار، فكما فعلت سابقاً تجاه بلبلة الافكار، اعمل ما هو بوسعك ما دمت نشيطاً وغير كسول. وما ينقص في التنفيذ يصبح لك وكأنه عمل تام، بداعي رغبتك وجهادك. ابق على هذا المنوال، وسترى الثمار العجيبة، مع قوة وحيوية تملأ قلبك ونفسك.

وها انا الآن اسوق مثالاً على كيفية دعوة الله في تلك الاوقات العصيبة: تضرّع الى الله قائلاً: لماذا انت قوساء يا نفسي، ولماذا الانين؟ تضرعي الى الله لأني احمده..» (مزمور ٤٣ : ٥). «يا رب لماذا انت بعيد؟ لماذا تحتجب ساعة ضيقتي» (مزمور ١٠ : ١)». «لا تتركني يا الهي ولا تتخلى عني» (مزمور ٣٨ :٢١). تذكّر قول سارة زوجة طوبيا المحبوبة: «هذا هو يقين كل الذين يعبدوك، فمن يحيا في تجربة، يتوّج. ومن احاطت به الشدة، يخلص...» (طوبيا ٣ : ٢١ - ٢٣).

تذكّر المسيح ربنا الذي بآلامه احس ان الاب قد تركه في الجثمانية. فعندما تحس وكأنك مصلوب.، فاصرخ من كل قلبك: «لتكن مشيئتك يا رب...» (متى ٢٦ : ٣٩). فان فعلت هكذا ترتفع صلاتك الى الحضرة القدوسة، وتحس انك ممتلىء حباً قوياً، واستعداداً ملتهباً لحمل صليب الآلام والسير وراء الرب في الدرب التي يختارها، وهذه حياة حقيقية في الله. فطلب الله والرغبة به، والاشتراك معه في الدرب، الى الحد الذي يشاء، هي الحياة الحقيقية. فالذين يلجون الحياة بهذه العزيمة، لا ينكسرون امام الصعاب والتجارب، ولا يكون فتورهم بدون فائدة، ولا يتأفّفون ساعة الضيق والتجربة، او ساعة الفتور والجفاف، انما يقبلون كل شيء بفرح وشكر، على ان فيه ارادة الله، وانه لمنفعتهم، فلا يبالون بشيء، بل يجدّون لارضاء الرب مدقّقين في الامور البنّاءة بحماسة عظيمة ونكران للذات اكبر.

ويحدث عندما تفتر النفس وتبلغ حالة البرودة وعدم الاحساس الروحي، ان يهاجمها العدو بضراوة عبر الافكار الشريرة والمؤثرات المختلفة والاحلام، وكل ذلك بهدف زرع اليأس في القلب بحجة أن الله قد تخلى

عن الانسان، وهكذا يبلغ مـرحلة التوقف عن الجهـاد، وينجذب الى هوى استطاع العدو شدّه اليـه. فاذا قُـدّر لك ان تـدرك ذلك، قف بثبات، ولا تخشى هدير الاثم حول ابواب قلبك. بادر الى الاشمئزاز من الخطيئة كما هو عهدك سابقاً. وكن على يقين ان سفينتك الصغيرة ستظل في سلام. النعمة الالهية سحبت تعزياتها منك، الا انها واقفـة بجوارك ترقبـك وتفرح لجهـادك، فهي لا تدعـك بلا سنـد ما دامت ارادتك تنزع نحو الخير. لهذا تمسّك جيداً باليقين ان العاصفة هذه ستعبر سريعاً. آمن ان ذلك كان لمنفعتك. فانت ان استطعت ان تحتمل دقة التجربة، ستخرج بمعرفة ادق لضعفك. وسـوف تدرك تـواضعاً اكبر، وقناعة اشد، بأن الله دائم الاستعداد الى المعونة، وهو قـريب منك، ومستعد لشد ازرك. لقد اتيح لي المجال ان اكلمك عن هجمات كهذه العاصفة يشنها العدو ضدنا. فما عليك، الاّ ان تطالع ما كتبت.

الفصل الثامن

في حراسة الضمير وفحصه

استعمل يا أخي كل الوسائل كي تحفظ طهارة ضميرك في الأقوال والأفكار والأفعـال. ليكن ضميرك على الدوام غير ملوم، فلا تسمح له بتبكيتك أو تأنيبك على أي شيء. وإن عملت هكـذا، فان ضمـيرك سيترسّخ في سائر الأمور الداخلية والخارجية أيضاً، ويصبح بذلك سيّداً على حياتك يحميها ويدير شؤونها على نحو جيّد. فالضمير الطاهر يجعل حياتك عديمة العيب وغير ملومة لأنه ينزع إلى الخير ويمجّ الشرّ. الضمير هو ناموس الله المغروس في قلوب النـاس يساعـدهم على إنـارة سبيل حياتهم، ويرشدهم إلى الصراط القويم كما علّم بولس الرسول: «عمل الناموس مكتوب في قلوبهم» (رومية ٢ : ١٥). وعلى قاعدة هذا القول يقدّم القدّيس نيلوس النصيحة التالية: «في كل شؤونك، اقتفِ إرشاد ضميرك لأنه سراج ينير».

ثمّة أمور أربعة ينبغي أن تصون ضميرك فيها:

١ ـ علاقتك بالله

٢ ـ علاقتك بنفسك

٣ ـ علاقتك بأنسبائك وجيرانك

٤ ـ وعلاقتك بكل ما هو في متناولك.

أنت تعرف هذا، إلاّ اني سأذكّرك بالأمور الأكثر أهمّية:

١ ـ علاقتك بالله

واظب على ذكر الله، واسلك دائماً في حضرته. انتبه إلى نفسك، فقوّة الله هي التي تحملك وتحبك وتحميك. اسلك نحو هذا الهدف، فمن أجله دعاك إلى الوجود[(١)]. كرّس نفسك وكل ما عندك لخدمة الله ومجد اسمه. عش فيه، ثق به، وسلّم له كل أمورك، الزمنيّة منها والأبدية.

٢ ـ علاقتك بنفسك

كن منصفاً مع نفسك، وأعطها حقّها ممّا في وجودك. اجعل روحك الطامحة إلى الله تحكم على جسدك ونفسك، فقد أناط الله بهما دوراً في الحياة الزمنيّة. درّب نفسك على طاعة ما يمليه الروح، وكن منصاعاً للحق المعلن من الله. بهذا تسلك في كل شيء، فتحفظ مشيئة الله وتدبير وصاياه. لا تدع نفسك تشرد إلى ميولها ونزعاتها. واعلم ان قلبك لا يجد عزاءه إلاّ في الإلهيات، وفي كل ما يحمل طابعاً إلهيًّا أو يعبّر عنه. بهذه الروح دع نفسك تسوس شؤونها العامة والخاصة في الحياة. اعط جسدك حاجته، جاعلاً للأمر مقياساً وكن حازماً حسب قول الرسول: «لا تصنعوا تدبيراً للجسد من أجل الشهوات» (رو ٨ : ١٤).

٣ ـ علاقتك بأنسبائك وجيرانك

احترم الجميع، ففيهم صورة الله. اطلب الخير لهم مبادلاً الجميع بالخير، قدر المستطاع. اتّضع أمام الجميع طالباً رضى الجميع في حدود الخير. افرح مع الفرحين، واحزن مع الحزانى. لا تدن أحداً، ولا تحتقر أحداً، لا بالفكر ولا بالشعور. لا تحجب الحق إن كنت تعرفه، عن الذين يسألونك النصح والإرشاد. لا تفرض نفسك على أحد، كما لو كنت معلّماً من تلقاء ذاتك. وفوق كل هذا، احتفظ بالسلام والوفاق مع

(١) نحن في الوجود لا لنأكل ونشرب وننجب ونجمع المال ونطلب المجد والشهر. ان هذه كلها هي تفاهات يعلق بها ابناء الدنيا.

الجميع، مستعدًّا لكل بذل وتضحية من أجل هذا الهدف. انتبه كل الانتباه في أن لا تضلّ أحداً.

٤ - بالنسبة للأشياء

احترم كل الأشياء على انها خليقة الله. استعملها وصنها لمجد الله. ارض بما لك، واشكر الله على ذلك. لا تلتصق بأي شيء، ولا يعلق قلبك بشيء يعيقه عن الحياة مع الله. اعتبر أشياء العالم أموراً خارجية، ومجرّد أدوات، وذلك كي تنعتق لدى تعاطيك بها، فلا تكبّلك وأنت في الدرب الصحيح. لا تسمح لذاتك بالاتكال على هذه الركائز الضعيفة (القابلة للكسر). لا تتباهى بما تملك. لا تحسد الآخرين على ما يملكون. تحاشَ تكديس الأموال وروح الامتلاك. لا تضلّ في الأمور غير الصالحة. على كل إنسان أن ينتبه لهذه كل يوم بشكل أو بآخر، عند كل محطّة وخطوة. وإن كنت[1] تعيش باستقامة، فهذا يجعل ضميرك صالحاً، فتتشبّه بالرسول بولس (عبرانيين ١٣ : ١٨). ان الذين يرغبون أن يحيوا باستقامة وهم غيارى على الخلاص، يسلكون كما قلت، مجاهدين كي لا يخطئوا في أي من هذه الأمور، فيبقى ضميرهم غير ملطّخ. لكن رغم جهاداتهم، تنسل أفكار ومشاعر خاطئة وكلمات خاطئة، وأعمال خاطئة، فلا يلاحظونها، وأحياناً يرونها، فيتغطّى بالتراب وجه الضمير النقي. حتى انه في نهاية اليوم، قلّما ينجو أحد من نتائج ذلك، على مثال المسافر الذي يجتاز طريقاً يعجّ بالغبار، فيمتلئ أنفه وعيناه وفمه وشعره بالتراب، ووجهه أيضاً. فالذي يحنّ إلى الخلاص، لا بدّ له من فحص الضمير عند المساء، ليرى الأمور الخاطئة التي أقرّت بها أفكاره مع كل الكلمات والأفعال الأخرى، فيغسلها كلّها بالتوبة. فهو يحذو حذو المسافر الذي علق به التراب. المسافر يغسل وجهه بالماء، أمّا الأول، فيغتسل بالندامة والانسحاق والدموع.

وفحص الذات لا بدّ أن يشتمل على التدقيق في كل الأمور، الصالحة منها والرديئة، الجيّدة والخبيثة، ومن كل الجوانب، كما بيّنت سابقاً. فإن رأيت أمراً صالحاً، بحدّ ذاته، انتبه لترى إذا كان صالحاً من

جهة الانطباعات والأهواء والنيّة. وأيضاً ينبغي أن يكون صائباً من جهة طريقة ممارسته وموقفك منه بعد إتمامه، وذلك لترى إذا كان قد جرى تحت تأثير ما، من أجل منفعة الناس، أو بداعي التساهل والإشفاق على الذات. دقّق أيضاً في ظروف إنجازه، كي لا تكون كمَن ينفخ بالبوق أمام نفسه فيتمجّد من ذاته دون أن يمجّد الله. العمل الصحيح، صحيح هو، إن كان قائماً على الطاعة لمشيئة الله ومجده، مع رفض للذات، ونسيانها.

وإن عثرت على أمر معوجّ سبق أن قمت به، دقّق في سبب اقترافه عندما تكون راغباً في القيام بعمل سليم. يكفي أن تعرف البواعث الداخلية والخارجية التي أودت إلى ذلك، وكيف ستحكّم نفسك كي لا تخطئ، ولماذا لم تقم بالأمر الموافق في حينه دون أن تنزع إلى ملامة الآخرين أو تعزو السبب إلى أمور مختلفة، فقط إلى نفسك. فكّر كيف ينبغي أن تسلك في ما بعد كي تتجنّب الوقوع في الخطيئة في كل الظروف. اجعل لنفسك ناموساً، قانوناً، ونفّذ ما عزمت عليه بدون شفقة أو تساهل مع الذات. وهكذا تستطيع أن تستخدم الأمور غير النقيّة كي تنمّي بستان قلبك. وبعد كل هذا، ارفع الشكر لله من أجل الأمور التي رأيتها سليمة وصائبة، دون أن تنسب أيًّا منها لنفسك. تذكّر كلام الرسول: «لأن الله هو العامل فيكم، أن تريدوا وأن تعملوا» (فيلبي ٢ : ١٣)، «بدون الله لا تقدرون أن تعملوا شيئاً» (يوحنا ١٥ : ٥). لذا بادر إلى رفع الشكر لله و«امتد إلى ما هو قدّام» (فيلبي ٣ : ١٣). أمّا من جهة الأمور غير الحسنة، فتب عنها أمام الله، وبادر إلى ملامة نفسك، فالقربان الذي قدّمته لله، لم يكن نقيًّا، بل امتزجت به الشوائب. صمّم على مراقبة نفسك في اليوم التالي ، ولا تسمح لأي خطأ بالدخول إليك في القول والفعل والفكر. فالذين يتيقّظون، يفحصون ذواتهم يوميًّا، وفي المساء يكون فحص الضمير مجرّد استرجاع لنشاطات اليوم المنصرم، وذلك بقصد التحسين والتقويم. ألا ترى ان السبيل الآخير حسن، فأنت بذلك تجعل الضمير عارفاً بكل شيء.

والضمير سيضطرب إذا لمح خطأ ما. وهكذا فانه سيسكن ويهدأ، بفعل ملامة النفس، فالرغبة بالسيرة الحسنة لاحقاً، خير من تأجيل الأمور حتى المساء.

وأريد أن أضيف بضعة كلمات على هذا الموضوع: بادر إلى فحص نفسك بحزم شديد وباحثاً عن أسباب كل أعمالك، واحكم على نفسك بدون هوادة. وكلّما توغّلت في ما يحدث فيك، أو يصدر عنك، تحذف الأمور الخاطئة، وتثبت الحسنة، فتسرع أكثر في تنقية ضميرك، تماماً كما ان الماء الأطيب هو في البئر الأعمق. وعندما يتعلّم الضمير ما هو صائب وما هو منحرف، لن يطلب إلاّ تلك الحسنة، مشمئزًّا من السيئة. ولكن البلوغ إلى التمييز بين هذه وتلك (عب ٥ : ١٤) يستوجب عينين ترى. وقبل ذلك، يكون الضمير معتمدا على قوى النفس الأخرى، لا سيّما قوّة العقل. ولكن العقل نفسه يمكن أن يُسلَب ويُرتَشى قبل أن يكون القلب قد بلغ النقاوة والتطهّر من الأهواء. فالعقل ينزع، قبل نقاوة القلب، إلى المبرّرات، التي من شأنها أن تحجب عين الضمير وتضلّلها فتأخذ الأبيض بالأسود والعكس. فما دمت تجاهد ضد الأهواء، فعند فحص الذات، بادر إلى وضع كل أعمالك أمام مرآة كلمة الله، واسترشد بها في تقرير نوعيّة أعمالك وقيمتها. لا تتوان أو تخجل من زيارة أبيك الروحي لأكثر من مرّة.

بادر إلى فحص أعمالك والانتهاء منها بصلاة حارّة، طالباً من الرب أن يهبك عينين تبصران أعماق القلب «فالقلب خدّاع...» (ارميا ١٧ : ٩). الله وحده فقط هو الأعظم من قلوبنا (١ يوحنا ٣ : ٢)، فهو وحده فقط عرف قلوب الجميع (١ ملوك ٨ : ٣٩). هناك مشاعر خاطئة متجذّرة في القلب[1]، وكثيراً ما تنسلّ إلى أعمالنا دون أن نلاحظها، فتفسد كل شيء، بدنس الخطيئة. لذا صلّ مع داوود قائلاً: «من الخطيئة الدفينة أشفني» (مزمور ١٩ : ١٢).

---

(١) راجع باب القلب في كتاب «اليقظة والصلاة».

الفصل التاسع

في الاستعداد للمعركة ضد العدو في ساعة الموت

ورغم ان حياتنا على الارض كلها حروب، ورغم انه يتوجب علينا الجهاد في هذه الحروب، وحتى النهاية، يبقى ان المعركة الاساسية والاكثر خطورة، هي التي تتربّص بنا ساعة الموت. فمن سقط في تلك اللحظة، قد لا ينهض ابداً. لا تنذهل من ذلك، فالعدو تجرّأ على ربنا نفسه الذي لم يكن فيه خطيئة، فجرّبه في نهاية ايامه بالجسد على الارض «رئيس العالم هذا، آتٍ وليس له علي شيء» (يوحنا ١٤ : ٣٠). ترى ما الذي يمنعه من الهجوم علينا في نهاية عمرنا؟ في هذا يقول القديس باسيليوس الكبير لدى تفسيره مزمور (٧): «لئلا يفترس كأسد نفسي ويهشمها وليس من منقذ» (مزمور ٧ : ٢). ان اكثر المقاتلين بأساً وقوة، المجاهدين ضد الشيطان طوال حياتهم، وقد نجوا من حيله والاعيبه وصدوا هجماته، تعرّضوا في نهاية عمرهم لتجربة من رئيس هذا العالم، وذلك ليقوم بآخر محاولة له ضدهم، فقد يكون شيء من الخطيئة ما زال عالقاً فيهم، ويستطيع به ان يقهرهم في اللحظة الحاسمة. فعندما لا يجد مبتغاه فيهم، يفشل، فيعبرون الحرب بسلام، ليصلوا الى الراحة مع الرب[١]. وما دام الامر هكذا، فيستحيل إبعاد الحرب عن مخيلتنا، انما ينبغي الاستعداد لها قبل الاوان، وحتى ساعة الموت، فنعبر بنجاح. ينبغي ان تكون الحياة كلها استعداداً لهذه اللحظة. عليك ان تُثبت استعداداً لائقاً في تلك الساعة. وان كنت في حياتك الارضية قد جاهدت بشجاعة ضد اعداء خلاصك، فمن الاكيد انك اكتسبت تقنية

(١) انتهى قول باسيليوس

تتغلب بها عليهم، فتنال الاكليل بيسر وسهولة، في ساعة الموت.

اضف الى ذلك، انه يجب ان تفكر بالموت على الدوام، بيقظة وصحو، وتسترجع في ذهنك كل ما سيصيبك في تلك الساعة. وان عملت هكذا، فالساعة لا تفاجئك، ولا تخيفك، او اقلّه لن ترعبك كثيراً. نفسك لن تضعف بالجزع، انما ستبدي متانة وثباتاً في الجهاد من اجل النصرة على العدو. ابناء العالم يمجّون تذكّر الموت ويأبونه، وذلك لأنهم لا يودّون الاقلاع عن التمتع بالمباهج الحسّية التي ليست على وفاق مع ذكر الموت. الامر الذي يجعل تعلقهم بأباطيل العالم ينمو ويزيد على نحو لا يعود معه بالامكان صدّه. لكن عندما تحين ساعة الفراق، والانفصال، عن كل امور العالم الذي احبوه وارتبطوا به، يسقطون ضحية الرعب والفزع والقلق.

ولكي يأتيك ذكر الموت بثماره، عليك ان تجعل نفسك في مكان من يحتضر ساعة الموت ويختبر الضيق والالم والسكرة الاخيرة. عليك ان تستحضر لنفسك تجارب العدو حية، والتي بها سيهاجمك. ولا تنسى ايضاً الافكار والمشاعر التي ستحملها امام رهبة تلك اللحظة. وانا سوف افسر لك كل قتال العدو المحتمل ضدك وادلّك على السبل التي تصده بها، ما دمت على قيد الحياة. فيمكنك الافادة منها عملياً عندما تحين ساعة الموت. الحرب هذه لا تأتي الاّ مرة، ولا بد منها. وعلى المرء اتقان كيفية الوقوف فيها، للحرب، بمهارة، كي لا يخطئ ويزلّ. لأنه اذ ذاك، سيفقد ما لا يمكن تعويضه واسترداده.

الفصل العاشر

التجارب الاربعة الآتية من العدو في ساعة الموت: التجربة الاولى هي ضد الايمان. ما هي السبل للنصرة في هذه التجربة؟

التجارب الرئيسة الخطيرة التي يحاربنا الشيطان بها ساعة الموت، هي:

١ - زعزعة الايمان

٢ - القنوط

٣ - المجد الفارغ

مع تخيلات مختلفة يظهرها للمحتضرين:

التجربة الاولى:

عندما يبدأ العدو بزرع الشك فيك، او يكلمك وهو في صورة منظورة، ضد الايمان، فلا تناقشه ولا تحاججه، انما رسّخ الايمان الذي يهاجمه، وبادر الى القول بهزء، له: أبعدْ عني يا شيطان، فانت اب الكذابين. انا لا اريد ان اصغي اليك. ايماني من كل القلب، هو ايمان الكنيسة المقدسة نفسها. هذا يكفي. لا تضف على ذلك شيئاً، بل اثبت حسب قول الكتاب: «ان قامت علي روح التسلّط فلن ابارح مكاني» (جامعة ١٠: ٤). تيقّظ وانتبه مواظباً على يقظتك. فهذا ليس سوى حيلة شيطانية. فالشيطان يريد ان يضلّلك في ساعة الموت. وان عجزت عن الوقوف والصمود بيقظة، فحاول ذلك في ارادتك ومشاعرك. لا

تسمح للاعداء بالايحاء اليك، فقاتل النفوس يعمد الى الكتاب المقدس يتستّر به للايقاع بك. وهو يعمل ذلك، كي يودي بك الى خسارة نفسك بفعل تفسير مغلوط، وتحريف للحقيقة الكامنة في كلمة الله. وان سألتك الافعى عن فحوى تعليم الكنيسة وايمانها، فلا تجيب، ولا تكترث الى هذه الكلمات، بل تجاهلها تماماً، فهي مكر وكذب وغش، فالشيطان همّه ان يضلل افكارك. تأمّل في عمق الايمان الذي فيك، وان شعرت انك راسخ عليه، وتريد اذلال العدو، فقل: الكنيسة تؤمن بما هو حق. وان عاود الكرّة: وما هو الحق؟ قل له: الحق هو ما نؤمن به. انه الصليب الذي به سحق الرب رأس الشيطان وبدّد قوته. وعند ذلك اجعل عينيك على صليب المصلوب وقل: «يا الهي، يا خالقي ومنقذي، بادر الى معونتي، ولا تدعني أتداعى من الايمان بك، فانا بحبك العظيم قد ولدت في هذا الحق. فهبني ان اتمسّك به كي تنتهي حياتي الى مجد اسمك القدوس.

الفصل الحادي عشر

التجربة الثانية:

اما التجربة الثانية التي يشتاق العدو الى كسرنا بها، فهي الجزع لدى رؤية هول خطايانا. والجزع هذا لا يمكن تحاشيه، وكثيراً ما يرتبط به شيء من شك بعقيدة الخلاص من الخطيئة، بقوة صليب الرب. فالعدو يثير فينا الجزع امام خطايانا، وذلك كي يطفئ كل امل لنا بالخلاص، ويحطمنا بقطع الرجاء وبالقنوط. لذلك اعددْ نفسك قبل الاوان لمثل هذا الهجوم. وقرر التمسّك بالرجاء، من الآن، حافظاً في داخلك الثبات في الايمان بقوة الفداء الذي تم بموت الرب على الصليب. وان كنت تختبر هجوم قطع الرجاء، فبادر الى التفكير ان هذا كله من العدو، وليس نتيجة لكثرة ذنوبنا ومعاصينا. ان هذا الموقف يجعلك تتضع وتنسحق، ويغمرك الحزن بأنك قد احزنت الرب الرحوم. لذا فرغم ان التجربة هذه تأتي بالجزع، الاّ انها لا تقوى على تبديد الرجاء بمراحم الله، فالرجاء يولّد ثقة قوية بالخلاص. لذا بادر الى ابعاد كل رفض من قلبك، فتذكّر الخطايا قد يودي بك الى الضيق واليأس. وكثيراً ما يكون تذكّر الخطايا سبباً لضرب الرجاء. لذا فعندما تتنبّه لذلك، لا يعود من الصعب عليك التمسك بالرجاء. الرجاء يؤهلك الى التأمّل في عمق مراحم الله اللانهائية، فالله وهبنا ان نتخلى عن الخطايا وهو يريد خلاصنا، لا هلاكنا. اما القاعدة التي عليها يتقوّى هذا التفكير، فهي على الدوام، قوة موت ربنا ومخلصنا على الصليب التي لا حدود لها. علينا دائماً ان نطلب العون من هذا الصليب، فالطلب واجب، لا سيما ساعة الموت. واليك الآن صلاة ترفعها عند ولوج عتبة

الموت: «ربي، كثيرة هي بواعث جزعي، فأنا لو تلقيت معاملة عادلة، سأكون مذنباً. . . إلاّ ان رجائي القوي بغفرانك، حسب كثرة مراحمك في ابنك يسوع المسيح، هو الـذي يدفعني الى التضرّع كي، تبقي لي صلاحك اللامتناهي، انـا المخلوق البائس والمسكـين. فرغم ذنـوبي، غسلني دم ابنك الوحيد الهي، كي امجدك الى الابد. ها انـا استودع روحي بين يديك. عاملني برحمتك، فانت وحدك سيد حياتي.»

الفصل الثاني عشر

التجربة الثالثة:

اما التجربة الثالثة في ساعة الموت، فهي المجد الفارغ الذي يحاربنا به العدو، كي يعتمد الانسان على نفسه واعماله. لهذا لا تكترث لها. لا تكترث الى نفسك واعمالك ساعة الموت. لا ترضى عن نفسك واعمالك، حتى ولو كان تقدمك يفوق تقدم القديسين. لا ترضى الاّ بالله، جاعلاً رجاءك برحمة وآلام يسوع المسيح. كن صغير الشأن بعيني نفسك، حتى الرمق الاخير. ان راودتك افكار اعمالك الحسنة، فكّر في ان الله هو الذي انجزها فيك، فهي ليست منك، بل يجب ان تُنسب له. تمسّك بالعناية الالهية دون ان تعتبرها ثواباً لك عن جهاداتك التي احتملتها، والنصرة التي فزت بها. قف امام الله بمخافة واقتناع نقي ان جهاداتك باطلة وعديمة الثمر لولا اجنحة الله التي رأفت بك واعانتك على اعمالك. لذا اجعل ثقتك ورجاءك برأفته ورحمته.

وان سلكتَ بمقتضى نصيحتي، فانك ستبطل هجمات العدو ساعة الموت، فينفتح لك سبيل تعبر عليه من الوادي الدنيوي، الى اورشليم السماء، المكان الذي تصبو اليه نفسك.

الفصل الثالث عشر

التجربة الرابعة:

عدونا اللجوج، لا يمل من تجربتنا، وهو يحاول ان يضلك ساعة الموت بخيالات وضغوطات، او قد يتحوّل الى ملاك من نور. فوطّد نفسك على ضعفك، وعلى انك لست شيئاً ابداً. قل له بجسارة وبلا جزع: «عد ايها الملعون الى عتمتك، فانا غير جدير بالرؤى والاعلانات. انا بحاجة الى امر واحد هو حنان الرب يسوع، وصلوات القديسين مع مريم والدة الاله». وحتى ولو كان هناك ما يجعلك تشعر بوجود رؤى حقيقية من الله، فلا تسرع الى اقتبالها، فخير لك ان تتمسك بعدمك وعدم جدارتك. لا تظن انك تسيء الى الله بعملك هذا فالمشاعر المتواضعة، لا تغضبه. وان كان هناك ما يدعو الى هذه الرؤى، فالله يعرف كيف يجعلك تنظر اليها. فالمتواضعون امامه غير مرذولين. ابليس يستخدم ضدنا مثل هذه الاسلحة ساعة الموت، كما ويستخدم ايضاً اي هوى آخر، سبق ان عانى المرء منه في حياته، فيحاول ان يخدعه به، كي يجعله يترك الحياة، حاملاً الهوى معه. لذا ينبغي ان نتسلّح بالشجاعة لصد اقوى واعنف اهوائنا، قبل مجيء موعد المعركة الاخيرة، وذلك كي نغلب ونفوز وننقي سيرتنا. فربما تأتي المعركة في اي وقت. اما انت فتمسّك بقول الرب: «حاربهم حتى يبيدو» (١ صموئيل ١٥ :١٨).

الفصل الرابع عشر

السلام الروحي في القلب

الله يا عزيزي خلق قلبك لغرض واحد هو ان يحب الله وحده ويخدمه، لأنه موضع سكناه. لهذا يقول لـك: «يا بني اعـطني قلبك» (امثال ٢٣: ٢٦). وما دام الله سلاماً يفوق كل عقـل، لذا فـلا غنى للقلب الراغب في اقتبال الله، عن السـلام والتحرر من كـل ازعاج. فمكان القلب في السلام فقط. كما يقول داوود. لذلك جاهد كي تبني في قلبك حالة سلام ثابتة. كل فضائلك واعمالك وجهاداتك، ينبغي ان تتجه نحو هذا السلام، لا سيما جهادك ضد الاعداء، اعداء خلاصك، كما يقول القديس ارسانيوس اعظم من مـارس السكينة: «ليكن كـل شغلك، أن تجعل حالتك الداخلية في انسجام مع الله»، عندها ستغلب كل اهوائك الخارجية».

وسلام القلب تبلبله الاهواء. لذا فان كنت لا تسمح للاهـواء بالدنو من القلب، فإنه سيبقى في سلام. في الحرب اللامنظورة، يقف المجاهد بسلاحه عند ابواب القلب، ليصد كل من يحاول الدخول من اجل خلق الضجيج والازعاج. فعندما يكون القلب في سلام، يسهل التغلّب على كل المهاجمين. سلام القلب هو غاية الحرب اللامنظورة، وهو اعظم الوسائل لنيل النصرة في هذه الحرب. لذا فعندما ينسلّ احد الاهواء الى القلب، لا تبادر الى الوثوب عليه، رغبة في غلبته، انما انزلْ بسرعة الى اعماق قلبك، لاسترجاع الهدوء فيه، فالحـرب تنتهي بهدوء القلب.

ليست الحياة البشرية الاّ سلسلة حروب وتجارب. فالتجربة تحثّ على القتال فتنشب الحرب. وفي الحرب هذه عليك باليقظة الدائمة، والعمل بكل الجهد، من اجل حراسة القلب ومراقبته، بغية حفظه في سلام وهدوء. وعندما تتحرّك فيك روح اضطراب، بادر الى اخمادها، ليبقى قلبك في السلام. ان قلب الانسان اشبه بضرّاب الساعة، او دفة السفينة. فكلما تغيّر وزن الضرّاب نحو الخفة او الثقل، تتغير تباعاً كل حركات الساعة، ولا تعود قادرة على اعطاء الوقت الدقيق. كذلك ان تحركت الدفة في السفينة يمنة او يسرى، فان من شأن ذلك ان يحدث خللاً في سير المركبة. هكذا مع القلب تماماً، فعندما يسوده الاضطراب، يعود الينا كل التشويش فنفقد القدرة على التفكير السليم. هذا ما يدعو الى الاسراع في تهدئة القلب لدى اضطرابه بالامور الخارجية والداخلية، سواء وقت الصلاة، او في اي وقت آخر.

عليك ان تدرك بأنه يستحيل ان تصلي بنقاوة الاّ عندما تكون قد ضبطت حراسة سلامك الداخلي. لذا اجعل انتباهك كله في هذا، وحاول ان تبلغ مرحلة يكون فيها كل شيء مقروناً بسلام قلبي، وسرور وبهجة. وسوف اقول لك باختصار ان الوصول الى القلب، هو سعي دؤوب يدوم كل حياتك. عليك ان تبتعد عن كل اضطراب، فتكون اعمالك في عرين السلام كما هو مكتوب: «يا بني لتكن اعمالك بوداعة» (سيراخ ٣ :١٧). بهذا تصل الى بركة الوعد بالتطويبة: «طوبى للودعاء فانهم يرثون الارض» (متى ٥ : ٥).

الفصل الخامس عشر

في وسائل حفظ السلام الداخلي

من أجل حفظ السلام الداخلي، عليك:

١ ـ أن تبادر قبل كل شيء، الى ترتيب حواسك الخارجية، بالهرب من كل تهوّر وطيش في كل اعمالك. وأعني ان لا تنظر أو تتحدّث او تشير بيدك أو تمشي او تقوم بأي شيء، بخشونة وطيش، بل ليكن كل شيء بهدوء ووقار. درّب نفسك على الهدوء والوقار في كل اعمالك وتحركاتك الخارجية، وهكذا تبلغ السلام القلبي بيسر وسهولة، وبدون تعب أو مشقة. فالآباء القديسون يعلموننا انه كثيراً ما يتأثر انساننا الداخلي بما يعمله الانسان الخارجي.

٢ ـ اعدد نفسك كي تحب الناس، وتعيش في وفاق مع كل واحد منهم، حسب وصية الرسول: «ان كان من الممكن حسب طاقتكم ساعدوا جميع الناس» (رومية ١٢ : ١٨).

٣ ـ ليكن ضميرك طاهراً فلا يوبخك على امر، مهما كان، واحرص ان تكون على الدوام في سلام مع الله، ومع نفسك وجيرانك، ومع كل الوسط الخارجي ايضاً. فنقاوة الضمير ترسّخ عمق السلام القلبي حسب قول داوود: «سلام جزيل لمحبي شريعتك وليس لهم معثرة» (مزمور ١١٩ : ١٦٥).

٤ ـ درّب نفسك على احتمال السوء والمهانة، بدون اضطراب. ولا بد ان تحزن قبل بلوغ هذه الحالة، فتقاسي الامرّين، وذلك لعدم خبرتك على ضبط النفس في كل الامور. لكن بالعادة، المرة تلو

الاخرى، ستجد نفسُـك راحة في المشقـات التي تحل بـك. وان ثبّتَ، فانك ستتعلم يوماً بعد يوم، كيفية ضبط النفس على نحو افضل، فتتقدم عندما تعرف كيف تصون سلام قلبك، وسط كل العواصف الخارجية والداخلية معاً.

وان عجزت احيانـاً في السيطرة عـلى قلبك، وفشلت في ابعـاد الاحزان عنه، فبادر الى الصلاة وثابر عليها مقتدياً بالرب الذي صـلّى ثلاث مرات في الجثمانية، علّه يريك من مثـاله، كيف تكـون الصلاة حصناً لك في الضيق والشدة، فلا شيء يقدر ان يكسر قلبك. وعندما تتفق ارادتك وارادة الله، فانك ستهدأ، ويمتـلئ قلبك قـوة وشجاعـة، وتصبح قادراً على قبول اي شيء واحتماله. فالرب كشف لنا الضيقات، الاّ انه علّمنا كيفيـة استرجاع السلام بالصلاة: «قوموا ننطلق، هوذا الذي سيسلمني قد اقترب» (متى ٢٦ : ٤٦).

الفصل السادس عشر

سلام القلب يبني شيئاً فشيئاً

ليكن اهتمامك ليس في ان يكون قلبك عديم الاضطراب والتأثر، انما جاهد، بكل قوة، كي تحفظه بهدوء وسلام. فعندما يرى الله جهادك، سيرسل لك النعمة لتكون نفسك مدينة سلام، فيصبح قلبك بيت عزاء، كما يعبّر المرنم عن ذلك تأويلياً: «اورشليم المبنية كمدينة» (مزمور ١٢٢ : ٣). الله يطالبك بأمر واحد: في كل مرة تنزعج من امر ما، عليك ان تستعيد السلام الداخلي وتداوم على هذا المنوال، بلا قلق وانزعاج، في كل اعمالك وشؤونك. ومما لا شك فيك ان هذا يستدعي صبراً، فكما ان المدينة لا تبنى في يوم، فلا ترجو انت ايضاً ان تفوز بسلامك الداخلي في يوم. فالفوز بالسلام الداخلي، يعني بناء بيت سلام الله، خيمة العلي. اذ ذاك تكون انت هيكلاً لله باني القلب فيك. وبدون الله تذهب اعمالك سدى: «ان لم يبن الرب البيت فباطلاً يتعب البناؤون» (مزمور ١٢٨ : ١). وينبغي ان تعرف ان مرتكز سلام القلب، هو التواضع. تحاشى كل ما يأتي بالهم والقلق. ترى من يجهل ان التواضع وسلام القلب والوداعة هي امور ترتبط ببعضها. فما ان تأتي واحدة، حتى تحل الاخرى ايضاً. المتواضع هو انسان يحمل السلام. الوديع هو متواضع ايضاً. المتواضع هو وديع وفيه سلام ايضاً. لهذا قال الرب: «تعلّموا مني فاني وديع ومتواضع القلب. . .»(متى ١١ : ٢٩). الاّ ان الله، كما نرى في العهد القديم، لم يطلب من داوود ان يبني له بيتاً، فداوود قضى عمره في حروب وقتال. انما اناط ذلك بسليمان، الذي يتّصل اسمه بالسلام. سليمان كان ملك سلام، ولم يحارب احداً، فطالبه الرب ببناء البيت.

الفصل السابع عشر

من أجل حفظ سلام القلب، على المرء، أن يتحاشى الأمجاد ويحب التواضع والفقر

إن أحببت سلام القلب يا أخي، فجاهد من أجله عبر بوابة التواضع، فليس ما يقودك إلى السلام الآه. ولكي تفوز بالتواضع، جاهد بكل قوتك لمقابلة الشدائد والضيقات بفرح، كما لو أنك تقابل أخاك أو صديقاً حميماً. اهرب من الأمجاد. آثر أن تكون مجهولاً ومرذولاً في كل شيء. لا تسأل تعزية وعناية من أحد، بل ليكن هذا من الله، واقنع بعطائه. رسّخ فيك التفكير أن الله خيرك الوحيد، وحصنك الأكيد، وما سواه ليس سوى أشواك تتسبّب في ضرر عظيم ان تسربتْ إلى القلب. ان حدث ان أساء إليك أحد، فلا تغتم، بل احتمل ذلك بفرح، واقتنع أن الله إلى جانبك. لا تطلب كرامة، ولا ترغب إلا في أن تكابد من أجل الحب الذي فيك، ومن أجل ما يؤول إلى تمجيد الله فيك. بادر إلى الفرح، عندما تهان، أو تلام، أو ترذل، عالماً أن في هذه كنوزاً عظيمة لك. فإن قبلت الاحتقار، تصبح غنياً بالروح. لا تظن السوء في من يهينك، فعمله هو خدمة لك. لا ترغب في أن تكون محبوباً في الحياة، وذلك لتكون أكثر حرية في أن تصلب نفسك مع المسيح. وان عملت هكذا، فلن يكون هناك ما يعيقك في سعيك. انتبه لنفسك جداً ان كنت ترغب بالفوز. لا تتبع نصح هواك، ولا تسلك حسب مشيئتك، وأحاسيسك وميولك. تسلّحْ على الدوام ضد نفسك. وعندما تنزع ارادتك إلى أمر، مهما كان حسناً، فبادر إلى تجريده من كل

ما هو غريب، واجعله وحيداً أمام الله بتواضع، طالباً مشيئته لا مشيئتك أنت. اعمل هذا بغيرة واخلاص، وسلّم ارادتك لارادة الله، دون أن تراعي محبة الذات، عالماً أن ليس فيك خير، وانك عاجز عن القيام بأي عمل من أجل خلاصك. انتبه لنفسك من الأفكار التي تبدو طاهرة، إلا أنها ليست حسب ارادة الله: «احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونك بثياب الحملان...» (متى ٧: ١٥ - ١٦). الفتور ثمرته هزيمة الروح. ولا تنسى أن ما يبعدك عن التواضع والسلام القلبي والهدوء، مهما بدا براقاً، فهو لا شيء. انه أنبياء كذبة تأتي في هيئة الحملان، وأعني الحماسة غير المعتدلة من أجل القيام بعمل من أجل القريب، لكن بدون تمييز. وهكذا فالأنبياء هؤلاء هم في الواقع لصوص يصونون تواضعك وهدؤك وسلامك. فمن رام التقدم الروحي، وجب عليه أن لا يأخذ الأمور بظاهرها، بل يفحصها بتمييز وتؤدة. وان حدث أن وقعت،، فلا تحزن، بل تواضع أمام الله. اعرف ضعفك، فربما سمح الله بما جرى، ليكشف لك عن الكبرياء الخفي الذي يتحرك في قلبك، دون أن تدري. وان أحسستَ أن نفسك قد وخزتها شوكة مسمومة، وأعني شوكة الألم الشهواني أو أيّاً من الأهواء، فلا تضطرب، بل تيقظ أكثر، واجعل انتباهك في قلبك. قاوم، كي يكون قلبك نقياً في حضرة الله، فلا تصل إليه الأعداء. وبطهارة قلبك، يكون الله حاضراً في أعماق قلبك. كذلك اقتنع من كل قلبك، بأن ما أصابك هو اختبار لك يرمي إلى منفعتك، وتدريبك على التمييز بين الأمور المختلفة. فأنت باتباعك هذا، تنال الإكليل الحق المعد لك بمحبة المسيح.

الفصل الثامن عشر

من الضروري أن تبقى النفس سجينة ذاتها ان توقعت أن يجود عليها الرب بالسلام

طالما أن إله الألهة ورب الأرباب قد سُر أن يخلق نفسك لتكون هيكلاً وسكنى له، فما عليك إلا أن تحافظ عليها بدقة، فلا تخفّض من قيمتها فتعمل ما هو أدنى من مرتبتها. ليكن كل اهتمامك منصبّاً على افتقاد الله لك. ولا تنسى أن الله لن يفتقدك إلا إذا كانت نفسك حبيسة ذاتها، أي إذا كانت بمآثر عنيفة أو فرض أمور (حرمانات) طوعية، تختارها أنت لنفسك، بدون تدقيق وتمييز، وأيضاً طلب مناسبات للألم من أجل مجد الله. لهذا عليك أن تأخذ بنصيحة أبيك الروحي الذي يقودك كوكيل لله. فكن مطيعاً له، والله به، سيوجهك إلى ما يريد، وإلى ما هو نافع لك. لا تقم بأي شيء من ذاتك، وبارادتك، بل دع الله يعمل الكل فيك حسب ارادته. اما انت فينبغي أن تتحرر من ذاتك وان لا يكون لك رغبة ذاتية، ولو كنت ذا رغبة حسنة، فلا تحزن ان تحققت أم لا. ولا تكتئب ان جاءت نتائج الأمور على عكس ما ترجو. بل اقبلها كما لو كنت لا تتوقع شيئاً. ان هذا الاستعداد يحمل حرية القلب الحقيقية، بحيث أن القلب لا يعود مقيداً في شيء، ولا في الذهن، ولا في الإرادة، من جهة أي شيء. وان قدمت ذاتك لله حرة هكذا، وحبيسة في نفسها، فإنك ستعاين العمل العظيم الذي سيحل فيها، فالله سوف يحيطك بسلام من عنده. وهذه الهبة ستكون اناء لك يحوي كل المواهب الأخرى حسب قول القديس

غريغوريوس بالاماس في رسالته إلى الراهبة كسيني (الفيلوكاليا اليونانية ص ٩٤٤): «يا لها من عزلة عجيبة، ويا له من بيت للكنز الخفي الذي هو الله. ففي القلب يُسر الله أن يستمع إلى الحديث الذي ترفعه له. فهو يكلم قلبك. أيتها البرية والقفر الذي أضحى فردوساً. هناك فقط يسمح الله للإنسان أن يراه ويكلمه..». وقال موسى: «أميل وأنظر هذا المنظر العظيم» (خروج ٣: ٣). وفي كلامه هذا، اشارة إلى العليقة في سينا، فالقفر مكان طبيعي غني بالتأملات الروحية. فان أردت أن تستأهل هذا الأمر، فسرْ بدون حذاء، فالأرض تحتك مقدسة. اخلع نعليك، أي حرّر نفسك من أهوائها، ومن كل الأمور الأرضية. «لا تحمل كيساً ولا مزوداً......» (لوقا ١٠: ٤). لا ترغب في أي من أمور هذا العالم. لا تسلّم على أحد في الطريق كما أوعز اليشع لخادمه، وكما طالب الرب تلاميذه. ينبغي أن تكون أفكارك وميولك وحبك، محمولة ومرفوعة إلى الله، لا إلى مخلوق، «دع الموتى يدفنون موتاهم..» (متى ٧: ٢٢). أسلك وحدك في أرض الاحياء، فلا يكون للموت حظ فيك.

الفصل التاسع عشر

في المعنى الحسن في أعمال محبة القريب من أجل سلامك أنت

قال الرب في الانجيل: «لقد أتيت لألقي ناراً على الأرض. فماذا أريد لو اضطرمت» (لوقا ١٢: ٤٩)؟ الحب الإلهي ليس له حدود. انه كالله غير محدود. إلا أن محبة القريب ذات حدود، وينبغي أن يكون لها حدود، فإن لم تحفظها، ربما تبعدك هذه المحبة عن محبة الله، فتسبب لنفسك الضرر والأذى، وتلقي بك في الهلاك الأبدي. ينبغي أن تكون محبتك للقريب من كل القلب، إنما دون أن يسبب مثل هذا الحب ضرراً لنفسك. قم بكل أعمالك لا لغرض سوى أن ترضي الله فقط. فهذا سيحميك من الأعمال الخاطئة التي تمليها عليك محبة القريب. والأكثر أهمية بين هذه الأعمال هو أن يخلص قريبك. لكن حذار أن تكون هذه الأعمال مدعاة ضرر لنفسك. كن قدوة في الايمان المخلص والسيرة اللائقة بالله. وكما كان الرسل، هكذا كن أنت رائحة المسيح، تجذب كل الناس إليه. لا تكن لجوجاً في كلامك مع الناس لئلا تتلف سلامك مع ذاتك ومع الآخرين. ليكن لك رغبة قوية نحو كل انسان، كي يعرف الله، كما عرفته أنت، وكي يسر بالخمرة الموعود بها مجاناً (اشعيا ٥٥: ١). ليكن فيك عطش إلى خلاص الآخرين. إلا أن هذا العطش، ينبغي أن يقوم على حب الله، لا على غيرة جاهلة. والله نفسه سيغرس هذا الحب، من أجل الآخرين، في نفسك، ان كنت قد أفرغت ذاتك من أي شيء. هو نفسه سيأتي ليقطف الثمر. أما أنت فلا تبذر حسب هواك. ما عليك الاّ أن تقدم لله أرض قلب تخلو من

الحسك والشوك، والله سيبذر البذار فيها متى شاء وكيفما شاء. سوف تبذر البذرة في حينها. لا تنسى أن الله يريد نفسك خالية من أي شيء، كي يربطها بذاته. لذا دعه يعمل بك، ولا تسمح لارادتك بالتدخل في ما يريد. لا تخطّط لنفسك شيئاً ما عدا طلب رضى الله بالطاعة لمشيئته. رب البيت خرج ليطلب فعلة لكرمه حسب قول الكتاب. أما أنت فأبعد ذاتك عن كل هم وتفكير. ابتعد عن كل هم وقلق وكل ارتباط شهواني أو أي أمر زائل. والله سيلبسك نفسَه، ويهبك أموراً لا تقدر ان تدركها. انسَ ذاتك بالكلية وقدر الإمكان، ولا تسمح بغير محبة الله في نفسك.

علاوة على ذلك، عليك أن تستخدم الدقة والغيرة المعتدلة في علاقتك مع الآخرين، والرب سيحفظك في سلام وهدوء. انتبه لئلا تخسر نفسُك بركتَها الأساسية، أعني سلام القلب أمام اهتمامات غبية من جهة منفعة الآخرين. أما المصدر الذي يغنيك بهذه البركة فهو طاعة نفسك بالكلية لله مع ترك كل الأمور الزائلة. اعمل هذا لا طمعاً في مكافأة. لا تقبل أي ايحاء يشير إلى أنك جدير بذلك. فالله نفسه يعمل في كل شيء، ولا يتوقع منك إلا التواضع أمامه، وأن تهبه ذاتك معتَقَة من الأرضيات كافة، وأن لا يكون في قلبك إلا رغبة واحدة هي أن تتحقق ارادة الله فيك، دائماً، وفي كل شيء.

الفصل العشرون

عندما تتخلى النفس عن ذاتها، عليها أن تسلّم أمرها لله

لتكن ثقتك بالله يا أخي، فهو يدعو كل الناس قائلاً: «تعالوا إلي يا جميع المتعبين. . . . .» (متى ١١: ٣٨). اتبع الصوت الذي يناديك، وفي نفس الوقت توقّع مجيء الروح القدس. ادخل بعين متأملة إلى بحر العناية الإلهية والمحبة. دع أمواج مشيئة الله تحملك، دون أن تقاومها، فتقودك سريعاً إلى مرفأ الخلاص والكمال المسيحي. درّب نفسك على هذا، مرات ومرات كل يوم، واطلب الاختلاء الخارجي والداخلي، قدر المستطاع، وذلك كي تركّز كل قواك على الرياضات التي لها قوة خاصة تولّد فيك محبة قوية لله، كالصلاة واستدعاء الاسم الحلو، اسم ربنا يسوع المسيح على الدوام، والدموع التي تفيض من حبه، مع عبادة لله تولّد الفرح والبهجة، وأعمال روحية أخرى. دع هذه الأعمال تنمو فيك دون ارغام أو غصب للقلب، لئلا تستنفد ذاتك بغباوة عن طريق تمارين قسرية، فتصبح صلباً قاسياً، وعاجزاً عن اقتبال مفاعيل النعمة. اطلب نصيحة أهل الخبرة في هذا المجال. وبمعونتها جاهد كي تكتسب عادة التأمل في قداسة الله واحساناته الكثيرة. اقبل بتواضع قطرات العذوبة التي تسقط داخل نفسك من صلاحه الذي لا يوصف.

لكن لا تصر على الله طلباً لايضاحات عن تحننه، انما ابق بتواضع في عزلتك الداخلية، منتظراً مشيئته كي تكتمل فيك. وعندما يهبها الله لك دون توتر وجهد من جانبك، فإنك ستختبر عذوبتها وثمارها. أما

المفتاح الذي به يفتح بيت الكنز الخفي الحاوي الهبات الإلهية، من معرفة ومحبة إلهية، فهو التواضع وبذل الذات وتسليم النفس لله، كل حين، وفي كل شيء. المفتاح نفسه يغلق باب الجهل والفتور الروحي.

احبب قدر ما تستطيع، وبهدوء، كي تقف مع مريم عند أقدام المسيح ربنا فتصغي لما يريد أن يقول لنفسك. واحرص ألاّ يعيق العدو نفسك، التي هي أكثر أعدائك، من جهة هذا الوقوف بصمت أمام الرب. وعندما تبتغي الله بذهنك، وذلك كي تستريح فيه، فلا ترسم له حداً، أو حدوداً حسب خيالك الضيق والضعيف. فالله لا يحد، وهو في كل مكان، وفي كل شيء، أو بالأحرى، كل الأشياء قائمة فيه. انت ستراه في نفسك في كل مرة تطلبه بحرارة. الله نفسه يرغب في أن يكون معنا، نحن أبناء البشر، وذلك كي يؤهلنا لذاته، رغم عدم احتياجه لنا.

وعندما تقرأ الكتب المقدسة، لا تضع في ذهنك أن تطالعها صفحة بعد أخرى، إنما تأمل في كل كلمة. وعندما تحثك بعض الكلمات على الغوص إلى أعماق ذاتك، أو تملأ قلبك بالفرح، والحب الروحي، فتوقف عندها، فهذا يعني أن الله قريب منك. استقبله بتواضع، وبقلب مفتوح، كما يريد هو أن تشترك فيه. وان كان فشلك في رياضاتك الروحية بسبب هذا، فلا تقلق، لأن الغرض منه، كما من كل الرياضات الروحية الأخرى، هو أن تكون آهلاً للاشتراك في الله. وعندما تُمنح ذلك، لا يعود هناك أي معنى من جهة الوسائل. بنفس الطريقة، عندما تتأمل في بعض الموضوعات الإلهية، لا سيما بعض الأمثلة من آلام ربنا يسوع المسيح، توقف عند الجزء الذي يلمس قلبك، واجعل انتباهك عليه، لفترة أطول، وذلك كي يطول فيك هذا الشعور المقدس.

إن واحداً من أعظم عراقيل الاحتفاظ بسلام القلب يا أخي، هي أن تقيّد ذاتك بقانون ثابت لا يتغير، بقاعدة ثابتة لا تتبدل، فتطالع عدداً كبيراً من المزامير، وفصولاً عديدة من الأناجيل والرسائل. فالذين

يجعلون لأنفسهم نواميس كهذه، هم في العادة على عجلة من أمرهم، ويرغبون أن يتموا المطالعة، ولا يهتمون إذا كانت تلامس قلبهم أم لا، أو إذا كان هناك تأملات روحية قد ملأت ذهنهم. وعندما يخفقون في انهاء المطالعة، فإنهم يتأثرون وينزعجون، ليس لأنهم حُرموا من الثمار الروحية التي تتأتى منها، والتي يحتاجونها كي يخلقوا الإنسان الجديد في نفوسهم، إنما ببساطة، لأنهم لم يطالعوا كل ما عزموا على مطالعته. فاسمع لما يقول القديس اسحاق عن هذا: «ان كنت تريد أن تستمتع بقراءة الآيات وتفهم كلمات الروح التي تتلوها، فضع جانباً الكمية، وعدد الآيات، كي ينشغل عقلك بكلمات الروح، حتى يمتلئ من الذهول في القانون الروحي، فتتحرك روحك بالمفاهيم الرفيعة، وتندفع إلى تسبيح الله، أو إلى الحزن النافع للنفس. العمل الطائش لا يأتي بسلاح الذهن. والقلق من شأنه في العادة أن يحرم الذهن من فهم قوة التذوّق، ويفرك الأفكار كالدودة التي تمتص الحياة من الجسم كله مع دم أعضائه. وان أردت بغيرة واخلاص أن تنهي سيرتك الحاضرة على نحو فاضل، فلا تجعل لنفسك هدفاً غير الله فترى أين يختار أن يعلن ذاته لك. وعندما توهب هذا، أوقفْ كل نشاط ولا تتمسك به. انس كل شيء، ولتكن راحتك في الله فقط. وعندما يختار القدير أن ينسحب منك، ويتوقف عن كشف ذاته لك في ظرف حاضر، عليك العودة إلى جهاداتك الروحية الاعتيادية، مواظباً عليها. وليكن لك نفس الهدف، ألا وهو أن تجد معشوقك. وعندما تجده افعل كما قلت لك سابقاً، فتوقّف حيث أنت، كي تستريح فيه فقط. فكّر جيداً بما قلت لك، فهناك العديد من الذين انشغلوا بالعمل الروحي، إلا أنهم حرموا ذواتهم ثمار السلام التي تنقذهم. وهكذا حرموا من أعمالهم الروحية، لأنهم في الواقع ـ خوفاً من الخسارة ان فشلوا في القيام بها ـ اقتنعوا عن ضلال، طبعاً، ان في هذا يكمن الكمال المسيحي. فتبعوا مشيئتهم الخاصة، واجهدوا أنفسهم وعذبوها كثيراً. إلا أنهم لم يفوزوا بالهدوء، ولا بالسلام الداخلي، حيث يسكن الله ويرتاح.

الفصل الحادي والعشرون

اطلب الله فقط، لا التعزيات والمسرات

اختر على الدوام الأمور الصعبة والمؤلمة، ولا ترغب في المسرات والتعزيات التي لا تجدي النفس. وينبغي أن تكون الأعمال التي تقوم بها، بمثابة خطوة نحو التقرب من الله. لا تدع أياً من أعمالك عائقاً في السبيل إلى الله. ليكن الله كل فرحك، فهو الحلاوة، وما سواه، ليس سوى مرارة. قدّم لله كل صعوبة تصادفك. أحببه، وسلّم قلبك كله له بدون أي تفكير أو خوف. وهو سيجد الوسائل لحل كل معضلاتك، فيرفعك ان كنت قد سقطت. وبكلمة واحدة، ان كنت تحب الرب، ستنال منه كل بركة. لذا قدّم ذاتك بالكلية، ذبيحة لله هادئة، وبروح مسالمة.

وما يعينك على التقدم في هذا السبيل، فيعتقك من الضجر والغموض، هو أن تجعل ارادتك في ارادة الله. وبمقدار نجاحك في ذلك، دون أن تترك لنفسك شيئاً، يكون العزاء والقوة التي تجنيها. لتكن ارادتك على اتفاق مع ارادة الله، فلا ترغب إلا بما يرغبه هو. وعلى الدوام، جدّد العزم في نفسك كي ترضي الله في كل شيء. لا ترسم خططاً للمستقبل، فأنت لا تعلم ما يقدّم لك اليوم (أمثال ٢٧ : ١). لا تقيّد ذاتك، بل حررها، فهذا لا يمنع أياً كان من العناية والاهتمام بأمور تتطلبها حالته ووضعه، طالما أن مثل هذا الاهتمام هو على وفاق مع مشيئة الله، ولا يتعارض مع السلام الداخلي والتكريس لله والتقدم في حياة الروح. وفي كل ما تقوم به، قرّر أن تقوم بما في وسعك، وكل ما

تحتاج إليه، وما أنت ملزم به، ولا تكترث بأي شيء آخر، إنما استسلم بتواضع لكل النتائج الخارجية، مهما كانت.

وما يمكنك أن تقوم به على الدوام، هو أن تبذل ذاتك من أجل الله. لذا لا ترغب بغير ذلك. وكنتيجة لذلك، ستختبر الحرية، ولن يقيّدك شيء مهما كان، فتكون إذ ذاك في سلام مع نفسك. وحرية الروح هذه تؤلّف في ذاتها بركة عظيمة، كثيراً ما تسمع عنها في أعمال وكتابات القديسين. وهذا ليس سوى بقاء الإنسان الداخلي في ذاته، دون أن يكون فيه رغبة طائشة داخلية للبحث عن أمر هو خارج عنه. وإذا كنت تحفظ نفسك حراً، فإنك لا محالة ستشترك في الفرح الإلهي الذي لا يوصف، والذي لا ينفصل عن ملكوت الله القائم فينا، حسب قول الرب: «ملكوت الله في قلوبكم» (لوقا ١٧ : ٢١).

الفصل الثاني والعشرون

لا تخف عندما ينسحب السلام الداخلي أو يتوقف

الذين يسلكون طريق الله، غالباً ما يختبرون أوقاتاً يتوقف فيها السلام المقدس - والخلوة الداخلية الحلوة، والحرية التي يعشقون - أو ينسحب. وكثيراً ما تثير حركات القلب غيوماً من الغبار تحول دون رؤية الطريق الذي يسيرون فيه. وان حدث وصادفك شيء من هذا، فاعلم أن الله يسمح به من أجل منفعتك. هذه هي المحاربات التي من أجلها كافأ الرب أحباءه القديسين بأكاليل نورانية. لذا تذكّر هذا، ولا تفقد شجاعتك في التجربة التي صادفتك. وكما في أية ضائقة أخرى، ارفع نظرك إلى الله، وقل في قلبك: «أيها الرب الهي، انظر إلى عبدك، ولتكن ارادتك فيّ. أنا أعرف وأعترف أن كلماتك حق ثابت، ووعودك غير كاذبة، لهذا فأنا أضع كل رجائي بك، واقف في طريقك بثبات». هنيئاً للنفس التي تسلّم للرب هكذا، وفي كل حين تصادف شدة أم ضيق. وان استمر الجهاد رغم هذا كله، دون أن تتمكن من دمج ارادتك بارادة الله، بالسرعة المطلوبة، فلا تحزن، بل تابع الخضوع لارادة الله، لأنك بهذا تفوز بالنصرة. اذكر المعركة التي خاضها ربنا يسوع في بستان الجثمانية عندما اهتز أمام الكأس وصرخ: «يا أبتاه ان أمكن تعبر عني هذه الكأس» (متى ٢٦ : ٣٩). إلا أنه قال بعد ذلك وبكامل ارادته: «لكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت».

عندما تكون في ضيق، لا تخطو أية خطوة، قبل أن ترفع عينيك إلى المسيح المصلوب ربنا. وهناك ستجد بحروف كبيرة كيف ينبغي أن

تتصرف في ضيقتك التي أنت فيها. انسخها لنفسك، لا بالكلمات بل بالأعمال. وأعني أنه عندما تحس بهجمات حب الذات، والتساهل معها، لا تكترث، ولا تنسحب من المعركة بهلع وجبن، بل واظب على الصلاة محتملاً بتواضع، ومجاهداً، كي تغلب ارادتك، فتثبت على تنفيذ مشيئة الله. وان خرجت من الصلاة بهذه النتيجة، افرح. أما إذا أخفقت في بلوغ ذلك، فدع نفسك صائمة لا تذوق طعامها الطبيعي. لا تدع شيئاً يسكن في نفسك، ولو إلى حين، إلا الله واياه فقط. لا تحزن ولا تكتئب في أي شيء. لا تنظر إلى شرور الآخرين، أو إلى النماذج الرديئة. إنما كن طفلاً في البراءة، والبريء لا يلاحظ هذه. وهكذا تعبر أمامها دون أن تتأذى.

الفصل الثالث والعشرون

كثيرة هي حيل العدو التي بها يتلف سلامنا الداخلي. فتيقّظ

عدونا الشيطان يفرح، عندما تتبلبل نفوسنا وتضطرب، لذا فهو يستعمل كل حيله الماكرة، كي يبلبل نفوسنا. ان أولى الوسائل التي يستخدمها في حربه، هي اثارة الذات. وينتج عن ذلك، انسحاب النعمة التي تحفظ لنا سلامنا الداخلي. العدو يوحي لنا أن كل ما هو خير أو يبدو خيراً فينا، هي أمور اكتسبناها بعملنا وجهدنا. بهذا يبعد التواضع والبساطة عنا، ويحثنا على تقويم ذواتنا فوق قدرها، ناسبين لأنفسنا الفضل في كل شيء، فنشعر إذ ذاك، أننا شيء مهم جداً، وهكذا يَحجب عمل النعمة، بنسيانها، والتي بدونها لا يستطيع أحد أن يقول يسوع رب (١ كور ١٢ : ٣). وهذه النعمة تعطى لكل المؤمنين. وحضورها هو علامة على أن الإنسان مؤمن حقيقي. فالمؤمن عندما يقتبلها، لا يعود يعمل شيئاً حسناً إلا بمعونتها. فهي تبقى فيه حسب وعد الرب، ولا يعود العدو يقوى عليه في أي شيء، ما دامت النعمة فيه. لذا فالعدو يحاول بكل الوسائل أن يبعدها عنا. وأول ما يقوم به من أجل هذا الغرض، كما قيل، هو أن يبث بذار الفكر الذاتي، فيوحي لنا بأنه أمر مهم جداً. فالذي يرضخ للفكرة، يتلقى من العدو فكرة أخرى، (ايحاء)، مؤداها ان الانسان هذا هو أفضل من الآخرين، وأكثرهم غيرة، وأعماله أكثر غنى من جميع أعمالهم. وإذ ينجح العدو في سعيه، فإنه يبادر إلى دفع هذا البائس إلى دينونة الآخرين واحتقارهم، مما يودي به حتماً إلى الكبرياء. وكل هذا يمكن أن يحصل في القلب بلحظة واحدة. لكن رغم قصر الوقت، فإن عمل النعمة يتناقص توأً.

وينتج عن هذا الزهو والانتفاخ، ضعف في الغيرة الروحية، وثورة الأفكار وانتفاضتها، والتي تكون في البداية فارغة، لكنها تصبح فيما بعد شهوانية. ويصاحب ذلك عاصفة هوجاء في القلب، فيتبدد السلام الداخلي. لكن حالة كهذه لا تدوم. وإذا تذكر من يعاني هذا، وعاد إلى ذاته ممتلئاً ندامة وانسحاقاً، فإنه يتوب، وبالصلاة يعيد الهدوء إلى سابق عهده. وهكذا يعاقَب ابليس، إلا أنه لا يخرج من القلب، فهو يعود مجدداً بالايحاءات نفسها، وللغرض ذاته، وأعني دك السلام الداخلي، وتدميره.

وإذ تعلم هذا يا أخي، فإنك لكي تصد هذه الأفكار المعادية، ما عليك إلا أن تكون يقظاً على نفسك، وساهراً عليها، حسب كلمات الرب: «اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في التجربة» (متى ٢٦ : ٤١). اسهر على ذاتك بكل جهاد وحرص، لئلا ينسل العدو إليك، وينهب متاعك، فيحرمك من هذا الكنز العظيم الذي هو السلام الداخلي وهدوء النفس. العدو يسعى الى تدمير سلامك، فهو يعلم جيداً أنه عندما تكون النفس في اضطراب، يقدر أن يقودها إلى الشرور، بسهولة. عليك أن تحرس سلامك وتسهر عليه. فالعدو لا يقوى عليه عندما تكون في سلام. النفس الحاملة لهذا السلام، تكون مستعدة لكل عمل صالح، بلا صعوبة، وتستطيع أن تغلب كل العراقيل. ولكي تنجح في ذلك، حاول أن تراقب العدو قبل وصوله. واقتراب العدو هو الفكر القائم على الاعتداد بالذات. اجعل ذلك قاعدة لك بها تدرك متى يدنو العدو منك ويلقي إليك بأي فكر، ليقلل من ثباتك واقتناعك بأن الخير يأتي من الله، وانه يمكنك النجاح في أي شيء دون الاعتماد على النعمة. وليجعلك تجعل كل ثقتك فيه. فعليك الانتباه من هذه الأفكار. ارفضها واطردها عنك. ان عمل الروح القدس فينا هو في كل حال من الأحوال هو أن يقود نفوسنا إلى الاتحاد بالله، ويُضرم فينا محبته الحلوة، مع الثقة المغبوطة والاعتماد الكلي عليه. وكل ما هو عكس ذلك، فهو من العدو. العدو يستخدم كل الحيل والوسائل التي يقدر أن يخترعها ليثير النفس.

فهو يبث في القلب مخاوف مختلفة، ويزيد من ضعف النفس، وذلك ليضعف فيها الاستعدادات الضرورية، ويحول دون فرحها بالاعتراف كما يجب، وفي المناولة، أو الصلاة. بل يجعل النفس تعبر في هذه كلها، بدون جسارة متواضعة ومحبة، انما بخوف وهلع واضطراب. انه يجعل النفس تتلقى بيأسٍ مشاعر الفقر الروحي (الديني)، محاولاً اقناع النفس بأن هذا الفقر ليس بسماح من الله لمنفعتها. ان معنى ذلك أن جهود النفس ومساعيها كلها لا معنى لها، فخير لها الاقلاع عنها، وهكذا تأتي النفس إلى اليأس والبلبلة بشكل هائل، فيقع الانسان في النهاية، تحت وطأة أن كل ما يقوم به، لا يجدي ولا ينفع، وان الله قد نسيه وتخلى عنه بالكلية.

ولكن من الواضح أن هذا افتراء. فالنفس قد تعرف الجفاف والفقر في المشاعر الروحية والعذوبة الدينية. لكن رغم هذا، فانها قادرة على الأعمال الحسنة إذا تحركت بايمان بسيط، وتسلّحت بالصبر المقدس والثبات. ولكي أساعدك على نحو أفضل، فأحول دون تضررك بأن الله يرى هذا حسناً ولمنفعتك، أو يسمح لك بهذا الفقر في الاحساس الروحي والعذوبة، سوف أصف لك في الفصل التالي البركات التي تأتيك بفعل صبر متواضع على الذين يظهرون الصبر وقت الجفاف أو برودة القلب. وكي تتعلم كيف تحتفظ بسلام نفسك، فلا يبتلعك الحزن عندما تعاني هذه الحالة أو أي تيار فكر مضطرب، وضغوط شهوانية.

الفصل الرابع والعشرون

على المرء أن لا يضطرب أمام فقر الأحاسيس الروحية أو التجارب الداخلية الأخرى

رغم اني تناولت في فصل سابق حرارة القلب وبرودته، والحزن الناجم في النفس من جراء البرودة هذه، وأعني الحزن والجفاف في القلب، أو الفقر في الفرح الروحي وعذوبته، إلا أنّه من النافع للنفس جداً أن نقبل ونحتمل هذه بصبر وتواضع. وان كان الانسان يعرف هذه الحسنات من قبل، فهو بكل تأكيد لن يعتبر الأمر ثقلاً أو حزناً. فهو لن ينظر إلى فقر التعزيات الروحية على أنها علامة غضب الله، إنما سيراها عملاً من أعمال محبة الله الخاصة به، ويقبلها بمثابة رحمة.

وقد يكون في الواقع قد نال التعزية من الحقيقة الواضحة ان مثل هذه الحالات عرفها أناس تركوا أنفسهم برغبة من أجل خدمة الله، وتحاشوا ما يسيء إليه، وعرفوا هذا ليس فقط منذ ان اقتربوا من الله، إنما أيضاً بعد أن ساروا مع الله زماناً طويلاً، وبعد أن تنقى قلبهم بالصلاة المقدسة والتوبة، وبعد أن شعروا بحلاوة روحية خاصة وفرح وغبطة دفعت بهم إلى بذل ذواتهم حتى المنتهى. من هذا يتبين بوضوح أن الضيقة شرف وغذاء لا يقدر بثمن، يتناوله الذين أحبهم الله ودعاهم. ولئن كانت مذاقتها مرّة، إلا أن فيها نفعاً عظيماً هو مبهم الآن. عندما تكون النفس في هذه الحالة من الجفاف، فتذوق هذه المرارة، وتتلقى التجارب والأفكار التي مجرد التفكير فيها يجعل المرء يرتجف، كونها تسمم القلب وتقتل الانسان الداخلي. لكن عندما تجد النفس

انها في هذه الحالة، فهي تتعلم أن لا تثق بذاتها، ولا تعتمد على نفسها، وهكذا تجني التواضع الحقيقي الذي يفرح الرب بامتلاكنا له . بالإضافة إلى ذلك، فإن النفس ستصبح ملهمة بالرغبة لاكتساب أفضل أشكال الحب غيرةً من أجل الله، مع انتباه شديد على الأفكار، وشجاعة في احتمالها مع والتجارب، بدون ضرر، فتخرج من هذه الحرب، بحواس مدرّبة على التمييز بين الخير والشر كما قال الرسول بولس (عبرانيين ٥ : ١٤). لكن طالما ان هذه الثمار محجوبة عن رؤية النفس، فإنها تنزعج، وتتحاشى الشدة والمرارة لأنها لا ترغب أن تحرم التعزيات الروحية، حتى ولا إلى حين.

وتعتبر كل رياضة روحية غير مقرونة بها، مضيعة للوقت، وجهداً لا فائدة منه.

الفصل الخامس والعشرون

لخيرنا هي كل تجربة

كي تفهم أفضل، ان كل التجارب عموماً، هي من الله لفائدتنا، انتبه لما سأقوله: ان نزوع طبيعة الإنسان الفاسدة، هو نحو الكبرياء، وحب الذات، وحب الظهور، والتباهي بالذات، والتمسك بالرأي، والقرار الذاتي. وكل انسان يريد لنفسه قيمة تفوق قدره. هذا هو الاعتداد بالذات. وأبينا السماوي المحب في تدابيره الحكيمة من أجلنا، لا سيما الذين جعلوا أنفسهم في خدمته، فإنه يسمح بالتجارب، ان تهاجمهم (اي نحن)، وذلك ليكونوا في حالة يصبح معها من الممكن الهرب من الخطر المحدق، خطر الاعتداد بالذات. وهكذا نُجبر على الوصول إلى معرفة متواضعة عن ذواتنا. والرب فعل هكذا مع بطرس حين تركه لفكره ثلاث مرات، وذلك كي يتحقق من ضعفه، فلا يتكل على ذاته. كذلك عند القديس بولس خبرة مماثلة بعد أن اختطف إلى السماء الثالثة، وأعلنت له الأسرار الإلهية التي لا ينطق بها، وهكذا في النهاية حمل يقيناً صورة حقارته وهشاشته، فشرع ينمو في التواضع ولا يفتخر إلا بضعفه لئلا ينتفخ ويتكبر بداعي الاعلانات الكثيرة التي كشفها له الله «.. ولئلا ارتفع بفرط الاعلانات، أعطيت شوكة في الجسد.....» (٢ كور ١٢: ٧).

الله بحنانه يسمح للتجارب أن تهاجمنا، وذلك بسبب هذا النزوع المريض فينا نحو التعالي. وكثيراً ما تكون التجارب مؤلمة حقاً، وهكذا، نعرف ضعفنا فنتواضع. في هذا يتجلى حب الله لنا وحكمته. فبإذلالنا

وتواضعنا، نجني خير البركات، عبر أمور تبدو مضرة، إلا أن التواضع هو أكثر الأمور فائدة لأنفسنا. التجارب تعطى لنا أحياناً لتعلمنا التواضع. وكل من يخدم الله يحدث أن يذوق الحالات التالية: الجفاف، نقصان في العون الروحي، فقر في التعزيات. وكل هذه هي لكي نتعلم التواضع، عن طريق التفكير بأن هذه كانت بداعي خطايانا. المتواضع هو على يقين أن نفسه هي المقصّرة في كل الأمور أكثر من كل النفوس. ان هذه أيضاً هي لكي ننكر أن مثل هذه الضيقات لا تأتي إلا للمتروكين الذين تخلى الله عنهم. وهنا فهو متروك عن استحقاق. من هذه الفضيلة يتولد الخير للمتواضع. فمن يظن انه شيء ذو شأن، لكنه ذاق مرارة الدواء المرسل له من فوق، فإنه سيبدأ في اعتبار نفسه الأكثر سماحة وخطايا في العالم، وانه غير مستحق حتى أن يدعى مسيحياً. وحقاً ما كان سيصل إلى مثل هذا الرأي عن نفسه فيختبر التواضع العميق، ما لم يسمح الله بهذه التجارب وهذه الكربة القلبية والأسى الداخلي. فالتجارب نعمة كبيرة يظهرها الله للنفس في هذه الحياة. والنفس التي تسلم له أمرها، تتداوى حسب مشيئته. فهو وحده يعرف الدواء الشافي والناجع والضروري لشفاء النفس واعادتها إلى الحالة الجيدة.

بالإضافة إلى هذه الثمار التي تجنيها النفس بالتجارب والفقر والتعزيات الروحية، هناك ثمار أخرى أيضاً: فالإنسان الذي يتضع قلبه بهذه الأحمال الثقيلة المرهقة، يتقوى داخلياً، وتتجدد طاقته وغيرته، فيسرع نحو الله، طالباً منه العون، ويجاهد أيضاً كي يشفي حزن نفسه، ويطرد المرارة من قلبه، ويتمكن من تحاشي مثل هذه العذابات في المستقبل. وهكذا يوطّد العزم على السير من الآن في درب الحياة الروحية، فينتبه بكل قوته إلى حركات القلب، ويتحاشى حتى ظل الخطايا، والتراخي القادر أن يفصله عن الله، وأن يفصل الله عنه، بأي شكل من الأشكال. وهكذا فالأسى الذي اعتبره مضرة له، ولا يخدم أهدافه، أصبح له حافزاً على طلب الله بحرارة، فبات يتجنب بغيرة مشتعلة، كل ما لا يرضي الله. وباختصار فإن كل ما تحتمله النفس من

حزن وألم ابّان التجارب الداخلية، مع فقر في التعزيات والبهجة، ما هي إلا أدوية ناجعة مطهّرة يستخدمها الله بداعي حبه وحنانه كوسائل لتطهير النفس، ان هي احتملتها بصبر وتواضع. والأوجاع هذه تعطي لمن يحتملها بصبر، اكليلاً لا يؤخذ، إلا بصبر. والإكليل يكون أكثر كرامة كلما كانت الأوجاع أكثر شدة وقد احتملها القلب.

من الواضح بعد كل هذا، انه لا ينبغي أن نعذب ذواتنا كثيراً أو أن ننزعج بمرارة من التجارب التي تهاجمنا أو من تلك الداخلية التي سبق الكلام عنها، فهذا موقف من كانت لهم خبرة قليلة في هذا المضمار.

وأمثال هؤلاء يعتبرون ما يأتي من الله كأنه من الشيطان، أو من خطاياهم ونواقصهم. ويخلطون بين علامات الحب الإلهي، وتلك التي للغضب الإلهي، فيفسرون احسانات الله وخيراته، لطمات وضربات تنزل عليهم بسبب غضب الله. ويعتبرون كل ما عملوه ويعملونه، عديم النفع ولا يجدي. وان ما خسروه، لا يمكن أن يعوّض. أما إذا اعتقدوا وآمنوا ان هذه التجارب تأتي إليهم بالفضائل، وتزيدها لهم، عندما يكون قبول النفس للتجارب بصبر وتواضع، فيتألمون بشكر. وإذا آمنوا ان هذه التجارب هي من ترتيب الله ومحبته لهم، فانهم لن ينزعجوا ولن يفقدوا سلامهم الداخلي رغم ضيقهم في التجارب الكثيرة، ورغم الأفكار المعيبة والجفاف في صلاتهم ورياضاتهم الروحية الأخرى. فكل هذه من شأنها أن تجعل نفوسهم تتواضع أكثر في حضرة الله، وتجعلهم يعقدون العزم في قلوبهم على اتمام مشيئة الله وارضائه في هذا العالم. فهذه هي السبيل التي يرضى عنها الله. كذلك فانهم عازمون على الجهاد بكل الوسائل المتاحة لهم، كي يكونوا في سلام وسكينة لدى اقتبال كل الأمور التي تحل بهم، كما لو أنها كانت من يد الآب السماوي الذي منه أيضاً الكأس المر الذي ينبغي أن يشربوه الآن وفي هذه اللحظة الحاضرة. وسواء كانت التجربة من الشيطان أو من آخرين، أو نتيجة لخطاياهم، فالأمر يعتمد على الله، ومنه يأتي، لمنفعتنا وخيرنا، أو ربما لكي يمنع عنا تجارب قد تكون أكثر خطراً من هذه.

الفصل السادس والعشرون

علاج الغم الناجم عن مخالفات صغيرة وضعفات

إن حدث وسقطت في إحدى المخالفات بالقول أو بالفعل. على سبيل المثال ان اضطربت لحدث عابر، أو أنك انتقدت أحداً، أو سمعت انتقادات من آخرين، أو دخلت في جدل حول أمر ما، أو كنت في بعض الأحيان عديم الصبر، أو أنك اضطربت وشككت بالآخرين، أو أنك أهملت أمراً ما، فينبغي أن لا تضطرب ويبتلعك الحزن المفرط وتيأس مما فعلت. إنما قبل كل شيء عليك ألاّ تجزع من الاضطراب بالأفكار السوداء المحزنة المتعلقة بك، وأنك لن تتمكن من التحرر منها. أو أن ارادتك ضعيفة وعاجزة عن العمل حسب رضى الرب. أو أنك لا تتقدم في درب الله كما يجب. لأنك كلما فكرت هكذا، فإنك سترهق نفسك بأعباء أخرى وبآلاف المخاوف الناجمة عن ضعف القلب والحزن. وماذا بعد؟ أنت تخجل من الوقوف بجسارة في حضرة الرب. فقد أثبّت له عدم ولائك له. انك تهدر وقتك إذا كنت تفحص مقدار الوقت الذي قضيته في كل مخالفة، سواء كنت متعلقاً بالمخالفة أو بدأت ترغب بها أو ترفضها، وسواء كنت رفضت هذه الفكرة أم لا، فكلما زاد تعذيبك لذاتك كلما عمل هذا على تعكير نفسك أكثر. وكلما عظم نتيجة لذلك، حزنك، وضعفت فيك الرغبة بالبوح بخطاياك. حتى ولو ذهبت للاعتراف، فإنك تقوم بذلك عن خوف واضطراب. وبعد الاعتراف لا تجد سلام نفسك أيضاً. إذ يبدو لك أن هناك أموراً كثيرة لم تبح بها. فتتمرمر حياتك وتتعكر، وتصبح قليلة الثمر وتكون أنت كمن يضيع الوقت سدى. كل هذا يحصل لنا عندما ننسى ضعفنا الطبيعي وننسى الهدف الأوحد الذي يجب أن تراه النفس. بكلام آخر، ننسى أنه عندما تسقط النفس في واحدة من الخطايا الممكن غفرانها، ينبغي أن

تتوجه إلى الله برجاء وتوبة متواضعة، بدل أن تعذب ذاتها بحزن مفرط ومرارة مع ضيق.

أقول هذا عن الخطايا التي يمكن أن تغفر. لأن هذه فقط يمكن تبريرها في النفس التي اعتنقت الحياة الرصينة التي وصفت هنا. وهنا نخاطب الذين يحيون حياة روحية ويجدّون في النمو بها باذلين كل جهد لتحاشي الخطايا المميتة. أما الذين لا يحيون حياة روحية رصينة بل يتعاملون مع الحياة كيفما اتفق، ولا يهتزون عندما يسيئون إلى الله بخطيئة مميتة، فهم بحاجة إلى نصيحة أخرى. فالعلاج المذكور أعلاه، ليس لمثل هؤلاء. إذ ينبغي أن يحزنوا بعمق ويبكوا بمرارة مبادرين على الدوام إلى فحص ضمائرهم بدقة، ومعترفين بكل خطاياهم بدون شفقة أو تساهل مع النفس. وينبغي أن لا يألوا جهداً مهما كان، لشفاء نفوسهم.

وفي التعديات اليومية الصغيرة، ينبغي أن تكون التوبة مفعمة بثقة ثابتة بالله، لا سيما في الخطايا الكبيرة أكثر منه في الصغيرة، والتي كثيراً ما يسقط فيها خدام الله الغيارى أنفسهم. فالحزن القائم على توبة والذي يجعل القلب يضطرب ويجزع، لا يمكنه أن يسترد الرجاء بالله إلى النفس، إلا إذا صاحبه ثقة في صلاح الله ورحمته. وينبغي أن يمتلئ القلب على الدوام بمثل هذه الثقة لا سيما في الذين يرغبون الوصول إلى أعلى درجات الكمال المسيحي. إلا أن كثيرين ممن دخلوا درب الحياة الروحية، يفشلون في الانتباه إلى ذلك، فلا يتقدمون، لا بل يضعف قلبهم ويكف عن المضي إلى الأمام. وهكذا لا يعودون صالحين لاقتبال البركات من النعمة التي وزعها الرب على السائرين في هذا الدرب، والتي في العادة تكون من حظ الذين لا يتراخون بل يسيرون إلى الأمام بثبات. لكن قبل كل شيء، على الذين يتعرضون لمثل هذه الأمور أن يتوجهوا إلى أبيهم الروحي أو إلى انسان خبير في الحياة الروحية، وفي نفس الوقت يتضرعون إلى الله بثقة كي يكشف لهم الحقيقة ويمدهم بالحل المفيد لمشاكلهم واضطراباتهم. وهناك يستريح المرء عندما يسمع كلمتهم.

الفصل السابع والعشرون

في انـه ينبغي على الانسـان المضطرب والحـزين، أن يوطّـد السلام في نفسه على الفور.

في كل مرة تسقط في هفوة قابلة للغفران، حتى ولو حصلت ألوف المرات كل يوم، فبمجرد أن تلاحظ ذلك، لا تزعج نفسك وتهدر وقتك سدى. بل تواضع على الفور، وكن واعياً لضعفك. بعد ذلك توجّه إلى الله برجاء، وادعه من أعماق قلبك قائلاً: «أيها الرب الهي» لقد فعلت هذا لأنني كما أنا ولا يُرتجى منّي شيء سوى هذه المخالفات وما هو أسوءا منها. فان تخلّت عني نعمتـك، أكون لـوحدي. أنـا حزين جـداً عما فعلت، لا سيما وأن حياتي تخلو من البر، وأنا عاجز عن الاستجابة لعنايتك بي. ها أنا أسقط المرة بعد الأخرى. سامحني واعطني القوة كي لا أهينك بأي شكل من الأشكال. أنا راغب من كل قلبي أن أصنع مشيئتك، وأرضيك، وأطيعك في كل شيء. بعد هذه الصلاة، أترك نفسك ولا تضايقها بالأفكار عما إذا كان الله قد سمع لك وسامحك أو انه لم يسمع. فالرب قريب ويسمع كل تنهدات خدامه. لذا اهدأ على هذا اليقين والثقة. وعندما تسترجع سكينتك، عاود متابعة أعمالك، كما لو أن شيئاً لم يحدث.

عليك أن تقوم بهذا أكثر من مرة، بل مئة مرة إذا دعت الحاجة. وفي كل لحظة، لتكن المرة الأخيرة مليئة بالثقة كالأولى. فأنت عندما تفعل ذلك، فإنك تعبّر عن اكرام لصلاح الله الذي لا يحد. والذي

ينبغي أن تراه محبة غير محدودة منسكبة علينا. وهكذا لن تتوقف عن التقدم في حياتك، بل تتابع إلى الأمام دون أن تهدر وقتك وعملك.

هناك طريقة أخرى تحفظ بها سلامك الداخلي عندما ترزح تحت ثقل هذه المخالفات، وهي التالية: ادمج الفعل الداخلي والذي هو ادراكك لعدم جدارتك واستحقاقك، بالتواضع أمام الله، مع تذكرٍ حارٍ لمراحمه الإلهية العظيمة التي أعلنها الله لك شخصياً. بهذا تجدّد حبك له. حرّك في نفسك الرغبة أن تشكره وتمجده. بعد ذلك اشكره ومجّده بحرارة ومن أعماق النفس. فشكر الله وتمجيده، هي أسمى أيات التعبير عن الاتحاد الحي به وفيه. حاول الاستفادة من زلتك، واجعل ذلك يُعينك على الارتقاء إليه. ليكن هذا في ذهن الذين يضطربون ويتعكرون نتيجة للتفكير بالمخالفات التي يرتكبونها. فهي تؤهلهم أن يروا مقدار عماهم في المسألة التي أمامهم، وكم أنهم يتأذون بسبب حكمهم الخاطئ. لمثل هؤلاء توجّه هذه النصيحة الأخيرة. فهي تضع في أيدينا المفتاح الذي به تستطيع النفس أن تفتح بيت الكنز العظيم، بيت الروح. وتستطيع بمدة قصيرة، أن تغتني بنعمة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد والكرامة والعبادة مع أبيه الذي لا بدء له وروحه القدوس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين أمين.

ملحق من اعداد الأب منيف حمصي

القديس ثيوفان الحبيس

إنه المطران ثيوفان الحبيس واحد من ألمع كواكب البرية الروسية. كاتب مميز في ميدان النسك والتصوف. طبّقت شهرته الآفاق ليس فقط في حدود الاتحاد السوفياتي، بل في كل مكان من العالم أيضاً. عاش القديس ثيوفان حياة العمل والثيوريا. كان رجل صلاة ورجل خدمة. خدم النفوس بالوعظ والارشاد. إنه شخصية فذة وفريدة. في العالم كان اسمه جورج غوفوروف. ولد في العاشر من كانون الثاني سنة ١٨١٥ في قرية صغيرة وادعة تدعى شيرنافسك في بطاح الاورال الواسعة والسحيقة. أبوه يدعى باسيل، كان خطيباً مفوّهاً عرفته القرية وكل ضواحيها. لكنه رغم لمعان موهبته، اتسم بالتقوى والوداعة. أما والدة القديس ثيوفان، فكانت امرأة تقطر وداعة وتقوى وطهارة، وكانت على قدر كبير من العمق الديني والروحي. كانت طفولة ثيوفان حلوة وجميلة. فقد نما وترعرع في وسط يعبق بالبخور والصلوات. أحب الكنيسة من قلب الأسرة. عرفها في البيت قبل أن يعرفها ويختبرها خارجاً.

سنة ١٨٢٣ أرسله والداه إلى المدرسة الاكليريكية في (ليفني) وهناك لمع واستبانت مواهبه وطاقاته العقلية، إلى جانب العذوبة الروحية التي لمسها فيه كل من تقرّب منه. وفي سنة ١٨٢٩، أرسل إلى السيمنار في بلاد الاورال. وهناك تعرّف على الارشمندريت ايسيدوروس نيكولسكي الذي سيصبح فيما بعد أسقفاً على بطرس برج. أعجب ثيوفان بالكثيرين، إلا أن قلبه انجذب إلى أستاذ الفلسفة اوستروموزلنسكي.

في حياته الأكاديمية أحب ثيوفان الفلسفة وعلم النفس كثيراً. وفي سنة ١٨٣٧، عندما أتم دراسته بامتياز، في السيمنار المذكور، أرسل إلى كلية اللاهوت في كييف. وهناك لمع جداً كعهدنا به في الاورال. أعجب ثيوفان بمعلميه كثيراً لا سيما منهم الارشمندريت ديمتري موريتوف والأسقف انونسنت (بريء). لكن رغم حبه للعلوم وبراعته فيها وتفوقه بشهادة رفاقه وأساتذته، إلا أن جزوة النار الالهية كانت تلتهب فيه، فكان في أعماقه حنين إلى السيرة الرهبانية. لقد أراد أن يصبح راهباً. أحب الرهبنة. أعجب بهدوء الأديار. أنهى علومه اللاهوتية في كييف في ١٥ شباط ١٨٤١ وله من العمر ٢٦ وسنة. تعرّف في تلك الأثناء على رفيق الدراسة بولفاكوف الذي سيصبح فيما بعد واحداً من ألمع لاهوتيي روسيا والعالم في التاريخ الكنسي واللاهوت العقائدي. وفي إحدى اللقاءات التي جمعته برجال الروح، تحلّق رتل من الشباب الأيافع حول الأب الراهب بارثانيوس فألقى فيهم كلمة عساها كما أراد، تكون زاداً لحياتهم بعد الدراسة. ومما جاء فيها: أيها الرهبان الأيافع. أنتم أصحاب علم ومعرفة، وقد غرفتم منها الكثير، لكن لا تنسوا أن أهم عمل يطلب منكم هو الصلاة. صلّوا على الدوام بالفم والذهن والقلب. لا تكلوا قبل بلوغ مثل هذه الصلاة. وكان بشهادة ازميرنوف، ثيوفان قديسنا حاضراً، فشعر من أعماقه وكأن الكلمة له دون سواه. في ربيع ١٨٤١ عُيّن الأب ثيوفان رئيساً على السيمنار الاكليريكي في كييف، وانيطت به مادة علم المنطق، فأعطى دروساً فيها الهبت العديد من التلاميذ. كذلك انيط به كرسي «علم النفس». وفيما بعد عيّن مشرفاً من قبل الكنيسة على سيمنار نوفغورود. في سنة ١٨٥٥ صار خطيب سيمنار اولونيتز. كانت شخصية البروفسور ثيوفان لطيفة وقريبة من القلب، فقد ألهب قلوب تلاميذه حماسة إلى العلم والتقوى، فكان مثالهم وقدوتهم في الأخلاق. وأثناء عمله في حقل التعليم، وفي سنة ١٨٤٧، قررت الحكومة الروسية ارسال بعثة إلى اورشليم لدراسة أحوال الارثوذكسيين في الشرق الأدنى، بغية ارساء قاعدة تربوية روسية هناك. كان الأب الارشمندريت بورفيريوس اوزبنسكي رئيساً لهذه البعثة، وكان ثيوفان

أحد أعضائها. حطّت البعثة في اورشليم إلا أن أعضاءها طافوا تلك الديار طولاً وعرضاً، فجابوا سوريا ومصر، وعبروا برية سيناء مروراً إلى جبل اثوس. وكانوا في تجوالهم يتعرفون على المكتبات الشهيرة في كل مكان ويدوّنون معلوماتهم عنها. وكانوا في نفس الوقت يطالعون المخطوطات القديمة التي كانت تقف في طريقهم. أما حصة ثيوفان، فكانت الإقامة في ربوع دير القديس سابا. فعكف على العمل على تصنيف كتابات الدير ومخطوطاته، بالإضافة إلى نفس المهمة في دير سينا. كذلك زار أدياراً قبطية ما تزال حتى الآن تذكر له هذه البركة وترتشف نعمها وشفاعاتها. لكن لسوء الحظ لم يتمكن من زيارة جبل اثوس، فقد حصر رئيس البعثة زيارة اثوس بنفسه. تعرّف ثيوفان على الاكليريكيين في تلك الديار. وأدرك كما جاء في مذكراته أنهم فقراء، وفي غاية من البؤس، وكانوا على حالة مزرية من الجهل، ومع هذا فكانوا على شيء من الاعتداد بالنفس يميل إلى الكبرياء. أما الاكليروس الفلسطيني، فكان يحب أكل اللحوم والتدخين وما أشبه، فأعثر ثيوفان لما رأى. كذلك درس ثيوفان أحوال الارساليات الكاثوليكية والبروتستانتية في الشرق، لا سيما في الأراضي المقدسة. وأثناء اقامته في هذه الربوع، بادر إلى تعلم الفرنسية واليونانية والعربية والعبرية، إلا أن اندلاع حرب القرم عجّلت في عودة البعثة إلى الوطن. وفي طريق العودة عرّج الجميع على ايطاليا والمانيا وقد أحب ثيوفان فلورنسة كثيراً والبندقية وروما. ولدى اقامتهم في ايطاليا قام الباب بيوس التاسع باستقبال البعثة، وشكى إليهم من أمر وسلوك نيقولا الأول الذي كان قد تطاول بكلماته على كرسي روما وعبث ببعض الادارات الكاثوليكية على هواه. في سنة ١٨٥٧ عيّن ثيوفان مندوباً للكنيسة الروسية في استنبول أثناء المسألة البلغارية. وكان موقف ثيوفان أن البلغار كانوا على حق في أن يكون لهم أساقفة لهم ومن أعوانهم. فما كان من المجمع الروسي إلا أن وافق على موقف ثيوفان. في ١ حزيران ١٨٥٩، وكان له من العمر ٤٤ سنة تم انتخابه أسقفاً في لافرا القديس الكسندر نيفسكي، وانيطت به رعاية منطقة تامبوف، التي ستلد من أحشائها بعد سنوات القديس سلوان

الشهير والذي أعلنت قداسته في أيلول ١٩٨٨ بعد ٥٠ سنة تقريباً على وفاته. أقام الأسقف ثيوفان في تلك الأمصار أربع سنوات نقل بعدها إلى منطقة أكثر أهمية تدعى فلاديمير. وهناك أقام ثلاث سنوات كان فيها مثال الخادم الأمين للرب. أثناء خدمته الرعائية هناك عمل على تأسيس مدرسة للبنات وأخرى للصبيان. كذلك أسس قطاعاً منظماً عمل على تحسين أحوال الكرازة والبشارة والرفع من مستوى الاكليروس، وكان هو أحد المحاضرين فيه. جاهد كي يعلّم الناس الطريق إلى الخلاص بالمسيح، وكان أستاذاً لامعاً في الصلاة، أحبها وحبّب الكثيرين بها، فكان الأسقف الأب. عرف كيف تكون الرعية عائلة للكاهن وللراعي. وهو نفسه قام يدرب الناس ويحثّهم على الحياة البسيطة والتي كان أيضاً أستاذاً فيها. فكان لباسه بسيطاً وطعامه بسيطاً أيضاً، وكان يتناول وجبة واحدة في اليوم. كان أخاً للكهنة، ورفيقاً للمتألمين وللحزانى وللأرامل يستمع للجميع فرداً فرداً، بصبر انقطع نظيره. في ربيع ١٨٦٦ رفع الأسقف ثيوفان رسالة إلى المجمع يطلب فيها السماح له بالتقاعد والاعتزال في دير فيشا في ضواحي تامبوف. في ١٧ حزيران من السنة ذاتها، وافق المجمع إلى طلبه، لكنه أوكل إليه رئاسة الدير الجديد (فيشا). فقام ثيوفان بقداس أخير في أبرشيته قبل التوجه إلى دير فيشا، فاحتشدت لوداعه جموع غفيرة من المصلين والمصليات، وبدأ الجميع بالبكاء وكأنهم في مأتم جنازة. أما هو فكان له كلمة مؤثرة جداً يتسع المجال لو نقلت إلى العربية، لكن نذكر منها بعض المقتطفات: يا أخوتي، أرجوكم لا تجرحوني حباً بالرب. لا تنزعجوا لرحيلي. أنا أتركم ليس لأني أريد ذلك، كما ولست مرغماً على ذلك. ان محبتكم لي، لا تسمح باستبدالكم بقطيع آخر. إنما اسمحوا لي أن أذهب إلى مكان يخلو من الهموم والمتاعب، والذي أرجو أنه مكان يحبه الكثيرون. لا بد أن أقول لكم أن أموراً كثيرة تتحكّم بمجريات حياتنا الظاهرية، لكن هناك عوامل داخلية تقود خطانا إلى قرارات حاسمة جداً تكون بمثابة نقطة تحوّل في حياتنا. هناك حاجة داخلية يصغي إليها الضمير ولا يعارضها القلب. فأنا إذ وجدت نفسي في مثل هذه الحالة، فإني أسأل محبتكم أن تصلوا من أجلي

كي يثبتني الرب في ما أنا مقبل عليه.

وصل المطران ثيوفان إلى دير فيشا في الثالث من آب ١٨٦٦. دخل الدير باحتفال مهيب، ليبقى فيه دون أن يبارحه طيلة ثمان وعشرين سنة. كان الدير كبيراً واسعاً يعيش فيه ١٠٠ راهب. كان يربض بين اشجار الصنوبر الشاهقة ويحيط به نهران صغيران الاول: تسينا، والثاني: فيشا الموقع جميل جدا ويصلح كمناخ للتأمل الروحي. وقد جاء في إحدى رسائل القديس ثيوفان يصف فيها الدير الأمور التالية: «الدير جميل والهدوء ملفت للانتباه والأخوة متحابون والصلوات طويلة، وكل هذه، تساعد على التقدم في حياة الصلاة التي هي غاية حياة الرهبان في الدير. أما الصلاة فتبدأ كل يوم في الثالثة صباحاً، وتتوّج بالقداس الإلهي. هناك بعض الأقوياء الذين يظلون واقفين في الخدمة منذ البداية وحتى النهاية». كان للمطران ثيوفان غرفة خاصة به ومكتبة كبيرة. وكان هو نفسه أيقونة حية أمام الرهبان. قضى السنوات الست الأولى في دير فيشا يواظب على كامل الصلوات اليومية. فكان في الكنيسة لا يتحرك البتة ولا ينحني وعيناه مغمضتان كي لا يتعرض للشرود. وحدث في إحدى المرات أن ظل الراهب واقفاً وهو يحمل له البروتي مدة طويلة قبل أن ينتبه ثيوفان لوجوده. طوال السنوات الست هذه، كان ثيوفان يستقبل الزوار وكان في الوقت نفسه يتصرف كرئيس للدير بكل معنى الكلمة. لكن في فصح ١٨٧٢ وبعد قداس العيد، تحوّل إلى راهب حبيس، فما عاد يستقبل الناس أو يغادر الغرفة التي هو فيها. وكان يدخل عليه رئيس الدير فقط وأب الاعتراف والراهب المكلّف بخدمته عند الضرورة. وحتى هؤلاء كانوا يدخلون بعد طلب منه. لم يعد ثيوفان يذهب إلى كنيسة الدير، بل كان يقيم الصلوات كلها في غرفته مع الذبيحة الإلهية. السنوات التسع الأولى من الاعتزال، كان فيها يقيم القداس الإلهي يوم الأحد فقط ولكن بقية السنوات الأخرى فكان القداس كل يوم. وكان تارة بصمت وطوراً بترتيل. لا يعرف إلا القليل القليل عن حياته بعد الاعتزال. كان ثيوفان بعد صلوات النهار يجلس ليتأمل فيها وفي الأبدية

ومحبة السيد والكنيسة والقديسين. كان يتناول كوباً من الشاي صباحاً بعد القداس. في اعتزاله وضع كتباً عديدة هي بمثابة مكتبة في الواقع. وخليق بذوي المواهب وعشاق التراث أن ينشغلوا باللغة الروسية عسانا نوفّق إلى مطالعة أعمال هذا القديس وسواه بالعربية. كان طعام الغداء بالنسبة إليه في الثانية بعد الظهر، فكان له خارج فترات الصوم بيضة وكوب من الحليب مع قطعة خبز صغيرة. وفي الرابعة بعد الظهر كان يعود ليحتسي كوباً من الشاي، يتوجه بعدها إلى صلاة التاسعة، فالغروب. كان المساء فرصة للمطالعة والرد على رسائل الأخوة والأخوات من العالم. كان القديس ثيوفان يتلقى ما بين ٣٠ إلى ٤٠ رسالة كل يوم يطلب فيها أصحابها النصح والارشاد منه. لكن رغم اقتباله للرسائل، إلا أنه لم يكن يستقبل أحداً على الاطلاق. أما في الأصوام فكان طعامه يقتصر على قطعة جافة من الخبز مع كوب من الشاي. عاش القديس ثيوفان قرابة الثمانين سنة في صحة جيدة حتى نهاية حياته. إلا أن هناك ثمانية سنوات مسجلة في مذكراته شكلت له ضيقاً في مسألة العينين. فبدأت مشاكله مع النظر. ونتيجة لشهرته الكبيرة فقد منحته كلية العلوم اللاهوتية الروسية شهادة دكتوراه شرفية نظراً لخدماته وأعماله ومساهماته في حقل الرب. أثناء اقامته في ربوع دير فيشا عرض عليه بالحاح أن يكون مطراناً على كييف، فرفض بلطف لأنه كان يستعد للدخول في الاعتزال عما قريب. كان رجل علم من الطراز الأول، ورجل نسك فذ، وقد برع في الأمرين معاً. اضطر مرتين على التوالي أن يغادر دير فيشا بسبب الماء الزرقاء (١٨٧٨ ـ ١٨٧٩) لكن دون جدوى. في سنة ١٨٨٨ أصابه العمى في عين واحدة، لكنه ظل مواظباً على أعماله اليومية المألوفة. لم يتأثر برنامجه اليومي بأي شكل من الأشكال نتيجة لهذا العمى. فقط الأيام الخمسة الأخيرة من حياته طرأ عليها بعض التعديل وكان ذلك لظروف فوق طاقته. ويذكر الأستاذ زميرنوف ذلك ويقول: «في نهاية حياته، أفاق صبيحة الخامس من كانون الثاني فأحس بالضعف الشديد في رجليه، فطلب العون كي يمشي. فقام الراهب الساهر على خدمته وأعانه لبضعة دقائق داخل الغرفة. إلا أن

ثيوفان أحس بالتعب الشديد بعد ذلك، فاضطر إلى الجلوس. وبعدها عاد إلى الفراش من جديد. وفي يوم وفاته لم يسمع الخادم صوتاً يدعوه كما هي العادة، إلا أنه خوفاً منه على صحة القديس، أطل من شق الباب بهدوء بعد منتصف الليل، فوجد القديس جالساً إلى الطاولة يكتب شيئاً على دفتره. ولما حان موعد الشاي ولم يسمع الراهب صوتاً، عاد فأطل من الباب فرأى القديس مستلقياً على السرير. وكانت ابتسامة حنونة تعلو محياه ويده تشير بالبركة. لقد غادر العالم قبل أربعة أيام من بلوغه الثمانين. لم يكن يعاني مرضاً محدداً. بعد رقاده قام الدير كما هي العادة بالصلاة على جثمانه. واحتشد ألوف من الناس لوداعه وكان حاضراً يرأس الخدمة مطران تامبوف. أمضى ثيوفان في حياة الاعتزال ٢٨ سنة كتب فيها أموراً عديدة تصلح مكتبة عامة دينية بدون شك. تميزت كتاباته بالطابع الروحي والميستيكي وإليكم بعضها: رسائل إلى أناس طلبوا منه النصح والارشاد وتخلو من أسماء. رسائل عن كيفية السلوك في الحياة المسيحية. رسائل تتعلق بعيش الإيمان في عالم متعب كالذي نحن فيه. رسائل في اليقظة والصلاة. وضع القديس ثيوفان شروحات لرسائل القديس بولس. كذلك أسهم في تفاسير جميلة للمزمورين (٣٣ - ١١٨). ساهم في ترجمة الفيلوكاليا الروسية وجعل الكتابات النسكية محببة إلى قلوب المؤمنين. ساهم في كتاب الحرب غير المنظورة للكاهن الكاثوليكي لورينزو سكوبولي. نقل عظات القديس سمعان اللاهوتي الجديد إلى الروسية. وأهم أعمال ثيوفان هو كتاب يحمل اسم (طريق الخلاص). فيه يتكلم عن الحياة الروحية عند الآباء الحبساء فيصف أن غاية الحياة الروحية هي الاتحاد بالله. وكيف أن على المؤمن الايمان بالله والثقة المطلقة به وحفظ وصاياه. للنعمة دور فريد عنده كحال كل الآباء الشرقيين. الحياة في الروح القدس أمر لا غنى عنه من أجل القداسة والاتحاد بالله. يرى القديس ثيوفان أن القداسة مستحيلة بدون ارشاد الكنيسة. عنده كتابات رائعة عن ممارسة صلاة الرب يسوع وصعوباتها وحلاوتها. ووضع رسالة طويلة عن الصلاة أسوة بما فعله القديس

غريغوريوس بالاماس. وضع رسالة إلى راهبة تدعى (مغدالينا) في يوم اعطائها الاسكيم الكبير.

أحب القديس ثيوفان الصوفية الغربية ولاقت في نفسه استحساناً، على عكس القديس اغناطيوس بريانشانينوف الذي شجبها لأن دور الخيال كبير في حياة الصلاة عند الغربيين كما ظن. وضع شرحاً طويلاً لكتاب توما كمبيس (الاقتداء بالمسيح) يصلح أن يكون كتاباً يعلّم في معاهد اللاهوت، لما فيه من كلام دقيق عن خواص الروحانيتين الشرقية والغربية. كان للقديس اغناطيوس بريانشانينوف موقف خاص من القديس اغناطيوس لويولا ومن القديس فرانسيس الاسيزي. يستطيع من يرغب في الاطلاع على الروحانيات المختلفة، أن يطالع ثيوفان الذي له ما يقوله في هذا الباب. يتبين للذين طالعوا أعماله باللغة الام، انه يكثر الكلام عن رؤية النور غير المخلوق. والجدير بالذكر أن أعمال القديس ثيوفان محفوظة بالكامل في دير القديس بندلايمون في جبل اثوس. رقد ثيوفان بالرب في نهاية القرن التاسع عشر حين كانت الرهبنة نشيطة، لكن الثمر الحقيقي كانت يد الله قد ارجأت قطافه حتى القرن العشرين. وجاء القرن المرتقب وقدمت روسيا الملايين من الشهداء في جو من الاضطهاد المرير الذي لا يخلو قطعاً من الثمر الروحي، والثمر كان كبيراً، وكبيراً جداً.

ما صدر للمعرّب

١ ـ كتاب «**اذهبوا بسلام**» بتمويل من مجلس الكنائس العالمي
٢ ـ «**أقوال الاباء الشيوخ**» طبعته منشورات النور بالتعاون مع البلمند
٣ ـ **شرح القداس الالهي**
٤ ـ **اليقظة والصلاة**
٥ ـ **الحرب اللامنظورة**
٦ ـ **اربعمئة قول في المحبة للقديس مكسيموس المعترف** (تحت الطبع)
٧ ـ **الكتاب المقدس في الكنيسة** (قيد الاعداد)
٨ ـ **العائلة في الكنيسة والكتاب** (قيد الاعداد)